
رواية
الرئيس
محمد العدوي
مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل

الرَّئِيسُ

عنوان المصنف : الرئيس : رواية

المؤلـــــــف : محمد العدوي

الناشـــــــر : دار كليم للنشر والتوزيع

7 عمارات البترول بجوار نادي التوفيقية للتنس

المهندسين - القاهرة - جمهورية مصر العربية

تليفون : 1006 72 1222 20 +

فاكس : 36 55 44 33 202+

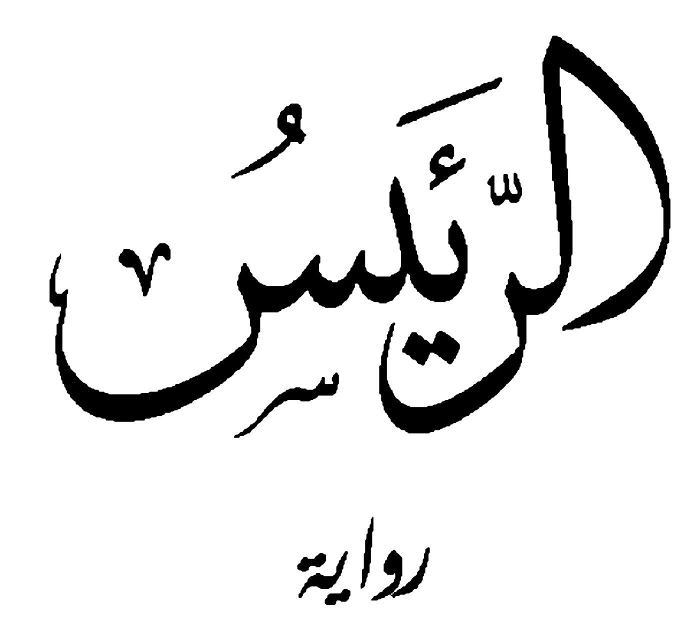
darkaleem85@yahoo.com

رقم الايــــداع :

الترقيم الدولي: 9789775202079

الطبعة الأولى

1433هـ / 2012م



رواية

محمد العدوي

إهــداء...

إلى الذين سيعيدون للعالم بهاءَه الذي خلقَهُ اللّه عليه ..

محمد العدوي

مجرد إشارة

محمد المخزنجي

هنـاك كُتَّاب يولدون كبـارا، وهي حالة نـادرة التكرار ومدعاة للتأمـل، وهذا الكاتب «محمد العدوي»، وروايته الأولى «الرئيـس»، منحـاني الفرصة لمحاولة سبر بعض أغوار هـذه الظاهرة الإبداعية الجميلة، فقد أتيح لي أن أعرفه كاتبا قبل أن أسعد بمعرفته شخصـيا، عندما قرأت له مقالا جميلا مزج بين العلم والأدب بأداء رفيع ولغة شـاعرة وعمق في التقـصي ورحابة في المنظور، حتـى أنـي تمنيـت أن أكون كاتب هذه المقطوعة النثرية المرفرفة، وهذا أحد مقاييـس لجودة الكتابـة، وبرغـم أنني تواصلـت مع الكاتب فيـما بعد، وتعرفت على عذوبته الإنسـانية وغزارة وصفاء منابعه الثقافية، إلا أنـي أشـفقت عليـه عندمـا حدثني عن مشروعـه الروائي عندما اختـار أن يكتب رواية عن «ابن سـينا» الطبيب الفيلسـوف «الرئيس»، وكان إشفاقي من وعورة العالم الذي اختار اقتحامه، والصعوبة التي تتطلب حنكة أدبيـة كبيرة لترويض هذه الوعورة حتى يتخلى الموضـوع عن قـساوته التاريخية وتدويخه الفلـسـفي ويلين لعاطفة الأدب، الأدب الذي هو في أفضل تعريفاته «سِجلٌ للمشاعر».

وقد فاجأني محمد العدوي بعد أن امتلك موضوعه بعمل تمنيتُ لـو أكون كاتبه، وهـو هذه الروايـة «الرئيـس»، التـي أرى أنّها عمل كبير، لكاتب ولد كبيرا، فيها عذوبة اللغة المحلقة، وشعرية التأمل،

وجديـة البحـث، وخصوبة الخيال، فهي عملُ موهبـةٍ حقيقية، فيها جرأةٌ فكرية، ونبلٌ إنسـاني، ومزج مقتدر بين ما كان وما هو كائن وما ينبغي أن يكون، في رحلة بديعة لتعقب السـيرة الباهرة لابن سـينا، من القاهرة لطهران، ومن زمن الكاتب لزمن المكتوب عنه، ولم يكن الكاتـب هيابا أبدا برغم رقة عوده ورهافة مشـاعره، فاقتحم أفكارا إشكالية كبرى بطمأنينة قلب سليم.

إنها الموهبـة الأصيلـة، والحساسـية العاليـة، والجـد الثقـافي، والإخـلاص لجـلال الحياة، وهـذه كلهـا، فيـما أتصـور، المركبات الأساسـية في «كيميـاء» تكويـن الكُتـاب الشـباب الذيـن يولـدون كبارا.

وبقي أن أشـير لخصيصـة شـديدة الأهمية في بنيان محمد العدوي الثقافي والروحي، تجلّت بدورها في سطور روايته، وهي عدم امتثاله لموضوعَـات الرواية الغربية ولا رواج الشـائع من ظلالها لدينا، فقد كان ابنـا بـارا للشرق الثقـافي والروحـي، دون تنازل عـن جماليات وتشويق الرواية حيثما كانت، ووجيب قلب الإنسان أنّى يكون.

إنني فخور بمعرفة الكاتب، وسعيد بميلاد الرواية، ويتضاعف الافتخار والسـعادة، كون هذا الكاتب الشـاب الذي وُلِد كبيرا، هو ابـن مديتـي «المنصـورة» ، وخريج كليتـي «طب المنصـورة»، وهو طبيـب عيون جليٍ البصر الفني، وحَسَـنُ البصيرة الإبداعية.

***

مكتوب على المدخل

«فطالبُ الحقِّ ليس هو الناظرُ في كتبِ المتقدمين، المسترسلُ مع طبعه في حسن الظن بهم، بل طالبُ الحقِّ هو المتَّهم لظنه فيهم، المتوقِّف فيما يفهَمُه عنهم، المتبِّع الحجة والبرهان لا قول القائل الذي هو إنسان».

ابن الهيثم

صالة الدخول

«وُرُود»



بداية

١٤ يونيو ٢٠١١

ندى نائمة على مقعدها، بين وسـادة صغيرة، وأرنب من فرو أبيض. في كفي كفُها، يمنح نفـي رحابةً، تسعُ العالَم الذي نحلقَ فوقه.

جلسـت هي إلى جواري، وأمها الدكتورة «رضوى» ناحية الممر.

في مطار القاهرة صباح اليوم كان لقاؤنا الأول.

مسرعة، تعرفني الدكتورة بنفسها:

- رضـوى حسـن، حدثتـني غادة عنك كثيرا. معذرة لم أسـتطع أن أقابلك خلال الأيام الماضية، إجازتي في مصر كانت قصيرة. حتى غادة لم أقابلها إلا مرة واحدة، زارتني هي بعد وصولي بيومين.

- لا مشكلة، يكفيني اهتمامكما هذا.

- هذه ندى، ابنتي. سلمي على عمو يا ندى.

تفرد ذراعها الصغيرة عاليا، وتعيدها خلف رأسها، قبل أن تنزل بها إلى يدي، لتسلم سلاما يزهر صداقةً تجعلها جالسة على فخذي، متعلقة بنافذة الطائرة خلال الرحلة، رغم تحذير المضيفات لنا أثناء الإقلاع والهبوط.

- أمي تقول إن الطائرة عصفور كبير .. صحيح؟

- نعم.

- نحن في بطن العصفور؟

- نعم..

- وهذه النافذة هي عينه؟!

- نعم..

ألصقت وجهها بالزجاج، وبخار تنفسها متكاثف حول فمها.

- لا أرى شيئا!

مالت الطائرة إلى اليمين وهي تدور فانكشفت الأرض تحتنا من النافذة.

قلت: «انظري هكذا ترى العصافير العالم».

- ماذا ترى؟!

على الأرض كانت المربعات الخضراء تتداخل مع حدود الصحراء الواسعة الممتدة إلى الأفق، تقطعها طرق مرسومة كأنها أخاديد شقت بسكين، نترك القطع الخضراء القليلة خلفنا، ونستشرف جهة الصحراء التي تملؤها تلال صغيرة لها ظلال سوداء واسعة مفروشة على الأرض.

يظهر العالم مساحات ملونة من السماء.

تعتدل الطائرة وتحل السماء الزرقاء مكان الأرض الملونة.

أقول لندى:

- ترى عالماً ملونًا وجميلًا.. الطيور لا ترى سيئات العالم.

ليست هذه هي المرة الأولى التي تسافر فيها ندى، هكذا قضى عليها اختلاف الأجناس، فأبوها من بلد، وأمها من بلد، وولدت هي في بلد غير بلد أبيها وأمها.. وبين هذه البلاد الثلاثة ترحل في بطن عصفورها الكبير كل عام.

في العراق على ضفة دجلة قبل أربع سنوات، بين التاريخ واللغة، ولدت أميرة صغيرة من أميرات الحكايات الفارسية. عينها عربية واسعة، وشعرها كردي ناعم، ووجهها مصري فيه سمرة، ولها لسان ينطق بلغات ثلاث متشابكة.

لم تكفّ عن اللعب خلال ساعات انتظارنا في مطار دبي والتي أكملت الثمانية، تقف على سَير المرور، ووجهها عكس اتجاه سيره، وتظل تحرك قدميها كأنها تمشي، وهي في مكانها لا تتحرك.

تترك السير، وتجلس قليلا تطالع مجلة معها، ثم تعود تقفز بين الحقائب والمسافرين المنتظرين. تدفع عربة صغيرة ينام عليها طفل فتنبه لها أمه وتتابعها قليلا مبتسمة حتى إذا ابتعدت قامت إليها تعيدها، تعود وفي وجهها امتثال وهدوء مفاجئ لا أصل له.

حين ركبنا الطائرة من مطار دبي، كان مخزون طاقتها قد نفد، فنامت تاركة كفها في كفي.

تابعت خط سير الرحلة على الشاشة الصغيرة أمامي، كنا نطير بعد منتصف الليل، ولم يكن يظهر من النافذة إلا مصابيح بعيدة متلألئة أحيانا، وسواد متصل لا نهاية له أحيانا أخرى. عبرنا مياه الخليج وأصبحنا نطير فوق سلسلة جبال عالية، ثم أرض سهلة، ثم عادت الجبال من جديد، لتدور الطائرة حولها، وتستعد للهبوط.

في المطار، كنت أفتح عيني بجهد وأنا أبحث عن حقيبتي بين الحقائب المتابعة على السير المتعرج كثعبان طويل.

أدقِّقُ النظر وأكرر مواصفاتها لنفسي، لأتأكد أني أترجم بصورة صحيحة ما أراه حولي، وأني قد استيقظت فعلا بعد هذه الرحلة التي استغرقت عشرين ساعة كان أكثرها انتظارا في مطار دبي.

«زرقاء صغيرة عليها خطوط عشوائية غامقة، وذراعها مكسورة».

تخونني عيني عن متابعة الحقائب الخارجة من البوابة الصغيرة، وتنشغل بتأمل المطار الفسيح والوجوه المنتظرة من حولي.

وجوه متعبة من السفر، ومن السهر، ومن الانتظار، مثلي تماما. أميز منها وجهين رأيتهما في مطار القاهرة في الصباح، رجل في منتصف العمر، بيده نسخة إنجليزية من رواية ساحر الصحراء لباولو كويللو، كلما وقعت عيني عليه أجده منشغلا بالمطالعة فيها. وفتاة وجهها أوروبي، تغطي شعرها الأشقر، بغطاء منسدل على كتفيها، عرفت من جواز سفرها أنها بوسنية.

لا شيء يبدو غريبا، كل ما حولي مألوف كأنني أعرفه من قبل، حتى الوجوه، وأشكال الحروف على لوحات الإرشاد.

ربما هي المطارات المتشابهة في كل الدنيا. المسافرون والحقائب وموظفو الجوازات والعمالُ يحملونَ الأمتعة. تختلف اللافتات واللغات المكتوبة عليها، ويبقى المطار هو المطار. مكانٌ للفراق وللقاء.

لرهبة الغريب النازل، ولفرحة المغترب العائد.

مكان العبور، والدموع، واللامبالاة أيضا.

تصدمني حقيبة كبيرة يسحبها رجل من السيْر إلى عربة حقائبه. يربّت على كتفي وهو يبتسم معتذرا، فأجيبه بالعربية سريعا: لا بأس.

ثم أتنبه إلى أنه لن يفهمني، فأكتفي بالابتسام وهو يدير عربته ويبتعد بها مسرعا، وأعود أنا إلى انتظار حقيبتي على السير من جديد.

تأتي الحقيبة على مهل، أراها خارجة من البوابة الصغيرة، تتعثر بين الحقائب الكبيرة التي حولها، أبتسم لها حين تصل، وآخذها لأقف في الطابور الخارج من ساحة الجمارك.

لا ضجيج، ولا نداءات، ولا شجار، لا شيء سوى أصوات الحقائب، ورنين الأختام، وتحيات قصيرة من رجال الجوازات.

ينظر الموظف إلى حقيبتي، ويطالع جواز السفر، ويقول لي بالإنجليزية: مرحبا بك.

نعبر البوابة إلى ساحة الوصول.

عند البوابة كان طابور المنتظرين خلف السور الصغير، ممسكين باقات ورد يلوحون بها لأقاربهم وعلى وجوههم ابتسامات فرحة منهكة من السهر.

أقول للدكتورة رضوى:

«في طهران يُستقبل العائدون من السفر بباقات الورود».

كثيرة هي الورود المصفوفة في طابور المنتظرين، سأرى بعد خروجي من المطار بائعي الورد يعرضون باقاتهم على الداخلين، وسيظل الورد على امتداد الطريق حتى تخرج السيارة إلى طريق طهران.

تضحك وتقول: «جئت تنوي السحر هنا. فتخيله في باقة ورد على باب المطار. اصبر حتى يكشف لك النهار سحر هذه المدينة كاملا، لا تفسد المفاجأة بسحر صغير تسربه إلى نفسك».

نجتاز بوابة مطار الإمام الخميني، ورائحة فجر المدينة النائمة تهب على وجهي. أملأ بها صدري، فأشعر ببهجة خفيفة تزيل آخر ما بقي لي من خوف الرحلة التي بدأتها بالأمس.

هل تسافر إلى إيران؟!

تقول أمي: ألم تجد مكانا آخر تذهب إليه؟

- وماذا أفعل ولم يجد ابن سينا مكانا آخر ينهي فيه حياته، سوى إيران!

أتابع السائقين على الرصيف المواجه للبوابة، سائقو الأجرة أيضا متشابهين كالمطارات، يعرفون كلمات كثيرة من لغات كثيرة، يقترحون أسماء فنادق بعينها، ويطلبون أجرا كبيرا، ويدعون عدم الفهم حين تجادلهم في الأجرة.

- كنجيان في شيراز، وسيصل غدا إلى طهران، تبيت أنت معنا الليلة، وتتعرف عليه غدا ثم نبحث أمر إقامتك.

- أشكرك كثيرا، لدي حجز مسبق وأنا في القاهرة، ومعي اسم الفندق وعنوانه.

ركبت هي سيارة أجرة، وبقيت أنا أتفرس وجوه السائقين، ربما لأنه كان يقف وحده إلى جوار سيارته ساكتا لا يتخطف الناس من البوابة ذهبت إليه. دار حول السيارة وفتح لي الباب، ووضع الحقيبة في المقعد الخلفي.

بخليط اللغات أسأله عن اسمه.

- عباس. وأنت؟

- محمد.

- مسلم؟

ليس لإجابتي معنى بالتأكيد، وإن أجبته بلا، فلن يفهم المزاح في الإجابة.

- الحمد لله.

- ما بلدك؟

- مصر.. اسمها بالعربية والفارسية واحد.

يتهج وجهه، وهو يقول: «مصر».. «مبارك».

يضحك وهو يشير بيده شارحا أنه رحل.

أبتسم له.

- نعم.. مبارك رحل.

- فندق عباسي جوود.. عرب كثير.. جوود.

- أريد فندقا تكلفته ليست مرتفعة.

يخرج هاتفه ويكتب عليه رقما، ويناوله لي..

أفهم أنها أجرة فندق عباسي هذا، ١٤٠ دولارا..

«لا كثير»!!

نحاذي مسجدا كبيرا، فيشير إلى يمين السيارة:

«حرم مطهر».. «مرقد خميني».

في ضوء الفجر الوديع، تظهر قباب المسجد اللامعة، ومآذنه الفضية. مسجد كبير واسع، ولوحة كبيرة على الطريق مكتوب عليها بحروف عربية «السلام عليك يا روح الله». وصورة الإمام الخميني رافعًا يديه بالدعاء، في وجهه تقطية غضب.

أردد بتلقائية دعاء المقابر:

«السلام عليكم دار قوم مؤمنين... اللهم لا تفتنا بعدهم واغفر لنا ولهم».

يقطعني سؤال أمي من جديد:

«إلى بلاد الشيعة يا محمد!! ألم يكن أمامك شخص آخر لتكتب عنه، سافر إلى تركيا، اكتب عن ابن حزم واذهب إليه في إسبانيا.. إيران يا محمد!! تذهب إلى الشيعة!!».

أبتسم لها في خيالي، وأنا أقول: وأقرأ لهم دعاء المقابر الآن أيضا!

أسأل السائق قطعًا للوقت:

- جئتُ لأزور أصفهان.

- أصفهان جميل.

- كم المسافة إلى هناك.

- هذا طريق أصفهان.. أمامنا طهران، وفي آخر الطريق خلفنا تكون أصفهان، خمس ساعات تقريبا. وبيننا وبينها مدينة قم.

خلفي تكون أصفهان!!

أنظر من زجاج السيارة وأنا أتمنى لو أخرق الحجب، فأراها.

هل كنت أصدق حين كتبت منذ سنة على صفحتي في «فيس بوك»: «إلى أصفهان خذوني معكم»، أن تكون خلفي، ويكون بيني وبينها خمس ساعات بالسيارة!

لمن كتبت هذه العبارة، فصدقها وأخذني معه.

أصفهان التي لم تكن إلا حلما، لا أعرف من أين بدأ، لكنه حوّل حروف اسمها إلى نغم حلو كلما جرى على لساني. حلم أحببت معه الصاد والفاء والهاء والنون.

ينبهني صوت خفقان الأعلام على جانبي الطريق، إلى أننا وصلنا إلى طهران.

أعلام كثيرة على سوارٍ عالية، وأعلام متدلية من الجسور العابرة، وإلى اليسار يظهر برج آزادي شامخا مضاء في ظلمة المدينة.

أعرفه من صوره المشهورة في نشرات الأخبار.

يشير إليه السائق: هذا برج آزادي.

آزادي هي الحرية بالكردية. علمنا السوريون هذه الكلمة منذ أسابيع، حين سموا بها جمعة من جمع ثورتهم التي بدأت.

نترك البرج سريعا، والسيارة تشق المدينة الصامتة.

«ورأيت طهران أول مرة برداء الفجر...».

الفجر يكسو المدن سكينة وهيبة.

وطهران التي تلبس الآن ردائي الفجر، السكينة والهيبة. تكمل لي أدوات السحر الذي جئت من أجله.

صوت القرآن يأتي خافتا، تلاوة نقية للشيخ محمد صديق المنشاوي:

﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى، إنما يتذكر أولو الألباب...﴾.

تنساب آيات سورة الرعد متتالية، وأنا أبحث عن المآذن في لوحة الفجر حولي فلا أجد الكثير منها.

- الشيعة يا محمد !!

- لقد كان هو أيضا شيعي!! ابن سينا، صديقي الذي قطعت لأجله هذه المسافات كان شيعيًّا. لم يخبرني بذلك حين أوحى إلي بلقائه في ذلك الحلم البعيد، لم يتحدث عن شيء.

كطيف خفيف أول الليل، همس باسمه في روحي!

من فضاء الحلم انفجرتْ نقطةٌ بيضاء، تناثرتْ خطوطًا متباعدة.

كأشعة الشمس افترقن إلى مدى.

وقبل أن تضيع الخطوط في البعد، انكسر كل اثنين متجاورين منها، ليلتقيا راسمين رؤوس حراب صغيرة.

ثم افترقا.

ليلتقيا من جديد.

وهكذا .. كلما تباعد خطّان، تلاقى في البعد خطّان.

والنقاط المضيئة في آخر كل خط، تتحرك مسرعة، ترسم باللقاء والفراق نجوما مربعة، ومثمنة.

تنكسرُ وتتلوى، على إيقاعِ نايٍ بعيد.

•

تكتملُ دائرة الخطوطِ المتشابكة، وتُطْوَى.

قبةً واسعةً.

والنقاطُ المضيئةُ لا تقف.

تُسارعُ في رسم الجدران والأعمدة التي تحملها.

والنايِ البعيد يَرِقّ لحنُه.

تكتملِ التيجان والمقرنصات والأعمدة المصقولة.

ويزيدُ مع الناي قانونٌ، وتكتسي الخطوطُ ألوانًا، وتصلُ النقاطُ إلى الأرض.

إيوانٌ كبير.

في وسطه بركةُ ماء، يرنُّ صوتُه مع صوتِ النَّاي والقانون.

وفي الصدر لوحةٌ كبيرةٌ، عليها آيةٌ من القرآن فيها ﴿قُلْ كلٌّ يعْمَلُ على شَاكِلَتِه﴾.

ثلاثةُ جدران، والرابعُ مفتوحٌ على باحةٍ واسعةٍ تغسلها الشمس، في وسطها نافورةٌ كبيرةٌ تصل إلى بركة الإيوان بنهرٍ من الرخام. وحولها أشجارٌ كثيفة وأزهار ملونة.

تِيجانُ الأعمدة منقوش فيها جزء من آية:

﴿كُنتم خيرَ أمّةٍ أُخرِجَتْ للنّاس﴾.

تتكرر بتناظر في كلِ ناحية.

يحزن الناي، ويخفت القانون والدُّف، وتُفتَح في آخِر الباحة بوابة كبيرة. في صدرها

رفوفٌ عليها كتبٌ مجلدة، فيها سكينةُ الكتب، ودفءُ رائحةِ الورق..

ويعودِ الوحي بلا صوت.

خفيفٌ ينسابُ في نفسي بلا مركز واضح:

«ابن سينا».

لا أحد في القاعة. إلا طاولة كبيرة في المتصف، من خشب منقوش، نفس النجوم المتشابكة. تصنع دوائر مكتوب في كل دائرة اسم، وتاريخ، بخط فارسي منمق.

الأسماء تترا، والتواريخ تكبر ويجيء اسمه من جديد بين رقمين (٣٧٠ - ٤٣٢).

وأمامه كتابٌ مفتوحٌ، في السطرِ الأول منه:

«إن الإنسانَ يجهل أكثرَ مما يعرِف، وغايةُ المعرفةِ إفادةٌ اليقين حتى يصل منه إلى مبدأ الوجود وعلله»..

وعلى هامش الكتاب عنوانه:

«النجاة».

* * *

تقفُ السيارة أمام فندق فاخر، يشير إليه السائق وهو يقول: فِرْدُوسي. يكسر الفاء، ويسكن الراء ويضم الدال، وتكون الواو امتدادًا للدال المضمومة.

سأحب هذه الطريقة في نطق اسمه كثيرا، وأكرره فرحا كلما أوقفت سيارة أجرة توصلني إلى الميدان.

فِرْدُوسي.

اسم يليق بشاعر.

لم يكن السائق قد فهم فيما يبدو رغبتي بفندق متوسط التكلفة، ولم أشأ أن أترك الفردوسي الذي جاءني مع انبلاج صبح طهران، فتركته يحمل حقيبتي إلى بهو الفندق، بعد أن تأكد من وجود غرف متاحة.

أعطيته الأجرة مطويّة، فوضعها في جيبه كما هي ولم ينظرِ فيها.

شكرني وانصرف، وعدت أنا أملأ بطاقة الفندق، وكلّ أمَلي فراشٌ ألقي عليه جسدي فأنام.

خلف رجل الاستعلامات طاولة مستديرة عليها أعلام صغيرة لدول العالم، تشاغلت بالبحث عن علم مصر بينها وهو ينهي إجراءات حجز الغرفة. لم يكن العلم موجودًا، ربما هو في الجهة الخلفية التي لا تظهر لي.

سألته إن كان علم مصر موجودًا هنا، فابتسم وهو يهز رأسه نافيا.

مدّ لي يده ببطاقة الغرفة، وهو يشير إلى عاملٍ كان يقف ساكنًا منذ دخلت إلى الفندق، فيحمل الحقيبة ويشير إلى جهةِ المصعد.

في انتظار المصعد كان الفردوسي ينظر إلينا من تمثاله الصغير عند السلم، جبينه مقطب وعلى وجهه إرهاق السنين، بيده اليمنى كتاب كبير، واليسرى مفرودة كأنما يهم بالمشي. وعند قدميه يجلس طفل صغير عاري الجسد، في عينيه رهبة، وشغف.

***

القاعة الأولى

«تالار أول»

لوحة ١

مايو ١٩٩٩

يُلوّنُ قوس قزح السقف والجدران.

والشمسُ تفرش الأرضَ، وجزءًا من المكتب.

فوقَ المكتب كانت الاسطوانات المبعثرة منذ الليلة البارحة هي ما يعكس أشعة الشمس ملونةً على كل ما حولها.

جهاز ألعاب الفيديو موصول بالتلفزيون، بابه مفتوح، وذراعاه متشابكتان، أسلاك كثيرة معقدة، الأورج على الكنبة المقابلة، وبقايا الطعام في الأطباق على الطاولة الصغيرة. وعلى الأرض علب المشروبات الغازية الفارغة. وصوت مروحة الحاسب تئز خافتة، وأنا أفتح عيني، في أول أيام إجازتي الكبيرة.

هكذا ظننت وسميتها، منذ بدأت الدراسة في الصف الأول الابتدائي؛ «إجازة آخر سنة في المدرسة هي الإجازة الكبيرة».

«وشهادة آخر سنة في المدرسة هي الشهادة الكبيرة»، أمْنِيَة عم محمود حارس المدرسة وأنا أصافحه يوم حصلت على شهادتي الأولى:

«عقبال الشهادة الكبيرة».

أفتح عيني، على السقف الملون، والغرفة المبعثرة، وفي عقلي ترن آخر عبارة في حلم تلك الليلة:

«إن الإنسان يجهل أكثر مما يعرف..».

كان يوما صاخبا من أوله، ولم أكن قد نمت ليلتي السابقة أيضا، كما يحدث عادة في أيام الامتحانات.

في الصباح، تعجلنا تسليم آخر ورقة امتحان لنا.

ودّعنا مقاعد المدرسة بأوراق مادة الأحياء، ثم تجمّعنا في الفناء، لم يكن في المدرسة سوانا في هذا اليوم، كانت كل المراحل قد أنهت امتحاناتها وبقينا نحن وحدنا.

لفّنَا هدوءٌ يملأ القلب حنينًا، وحزنًا. ونحن نتجول في أبنية المدرسة. دخلنا المعامل والفصول.

على السبّورات كانت بقيّة من كتابات اللجان، أو حصص العام الأخيرة، وعلى الأبواب أسماء الطلبة، وعلى الطاولات رسوم وتوقيعات وأحلام.

يرنّ الصوت في كل مكان، بين الطاولات الخالية، وتحت قبة المبنى العالية بين الفصول.

في الصور التي التقطناها في هذا اليوم، شمسُ مايو الحارة التي تعكسها ثيابنا البيضاء هالاتٍ متوهجة تجعلُنا ملائكةً صغارًا، على وجوهها ابتساماتٌ عذبة، وفي أيديها دفاتر البشر المنهكة من أعمالهم.

- أين سنذهب؟

- عند محمد، أَمْ نسيتم؟! المرة الماضية كنا عند نشأت، وقبلها عند عبد الرحمن.

- لا مانع.. هيا بنا.

توزعنا في سيارتين، وانطلقنا إلى بيتنا.

لهذه الاجتماعات دستور غير مكتوب، في تتابع الأماكن، وتسلسل برنامجها.

كنا نختلق لها المناسبات اختلاقا، وحين لا تلوح في الأفق أعياد ميلاد لأي منا، يجمعنا محمود في مزرعة والده البعيدة اجتماعا طارئا خارج الدستور المرسوم.

يجهِّز العشاء، والحلوى، وحسب العدد المتجمع يكون جدول الأعمال، فالذي يتقن العزف على الأورج يعزف ولا يسمعه أحد، يَضِيعُ صوته دائما بين ضجيج فريق البلاي ستيشن، أو حلقات النقاش المفتوح.

تعلو المناوشات، مع أصوات الحوارات المتفرقة.

قال نشأت:

- عندي فكرة رواية أحب أن تكتبها.

- ما هي؟

- اسمها وفاء، لأن بطلتها اسمها وفاء، وهي ابنة أستاذ يدرّس لبطلنا أيّ مادة تختارها، لنقل الرياضيات. يحب بطلنا وفاء.

- تقليدية؟!

- لا ليست تقليدية.. لن يحب وفاء، سيتظاهر أنه يحبها فقط.

- أ..

- اسمع .. اسمع .. هو لن يحبها، سيتظاهر بذلك، لأن أباها سيكون مريضا وهو يشعر ناحيته بفضل يريد رده.

- ممم، ثم!!

- ثم يفكر كثيرا في الأمر حين يقترب الزواج، يشعر أنه سيتزوج فتاة لا يحبها، وفاءً لأبيها. يعني شوية دراما.

- وما اسم بطلنا؟

- وفا..

- وفا ووفاء.. متى يمكنك كتابة هذه الرواية؟

- وفا ووفاء وأستاذ رياضيات مريض، أعطني أسبوعا، قبل أن تسافر، أكون قد انتهيت منها، وأطلعك عليها. لكن لماذا يشعر طالب ما بالوفاء لأستاذ رياضيات؟ سؤال ينبغي أن تجيب عليه أولا..

- طبيعي!

- صحيح ؟! هل تشعر بالوفاء لأستاذ سعيد؟!

- لا.

- إذن ليس طبيعيا. لا عليك، سنجعله طبيعيا في الرواية.. الرواية كذب على أيّ حال.

- حبيبي.. لا تصدقه، يرى نفسه وقد صار روائيا كبيرا.. أعطني أسبوعا! .. أيّ رواية تلك التي تُكتب في أسبوع.

يقطع حديثهم صوت حامد الصاخب:

- أنا ألعب بجين ابن كازويا، حركاته كثيرة، يجمع مهارة أمه وجده، عبد الرحمن يحب آنا.. صح يا عبد الرحمن.

جين وآنا، شخصيتان في اللعبة القتالية (تيكن ٣) التي كانت مقررة على هذه الاجتماعات.

كانت تيكن لعبة يابانية جديدة، أنتجتها شركة نامكو، تقوم على قصة عدوان الغول على قوة استطلاعية للجد ميشيما، وتنتهي بأن يكتسب الابن قوة يقاتل بها تيكن ليستعيد ما سلب من جده.

كانت الألعاب القتالية والعسكرية جديدة في تلك الأيام، تستحوذ على تفكيرنا وقتا طويلا، ونظل معلقين بها في كل أحوالنا، نتبادل الحديث عن شخصياتها، ومفاتيح اللعب بها، والتغيرات التي تحدث لهم خلال رحلاتهم الطويلة.

آنا الأيرلندية، فصيلة دمها A وتجيد قتال الأكيدو، تبدأ أولى أجزاء اللعبة وعمرها عشرون سنة، هواياتها السفر وإعطاء خبرات خاطئة لنينا التي لا تحبها.

لم أكـن أهوى هذه الألعـاب كثيرا، لعبة واحدة كنت أحبها، اسـمها أمير فارس.

ككل الحكايات المنسوبة للشرق، أميرةٌ مخطوفة، وفارسٌ يبحث عنها لينقذها، بين صورٍ لأقواسٍ، وقبابٍ وجدرانٍ مزينةٍ بفسيفساء ملونة.

على امتـداد رحلـة الفـارس، كانـت النوافـير، والقبـاب الشـامخة، والأرض المزينـة بنقـوش الرخام، والجدران الممتلئـة بكتابة غير واضحة تشـبه الخط العربي، هي ما يجعلني مشدودا إليها.

الشرق السـاحر، كما يحب أن يصـوره الغرب.

هكـذا كنت أدرك جزأي العالم؛ شرقٌ بـدأت فيه الحياة، وجاءت منه النبوات. عاشـت فيه الآلهة، والأسـاطير، وشـهدَ مـيلاد العلم، وانبعاث الجمال. بناه الإنسان في هدأة الزمن، حين كان معلق البصر بالسـماء.

وغـربٌ جـاء فرأى الشرق وقد شـاخ، فبـدَّدَ بطيْشِ الشـباب ميراثه الذي انتهى إليه. علومه المتراكمة غدت آلات تطحن كلَ ما عاش لأجله الشرق زمانه الطويل؛ النبوات، والجمال، وسحر الأسـاطير.

- مشعل، السـائق على الباب.

- طيـب يا شـباب، أراكم على خير، نشـأت لا تسـافر حتـى نلتقي، سلام يا حامد، أنت هنا لن تسافر، صح .. سنلتقي كثيرا ألا عليك.

- اكتب لي بريدك الإليكتروني.

- ليس لي بريد إليكتروني، ولا حتى اشتراك انترنت.

يتدخل عبد الرحمن في الحوار :

- يمكنني أن أنشيء لك واحدا.

- أمرٌ عليك غدا إذن .

انتهى اليوم، وانصرفوا. وألقيت جسدي على الفراش، بثيابي كما هي.

لم أتبه للنافذة المفتوحة، وحين صحوت كانت ألوان السقف تكمل ألوان الإيوان في الحلم، أحسست كأنما كانت غرفتي هي ذلك الإيوان، تحولت وأنا نائم ولم تستطع أن تعود إلى حالتها بسرعة حين صحوت، فبقيت الألوان معلقة في السقف.

تتشكل الآية التي قرأتها في الحلم أمام ألوان السقف:

﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾.

أذكر أنني قرأتها مكتوبة على قبة مسجد تركي قديم، المسجد التركي الوحيد الباقي في المدينة المنورة. عند محطة السكة الحديد القديمة.

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾.

أتمم الآية «تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر». وأنا أرتب الغرفة، سريعا. أترك الاسطوانات منثورة بغير نظام على المكتب، وأفتح لها النافذة عن آخرها، فتترقق الألوان أكثر على كل شيء في الغرفة، وعلى وجهي.

زادت الألوان جمالا حين أصبح محيطها مرتبا.

السرير مفروش بعناية، والكتبة مرتبة، طويت فوقها سجادة الصلاة الزرقاء، أخرجت كل بقايا الليلة السابقة من الغرفة، وجمعت كل أوراقي في صندوق واحد أخفيته تحت السرير.

كان موعدي مع عبد الرحمن قد حان، فلبست ثيابي وذهبت إليه.

عبد الرحمن يسكن في العوالي، إلى شرق المدينة.

كانت العوالي كقباء، قرية خارج المدينة يسكنها الأنصار، وتكثر فيها البساتين. هي الآن حي حديث، لا يخبر عن تاريخه إلا ببعض أشجار النخيل في ضواحيه.

- ماذا تريد اسم بريدك الإليكتروني؟

- أي شيء.

- لا.. لابد أن تختار، سيظل هذا الاسم مقترنا بك، قل أول ما يخطر ببالك.

- ابن سينا.

- حسنا.

- ليس متاحا.. سنجرب سنة ميلادك معه، جيد، ماذا تريد أن تكون كلمة المرور؟

- مم.. رقم هاتفي.

كتب عبد الرحمن عنوان البريد ، وكلمة المرور على ورقة :

ibnsena82@hotmail.com

قال وهو يضحك، حسمت أمرك سريعا إذن. ستدرس الطب.

- لأجل ابن سينا؟! لا.. لم أحسم أمري بعد، لقد حلمت به هذه الليلة فقط.

- يا سيدي.. ناس يزورها ابن سينا في نومها.. وناس يزورها حافظ الأسد، فيطير منها النوم.

كان عبد الرحمن سوريّا، سافر أبوه من سوريا إلى كندا قبل أحداث حماة الشهيرة بشهور وقبل أن يولد عبد الرحمن، لحقته أمه التي كانت قد تركت بيتها لتجلس عند أقارب لهم في إحدى قرى الريف حتى يرتب أوضاعه لتلحقه. كان أبوه قد حكم عليه غيابيا بالإعدام في قضية قتل طلاب مدرسة المدفعية، في يونيو عام ٧٩، لا يصدق أبوه حتى هذه اللحظة أنه استطاع الهرب من سوريا في تلك الأيام، وقبضة رفعت الأسد الأمنية تغربل كل جزء في البلاد.

في كندا ولد عبد الرحمن.

على ثلوجها البيضاء تعلم المشي، وفي غاباتها الوارفة رأى بكارة العالم، فأحبه نقيا لا شِيَةَ فيه.

وفي كندا أيضا، علمته أمه اللغة العربية، والقرآن، فجاءنا في الصف التاسع، حين نقل أبوه عمله إلى المدينة المنورة، ولا تبدو في لسانه سنوات اغترابه.

- لن أدرس في سوريا بالطبع، لم أسافر إلى هناك إلا قليلا، مع أمي فقط، لكن أبي لا يمكنه أن يفكر في الذهاب. وإن ذهبت، فلن أستطيع الالتحاق بالكلية التي أريد، ربما أذهب إلى الأردن أو إلى مصر .

- جميل.. ونكون معا.

- الأردن تكلفتها أقل، ولنا فيها أقارب كثيرون، ستكون هي الأفضل بالتأكيد.

كان موعد سفرنا جميعا متقاربا، في غضون شهر من إعلان النتائج نكون قد أنهينا توثيق أوراقنا، لندرك موعد التقدم للجامعات.

حفظت الورقة التي دون لي فيها عبد الرحمن عنوانه، وكلمة المرور في مفكرتي الصغيرة. كنت فرحا بالاسم الذي اخترته، وكلما طالعته أحسست بفرح خفيف يملؤني.

***

لوحة ٢

المنصورة يونيو ٢٠٠٢

«صديقي العزيز عبد الرحمن:

هذه هي المرة الأولى التي أستخدم فيها هذا البريد، مرت ستان منذ أنشأناه معا، كنت أفتحه على فترات بعيدة لئلا يضيع فقط.

لم أفكر في استعماله من قبل؛ لأن خدمات الإنترنت هنا ليست متاحة بسهولة، ولا يمكنني الكتابة في المقاهي، أشعر أن الناس كلها تطالع ما أكتبه، لا أكتب أسرارًا، لكنني أشعر بالخجل إن فعلت ذلك، الكتابة ليست فعلا يمارس على مرأى من الناس، هي عمل خاص، يحتاج إلى التوحد.

الكتابة كالصلاة، أجملها ما كان في خلوة، ومن دون ضجيج ولا حتى ضجيج نور المصابيح، لكننا لا نستطيع أن نكتب في الظلام. لأجل ذلك كنت أكتفي بقراءة ما يصلني فقط، مستعيضا عن الصلاة بتسبيح لطيف.

لم أجد رسائل ذات قيمة اليوم سوى قصيدة جميلة للجواهري، أرسلها «هادي» عنوانها يا دجلة الخير.

هادي لا يرسل إليّ كثيرا، ولا يبدو من الرسالة أنه مررها لآخرين، أرسلها لي خصيصا. لا أستطيع أن أفهم كثيرا من أفعال هذا الشاب. المهم يا سيدي مطلع هذه القصيدة هو:

حييتُ سفحكِ ظمآناً ألوذُ به لوذَ الحمائم بين الماءِ والطينِ

يا دجلة الخير، يا أم البساتين.

أمُّ البساتين، محاصرةٌ الآن.

لم يعد على سفح دجلة إلا الدم والأنين.

لا شيء مما قرأته من حكايات الرصافي، وعلي الطنطاوي، عن دجلة يحضرني حين أفكر فيها.

كيف يمكنني تخيل صورة الأنس في قارب تهزه مياه دجلة، ويعزف فيه المغنون، وأنا أعلم أي نوع من الحياة هناك الآن.

أشعر بالخوف بعد أخبار تفجير مبنى التجارة في واشنطن، أحيانا تزورني أحلامٌ سيئة. لا أحب أن أحكيها، لكنني أستيقظ منها خائفا فزعا دائما.

ربما لا ينتهي هذا الأمر بخير. هل يمكن أن تنتهي الحياة بهذه الطريقة، بحرب جديدة، يجر إليها العالم كله؟

هل سيعادي العالم المسلمين حقا؟

هل يعادي المسلمون العالم يا عبد الرحمن؟

هل نعادي العالم حقا، لماذا لا يكف التاريخ عن هذه الحكايات المكررة التي نكون نحن أطرافا دائمة فيها؟

ولماذا نضحك على أنفسنا بأننا كنا يوما سادة العالم؟

أليست السيادة سيئةً دائما، ألم يكن العالم رافضًا لسيادتنا كما نرفض سيادته علينا الآن.

هل خسر العالم حقا، حين تركنا سيادته، كما زعم «أبو الحسن الندوي»؟

لم يستعمل كلمة زوال السيادة، استعمل كلمة «انحطاط».. قال «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين».

أليس استعلاءً ما يقول؟

اشتقت إلى تحليلاتك السياسية يا صديقي. دائما كنت تؤنسني بحدثك، وتطمئنني، حين ترى ما لا أراه.

أود أن أسمع عنك أخبارا جميلة.

أنت أيضا ستصبح طبيبا، لم تكن تود ذلك، ولا أنا. لكنها نبوءة ابن سينا بالتأكيد. الذي اختار الاسم والذي كتبه صدقت فيهما النبوءة!!

امتحانات آخر العام في الشهر المقبل، بعدها أعود إلى المدينة المنورة، ربما نلتقي هناك هذا الصيف، أتمنى أن أعرف المدينة أكثر.

لم أزر جبل أحد إلا مرة واحدة، مع هذه السنين التي قضيتها هناك. أريد أن أجمع معاني الأماكن إلى صورها، لو كنا سويا، ربما أصبح هذا الأمر سهلا، وممتعا.

أحب الأماكن حين تقص عليّ حكاياتها.

إلى اللقاء...

محمد»

***

كانت هذه الرسالة هي بداية علاقتي الحقيقية بعنوان بريدي الذي اخترته منذ سنتين. وحين أصبح الانترنت بلا اشتراك، وأصبح الوصول إليه سهلا بعد ذلك بعام، أمكنني أن أقضي أوقاتا طويلة أمام جهازي، في حجرتي ودون أن يشتتني صخب الناس من حولي، أو يحرجني وقوفهم خلفي.

قضيت أكثر وقتي أبحث عن الكتب التي أحب اقتناءها. أجمعها وأرتبها، وأسعد وأنا أراها تزيد يوما بعد آخر.

كان قربُ الأشياء مني إلى هذا الحد، مغريًا لأظل معلقا بالجهاز ساعات طويلة. أكتشف العالم دونما جهد، وأجمع على جهازي كل ما تصل إليه يدي.

أكثر الأشياء التي أبحث عنها كنت أجدها مُعلّقة في منتديات تشترط التسجيل فيها، وبتلقائية كنت أسجل اسمي فيها جميعا «ابن سينا».

أصبح الاسم الذي أعرف به رقميا، هو اسم ابن سينا.

الصدفة هي التي جعلتني أعرف أن خلف هذا الاسم عالَما واسعا لا أدرك منه أي شيء.

كتبت في جوجل «ابن سينا»، ولم أكن أريد إلا أن أصل أسرع إلى الموضوعات التي أشارك بها في أكثر من منتدى.

كنت أبحث عن نفسي في الحقيقة، ولأن «جوجل» لا يعرفني، ولا يدرك الفرق بيني وبين ابن سينا، فقد رتب النتائج بحيث كان ابن سينا الحقيقي هو من يحتل الصفحة الأولى.

اسمه حُسين بن عبد الله بن الحُسين بن علي مولود في خرْمَيْثَن من أعمال أفشنة في بخارى. في طالع السرطان.

في الأيام الأولى التي بدأ جوجل يُعرفني عليه فيها، جمعت كل كتبه التي وجدتها مصورةً وما كُتِب عنه. جعلتُ كل هذه الأشياء في ملفٍ واحدٍ سميتُه: «ابن سينا صديقي».

لَم أستند في هذه الصداقة إلاّ لشرعية انتحال الاسم، والمشاركة في برج الميلاد. هي صداقةٌ مفروضة على الرجل، وكانت أبسط حقوقها أن أنظر فيما جمعت، لكنني لم أفعل.

لم أنتبه إلى أن انتحال الاسم وادعاء الصداقة ثم هذا التجاهل، لابد سيغضبان ابن سينا إلى الحد الذي يتهدد معه استخدامي للاسم الذي أصبح علما رقميا عليّ.

أيام وأنا لا أستطيع الدخول إلى حسابي.

غيّر أحدهم كلمة المرور وضاع مني اسمي فجأة.

حين طاف بي طائف الفقد، حزنت. الفقد مفيد أحيانا، لا ندرك تعلقنا بالأشياء التي نعتادها كل يوم، حتى نفقدها.

اكتشفت أنني تعلقت بالاسم تعلقا حقيقيا، فخلال مكوثي الطويل في عالمي

الافتراضي لم يكن أحد يناديني إلا بابن سينا.

الاسم الذي سعي إليّ ولم أسع إليه.

الاسم الذي عرض عليّ صداقته، ولم أقم له بحق هذا السعي، ولا بحق هذه الصداقة.

قضيت ليلتي أتصفح الكتب التي جمعتها، كأنني أعتذر له عن إهمالي. أقرأ مقدمات التحقيق في كل كتاب ولا أتجاوز صفحة واحدة من متنه. المقدمات كلها تتناول سيرته بصورة مكررة كأنها كلها منقولة من مصادر واحدة.

مع الكتب كان قد تجمّع لدي فيلمٌ فارسي، وآخر روسي، ومواد وثائقية فرنسية وإنجليزية، عن حياته وأعماله.

أدركت أنني لن أعرف ابن سينا بهذه الطريقة، لن أعرف إلا المشهور من أخباره عند الناس. ولن يكون لدي ما أستحقُّ به اسمه المنحول.

عاد إليّ بريدي بعد ذلك، نادرًا ما تعود الأسماء حين نفقدها، لكن «ابن سينا» اسمي الذي تعلقت به، عاد إليّ بعد أن نَشرتُ كتبه أطالعها.

كانت في الحقيقة صعبة ولا أفهم منها أي شيء. ورغم ذلك كتبت مقالا صغيرا نقلته من تلك الأخبار المكررة التي وجدتها في مقدمات الكتب، عن حياته وسيرته ومنهجه وفلسفته.

مقالٌ كله اقتباسٌ أزيد به من مشاركاتي في أحد المنتديات التي أتابعها.

جوجل يساعدني كثيرا في هذا الأمر. عرفت بعد ذلك أن الثرثارين في الصحف السيّارة يفعلون مثل ما فعلت، وحين يعجزهم الاقتباس يكذبون.

يكذبون في الأخبار وفي التاريخ وحتى في العلوم التي لا تقوم إلا على المعرفة المحققة.

وإلا فمن أين يُرزقُون وتوليدُ مقال واحد من ألف كلمة حقيقية صادقة قد يلزمه عمل أسبوع كامل من جهد وسهر. الآن أعرف ذلك بعد أن تورطت في هذا العالم البديع.

عالم الحروف.

في صندوق رسائلي الخاصة، بعد أن نشرت المقال بيومين، وجدت رسالة تحمل هذا العنوان:

«الكمال والاكتمال».

كانت مرسلتها «الماهية» ضوء شرف في المنتدى، وضوء الشرف هم من تولوا الإشراف على بعض أقسام المنتدى في فترة، ثم تركوه.

كانت الرسالة منمقة في أسلوبها، تشبه مقالات المجلات المتخصصة.

«.... وحين ندخل إلى عالم ابن سينا، نجد أنفسنا أمام رجل كل ما فيه يحببه إليك. فهو صورة إنسانية جميلة ظاهرا وباطنا. وهو في داخل نفسه مسلم صادق، يعرف القرآن معرفة جيدة، حتى إن له في تفسيره مشاركة. وهو فيلسوف بمعنى الكلمة يفكر تفكير فيلسوف ويعيش حياة فيلسوف. وهو يحب الحياة ويقبل عليها ويعيشها بكيانه كله. ثم هو يؤدي صلواته ويهرع إلى الله حين تستغلق الأمور عليه.

ابن سينا غير الفارابي عندي.

فأنا لا أشعر من كتابة الفارابي أن لي صلة به، لقد كان عقلا عظيما لكن قلبه لم يخالط بشاشة الإسلام. لا أقصد نفي الإسلام عنه بالطبع، بل نفي الإسلام عن منطلق فكره. ربما لو قرأت آراء أهل المدينة الفاضلة

تعرف ما أعنيه، ستجد أن هذا رجل قد قرأ أفلاطون مرات كثيرة، ولكنه ربما لم يقرأ الإسلام إلا قليلا.

أنا سعيدة بمقالك وأود أن أعرف عنك أكثر .... »

ماذا لدي لتعرفه صاحبة هذه الرسالة / المقال؟.

بدا لي من أسلوبها أنها ليست هاوية من هواة المنتديات الذين يمكن خداعهم بأنصاف المعلومات وبمشاركة صانع الثقافة الحديثة «جوجل».

حتى اسمها حين سألت عنه جوجل أخبرني أنه يعني حقيقة الشيء، كلمة منحوتة من سؤال الفلاسفة الأزلي «ما هو؟».

«وماهية الشيء هي صفته التي لو رفعت عنه لانتفى وجوده».

كتبت إليها رسالة قصيرة أشكرها فيها على اهتمامها الذي أسعدني.

«...... في الحقيقة لا أعرف الكثير عن الفكر العربي. سوى ما أحفظه من عبارات المدرسة، عن ريادة العرب وعن أثرهم وآثاراهم. عبارات لا أصدقها وأشعر أن معانيها هي عكس ما يظهر من حروفها.

المجد كلمة مبتذلة في كتب التاريخ، المجد مستقبل، لا ماض.

النجاح أمامنا. حين نجعله خلفنا فإننا لا نقدم أمامنا إلا الفشل».

«..... تسألني عن أي شيء أبحث في التاريخ ؟!

لا أعرف.

ربما عن معنى «خير أمة أخرجت للناس» !!

الآية المنقوشة على تيجان أعمدة القاعة في ذلك الحلم البعيد.

خير أمة !!

أين يمكن أن أجدها، بين سنين طويلة من الحروب والتناحر.

في حكايات القصور وكلها جوار وغلمان وخمر ؟ أم في كراريس الكتب الكثيرة التي توقف نمو عقلها منذ ألف عام؟

في نظام الدولة أم في نظام الناس. في أحاديث السلاطين، أم في أغاني العوام في الأسواق؟ في كتب الفقه، أم في كتب السياسة؟.

أنا من الجيل الذي وعى على هذه الأمة وهي مزق كثيرة، لا يحب بعضها بعضا، ويخشى بعضها بعضا. لا يعرف بعضها بعضا.

أنا من الجيل الذي تعلم في المدرسة ازدهار عصر العباسيين ثم قرأ عما أراقوه من دماء في سبيل هذا الازدهار.

ومن الجيل الذي تعلم فضل اللغة العربية، ثم وجدها لا تتحدث إلا عن الخمر والهجر والسهاد.

من الجيل الذي أدرك الصلاة عملاً رياضيًا، وأدرك الحب قبلات باردة. من الجيل الذي أدرك المرأة حجابا، وعرف الحجاب قيدًا، والسفور عهرًا.

من الجيل الذي لم يعرف شرف اللغة، وشرف الصلاة، وشرف الحب، وشرف المرأة. ولم يعرف حتى شرف نفسه.

أنا من الجيل الذي سلبته هوليوود حقه في الدهشة، وسحر اكتشاف العالم، فألقت إليه بمعانيها كما تراها هي، فرأى العالم بعينين غريبتين عنه.

الجيل الذي قرأ كل شيء ولم يهتد لشيء.

هل يمكنني أن أرى بين حجب الأيام الكثيفة، وصوت الحاضر الصاخب، أين هو مكان خير أمة؟

هل تستحق البحث أصلا؟!

لا أعرف».

* * *

«عزيزي محمد .. ابن سينا:

.... خير أمة لا يبحث عنها، بل تصنع على الدوام.

أليس من سمات العالم التغير، يكبر الصغير، ويضمر الكبير. لا شيء باق على حاله..

اسمع...

في إنجيل يوحنا آية تقول: «وأما الذين قبلوه، فأعطاهم سلطانا أن يصيروا أولاد الله، والكلمة صار جسداً».

أليس في ذلك شيء من الخيرية. وعند اليهود تجد في سفر اللاويين قول الله لهم «لقد ميزتكم من الشعوب لتكونوا لي.. ».

الخيرية والشرف ليست مرتبطة بدين أو جنس، إنها مرتبطة في الحقيقة بالله وحده.. «بالذين قبلوه» «والذين اهتدوا» والذين «اتبعوا النور الذي أنزل معه».

هب أن بعد الإسلام دينا آخر أنزله الله، ألم تكن الخيرية لتنسحب إليه أيضا.

لقد فهم اليهود، وفهم المسيحيون الخيرية مرتبطة بهم وفهم المسلمون ذلك وعدا مطلقا لهم أيضا. لم يتنبه أحد إلى أن الكلام واحد للجميع. الوعد والوعيد. ﴿قل فلم يعذبكم بذنوبكم، بل أنتم بشر ممن خلق﴾.

لا تبحث عن خير أمة، وكن أنت خير أمة.

الماهية»

***

لوحة ٣

مضت الرسائل بيني وبين «الماهية» متابعة. تتأخر أحيانا، لكنها لا تنقطع. تكشف لي أشياء عن «ماهية» العالم، ما حدث فيه وما يحدث.

معرفة الأحداث كتعلم الحروف، ما لم تتجمع الحروف في كلمات والكلمات في جمل، ثم تصادف الجمل عقلاً قادرًا على أن يترجمها إلى معنى، لا يبقى فيها قيمة. الأحداث المجردة تظل أجسادًا ميتة، بغير معانيها. ولقد كانت «الماهية» هي من ينفخ الروح فيما حولي من أجساد، فتبعثها حية.

تُدَرِّس الأدب الفارسي في جامعة بغداد. أبوها من طنطا، سافر إلى هناك في مطلع السبعينيات، وحين بدأت الحرب، حرب إيران، ثم حرب الكويت، لم يعد وبقي هناك.

ولدت هي هناك، باقتضاب أشارت لذلك، ولم تفصل الحديث عن شيء، ربما كانت الإقامة في بغداد تقتضي كل هذه الحيطة في الحديث عن أشياء كثيرة حتى عن تفاصيل الحياة اليومية العادية.

لا أخبار أبدا، لا شيء سوى التاريخ.

بقي التاريخ هو مادة رسائلنا، لا غير. تبعث من حكاياته النائمة تحت التراب، وفي بطون الكتب، حياة تستنطقها بما تريد أن تقول.

كُتَّاب ممدودة أوراقهم، وأقلامهم، حتى اسود منها ماء دجلة وخيول هولاكو تمحو آثار المدينة، وتبني منها جسرا تعبر فوقه إلى ما بقي من بلاد المسلمين.

محت مياه دجلة كل العلوم التي فشلت في حماية أهلها. وأعادتها أوراقا خالية من جديد. كأنها تقول لنا إن المعرفة التي لا تبني حياة أو تحافظ عليها لا قيمة لها.

معرفةٌ أخرى ظلت باقية في قلوب الناس لم تدركها الخيول، ولا محتها المياه. وهي التي بعثت هذه الأمة بعد ذلك. قلوب الناس أحفظ للحياة من الكتب، تظل كامنة فيها مادامت الظروف غير مناسبة، تتلمس طريقها، تكتسب مهارات جديدة تستطيع بها العيش فيما حولها، ثم تدب فيها الحياة من جديد فجأة حين تكتمل عدتها، ولو بعد جيل كامل، أو أجيال عديدة.

« .... يكتب ابن المقفع أن العاقل ينظر فيما يؤذيه وما يسره، ويختار من الخير أدومه وأطوله وأبقاه، فيفضل سرور المروءة عن لذة الهوى.

أنا أحب هذا الرجل يا محمد، عاش مجوسيا، ومات مسلما، مرميا بالزندقة، لم يقتل حين كان مجوسيا، وقتل حين أسلم. لم تكن له حاجة سياسية من إسلامه، كان كاتبا كبيرا ووزيرا لامع الذكر في بلاط ولاة الدولة العباسية. وقبل ذلك كان كاتبا عند الأمويين. ربما كانت هذه التهمة كافية لقتله. وكان معها تهمة أخرى، أنه رجل يفكر.

وحيثما كان الطاغية فلا مكان لرجل يفكر. لا يجتمعان أبدا، إلا أن يعين الفكر سيف الطاغية، عند ذاك فقط يبقى. ولم يكن ابن المقفع كذلك. كان يعلم أن المنصور رجل غدار، يعطي العهد، وينقضه. فلما أراد أن يكتب أمانا لعبد الله بن علي عم المنصور بالغ ابن المقفع في الاحتياط له حتى كتب: «وإذا أخل المنصور بشرط من شروط الأمان كانت نساؤه طوالق، وكان الناس في حل من بيعته»، فغضب المنصور وقال لمن حوله: «أما من أحد يكفينيه» فتولى كبر ذلك سفيان بن معاوية والي البصرة من قبل المنصور، وسارع في رضاء الخليفة، ورضاء حقده فقتله.

رماه بالزندقة، ولو ظل على مجوسيته لأمن من هذه التهمة ولبحثوا له عن تهمة أخرى يقتل بها.

مع أن ابن المقفع هو من أعدّ لأبي جعفر أول تقرير وافٍ عن حال الدولة، وما يراه من إصلاح شؤونها. بدأه برفع واقعها العام رفعا دقيقا

عـن دراية ومعرفة: «فلها أمير لا يهمه إصـلاح حالها، وإن اهتم فلا رأي لـه يهديه، وله أعوان ليـسوا على الخير بأعوان، ولهم مـع ذلك من المكانة والنفوذ ما يمنع الخليفة عن إقصائهم، ثم هو يدير أمة لو سيقت بالشـدة حمت وثارت، ولو سيـست باللين طغت وتفلت أمرها».

ثم بين له سبل صـلاح الجند، والقضـاة وأحوال الأقاليـم على التفصيل كما رآها.

ومما قاله في تقريره:

«لا تـول عـلى الخـراج جنديـا ولا قائـدا، لأن المال يفسـده، لا تترك القضـاء فوضى، يحكم فيه الـناس بما يرون، فيكون حلالا في شرق الكوفة مـا هـو حـرام في غربهـا، والنـص واحـد والاختـلاف في الفهـم، ليرفع القضـاة أحكامهم إلى الخليفة، فيرى الصـالح منـها لأحوال الـناس، فيكتـبه للأمصار، يقاس عليه».

أراد أن يقنن الشريعة، في نصـوص، سابقا بذلك محاولة المجلة العدليـة التركية بألف سـنة كاملة.

حاول الرشـيد بعد ذلك أن يسـير على نصحه، فأمر بأن يعمم الموطأ في أنحـاء دولتـه، لكن الإمام مالك رأى أن يـترك الـناس لا يضـيق علـيهم في فهمهم.

لم يكـن ابن المقفع باحثـا عن القيـد، كان وهو الفارسي الذي عاش في دولـة منظمة، يريد أن يضـع القانون المنظم، وأراد الفقيـه «مالك» الذي يعْلَـمُ أن الشريعة رحبة، واسـعة ألا يضيقها، ولـو كان بتعميم رؤيته هو على الـناس.

كانت بينهما حلقة مفقودة، بين المفكر الحر، الذي يريد أن يبني للـناس نظامـا، وبين الفقيـه الحر الذي يريد أن يحفظ للـناس حريتهم. حلقة ظلت مفقودة ربما إلى اليوم.

أطلت علـيك .. كن بخير ..

الماهية».

* * *

وكالات الأنباء - العراق:

«تحركات عسكرية أمريكية وبريطانية وسط أنباء عن هجوم عسكري وشيك على العراق».

«توقع بدء العمليات العسكرية في العراق خلال ساعات، ومجلس الأمن يعقد اجتماعا طارئا لبحث الوضع في بغداد».

«العمليات العسكرية ستبدأ في الوقت الذي يحدده بوش».

عناوين الأخبار التي تملأ شاشات الفضائيات، تثير الخوف والفزع. لأول مرة في حياة البشر، تبدأ حرب على مرأى ومسمع من العالم كله. قنوات تبث صورها مباشرة من بغداد.

سماء بغداد المظلمة تضيئها القنابل تقطعها كالشهب، حتى الشهب خرجت عن قانونها وأمست ترجم البشر.

أكتب كل يوم رسالة للماهية، فلا يصلني أي جواب.

أقضي اليوم كله أمام شاشة جهازي، أتمنى أن أصل منه لشيء. لا شيء سوى أخبار الحرب، وتصريحات وزير الإعلام العراقي.

يضيق صدري وأنا أشعر كم كنت غبيا حين لم أطلب رقم هاتفها، حين اعتبرت أن مراسلة الانترنت تكفي لتجعل أي شخص قريبا مني في كل وقت.

تمضي الأيام ثقيلة، باهتة.

في الجامعة تخرج المظاهرات كل يوم، وفي البيت أظل معلقا بين حاسبي، وقنوات الأخبار.

يكتب فاروق جويدة قصيدته «من قال إن النفط أغلى من دمي».

ألم يكتب للشعر العربي أن يخلد إلا المآسي.

«فاسأل بلنسية ما شأن مرسية وأين شاطبة أم أين جيان».

من قال إن الشعر أغلى من دمي.

تنتشر بين الناس أرقام عشوائية لهواتف في بغداد، مع دعوات بأن يتصل من يستطيع الاتصال بأي أحد هناك ليشعروا أننا معهم.

ماذا سأقول لهم، أنتم السابقون ونحن اللاحقون.

في الحافلات، تتباين الآراء حول ما يحدث.

«ربك يمهل ولا يهمل، هؤلاء العراقيون يستحقون أكثر من ذلك، لا خير فيهم».

«لا يصلح معهم سوى الحجاج، إنهم شعب لا يتقي الله».

أجرب أرقامًا كثيرة، لا أعرف عمن أبحث؟ هل أسأل عن معرف رقمي. اسمه «الماهية»؟!

أتصل بالأرقام التي معي، أبدل بينها عشوائيا. تأتيني الأصوات واهنة مرة ومذعورة أخرى. متهكمة أو ناقمة.

لهجات كثيرة، عراقية، وسورية ومصرية.

لا أحد يعرف من تكون الماهية.

«قلوبنا معكم»

«الله يقويكم»

لا أحد يدرس الأدب الفارسي.

«لعنة الله على الفرس وعلى الفارسي وعليكم، ستعلمون غدا أي يد لهؤلاء الفرس فيما يحدث لنا»؟!!

وهل دخلت أمريكا العراق من بلاد فارس؟

وماذا يفعل الجنود الأمريكيون في جزيرة العرب إذن؟

ترن في أذني عبارة فخري باشا، وهو مُحاصرٌ في المدينة المنورة مع حاميته العثمانية.

كان قد وصل إلى المدينة منذ شهور، قبل رمضان، حين أدرك العثمانيون أن تحركات الشريف حسين وأبنائه ليست إلا لجمع بلاد العرب حوله، ليخرج بهم من سلطان الأتراك.

لقاء ذلك وقّع «الباب العالي» مرسوما باستقلال المدينة عن مكة حيث حُكْمُ الشريف. كما يفعل مطفئو حرائق الغابات، حين يحرقون جزءا بأيديهم، ليقطعوا الطريق على النار.

فُصلت مكة، وبقيت المدينة الموصولةُ باستانبول بالسكة الحديد وبالبرق، وبحامية عثمانية مرابطة فيها.

يعين الإنجليز حليفهم الشريف بقوات تنزل إلى ميناء ينبع، ويعرض الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن أمير نجد على فخري باشا معونته. يرفض القائد التركي الذي عرف بصرامته، يقول كلمته التي ستظل ماثلة لكل من يقرأ صفحات تلك السنوات القريبة. «عرب.. خيانات»، لا يستحقون الثقة.

«عرب.. خيانات».

تقوم الحرب الأولى، وتختلط أوراق العالم، ولا أحد يرى أكثر من موطئ قدمه، إلا الحواة الذين يوزعون الأوراق على اللاعبين.

الجامعة التي وضع حجرها الشيخ عبد العزيز جاويش وشكيب أرسلان في المدينة لتكون جامعة المسلمين، وتحمل اسم صلاح الدين الأيوبي، أسوة بمثيلتها في القدس يتوقف العمل فيها، وخط سكة الحديد الذي يعلق الدولة العثمانية بتاريخ المسلمين، ويجمع حولها عواطفهم ينقطع.

«عرب.. خيانات».

في التاسع من إبريل تسقط بغداد فجأة، لا تترك لنا مجالا للحلم، ولا للدعاء.

للمرة الثالثة منذ بناها أبو جعفر المنصور، تطأ المدينة أقدام عسكر غرباء، الأولى في العاشر من فبراير سنة ١٢٥٨ حين نزلها هولاكو، والثانية بعد ذلك بستمائة وخمسين سنة، يوم بسط عليها الإنجليز سلطانهم، وفي إبريل بعد أقل من مائة سنة أخرى، يعود لها الإنجليز حلفاء هذه المرة مع الأمريكيين.

تسقط بغداد، ولا أكف عن متابعة الرسائل والأرقام، والبحث عن عراقيين في المنتديات التي أتابعها، ربما دلني ذلك على شيء.

بعد شهر كامل، في يونيو تصلني رسالة صغيرة:

«أنا بخير، لا تقلق علي، ساعدني بعض الأصدقاء على السفر إلى أربيل، في الشمال. سأكتب لك لاحقًا. شكرا لسؤالك.. كن بخير.. غادة».

اسمها غادة.

فرحتي بالرسالة جعلت اسمها أجمل اسم يمكن أن أسمعه.

الغادة، الرقيقة الناعمة اللينة.

***

تخسر أعتى الحروب الاهتمام حين تعرض تفاصيلها أخبارا يومية متابعة بين فواصل الإعلانات والبرامج الحوارية، ووثائقيات تتحدث عن حدائق العالم، ورحلات الطيور. يفقد الصراع معناه وتنتهي الحرب إلى صور تشبه الحروب في الأفلام، لا شيء منها يمسنا من قريب.

وجود غادة في تفاصيل هذا الفيلم، جعله حقيقيا جدا بالنسبة لي.

كانت الحرب حربا عليها وحدها، وحربا علي معها. لا معنى لبغداد بالنسبة إلي لو لم تكن غادة هناك.

في كل ليلة كان يزورني كابوس واحد لا ينقطع.

أرى نفسي وحيدا في صحراء واسعة.

كل شيء فيها موحش.

ثم يظهر جندي لا أتبين منه أي شيء يدفعني نحو كهف مظلم، شاهرا بندقية كبيرة.

خوف لا أعرف مثله يعصر قلبي.

أدرك أنه حلم، لكنني لا أملك الخروج منه.

أجاهد لأصحو. كأنني غريق يتشبث بأي شيء حوله، تمزق أظافره يده وهو يقبض على الماء بقوة. أحاول أن أصل إلى حجر أطرق رأسي فيه، أدور وأدور وأرفع صوتي بكل ما أستطيع، فلا أسمع شيئا.

عجز كامل، كأنها دوامة لا قرار فيها.

حتى أصحو فجأة..

أمد يدي أتحسس الوسادة، والسرير.

لا أكاد أصدق أنني في غرفتي.

أتمتم بأدعية كثيرة أحفظها، وأحاول أن أنسى الحلم، فلا أستطيع.

اكتشفت من تعلقي خلال الفترة التي سبقت رسالتها، كم تربطني غادة بعالم الانترنت. بل كم تربطني بالعالم كله. خلت الحياة من معانيها حين انقطعت رسائلها. أمسى جلوسي أمام الجهاز لا يعني إلا البحث عنها.

وكأن الحرب قد وضعت أوزارها، وكأنه لم يعد هناك جنود أمريكيون يرسمون في شوارع بغداد لوحات تعرفها المدينة من قبل، وهم ينبشون بأظفارهم طلاءات السنين، ليكشفوا لوحات هولاكو القديمة فيها.

كأن شيئا من ذلك كله لا يحدث، تركتني رسالة غادة سعيدا. أعيد قراءتها مرات كثيرة متابعة، أحاول أن أعرف منها أشياء أكثر لم تقلها.

أسأل جوجل عن أربيل.

أين تقع؟

أبحث عن صور وخرائط لها.

صفحته البيضاء التي خذلتني حين كنت أبحث عن غادة هي التي تريني مكانها الآن على خرائط العراق التي تظهر متابعة.

أربيل محافظة في شمال العراق، بين محافظتي نينوى والسليمانية.

تمنحني الصور والخرائط إحساسا بقرب غادة. تختصر العالم، كأن هذه الصور أخذت من أربيل الساعة، وكأن غادة كانت واقفة حين التقطت الصور.

أدور مع الخريطة والصور في الشوارع، أحفظ أسماءها حتى إذا حكت عن شيء فيها عرفته.

أربيل عاصمة إقليم كردستان العراق. أقدم مدينة عامرة في الأرض. قبل أن تكون بابل كانت أربيل، تشهد مولد التاريخ.

في قلعتها، تحصن حمورابي، وسنحاريب، ودارا الثالث وأمامها انتصر الاسكندر على الفرس مكملا رحلته ليملك العالم.

وهي القلعة التي لم يستطع هولاكو اقتحامها فانصرف عنها.

أحاطها جنوده حلقة كاملة، وجه كل جندي في ظهر صاحبه، ومع ذلك كان أهلها يخرجون منها ويدخلون، يحملون إليها الماء والطعام. لم يستطع هولاكو حل لغزها، فتركها.

كان حلمه أكبر من أن يتركه لأجل قلعة واحدة، لن ينفعها تحصنها إن تغير العالم من حولها. سيطلبون وده عما قريب.

مغو هذا العالم.

كم تحركت فيه الجيوش منذ كان في الأرض بشر، سعيا لامتلاكه. وهو واسع تفنى الجيوش، ولا يفنى. ملكه من ملكه، ثم رحل عنه، ليغوي من بعده قوما آخرين.

«قلعة أربيل».

هي اليوم قلعة للأكراد، منذ نالوا حكما ذاتيا بعد حرب الكويت.

لا أحد على الحقيقة يعرف من أين جاء الأكراد.

ربما كان عربيٌ من ربيعة هاربٌ بحبيبة من مضر، قطع الصحراء إلى الجبال البعيدة، وعلى صخور زاجروس، أنبت في رحمها ذريته، الكرد.

أو قبائلَ رحلت من نهر الفولجا، شمال قزين، هم أبناء يافث بن نوح جاؤوا أرض إيران، قبل أن تسمى باسم أصلهم «الآري».

ستظل الأصول تثير فضول العالم، كل فرع نُزع من أصله، يحن إلى زمان وصله. ولولا هذا الحنين، ما حن الناس للجنة، حيث كانوا أول ما كانوا.

عند الأكراد لم تكن في البدء جنة، كان الماء هو البداية.

عالم من ماء، شقه الإله آن، وخلق منه الأرض والسماء والإنسان.

أعطى الإنسان ثلاثين سنة يعيشها في حياته، يحسب كل شيء حوله خُلق له، لا ينغص عليه عيشه شيء من بقية الخلق. قال له: أترضى!

لم يرض الإنسان.

«ثلاثون عاما لا تكفي شيئا من الدنيا.»

وحين سمع الحمار يقول للإله لم تتركني ثلاثين سنة، أخدم فيها هذا الإنسان، أحمله فيها ومتاعه حتى يهدني التعب، خذ مني نصف عمري يا إلهي.

طلب الإنسان نصف عمر الحمار فأخذه.

ثم خلق الإلهُ الكلبَ، وقال له: ستحرس مال سيدك، ولن تهنأ بليل. تنبح في وجه الغريب. وتظل قلقا تدور وتدور وتلهث.

ولوَل الكلبُ وبكى: «مالي وثلاثين سنة في هذه الساقية.»

طلب الإنسان عمر الكلب فأخذه.

ثم خلق القرد، محني الظهر، بشعر كثيف ووجه مجعد قبيح، قال له: لن يكون لك عمل، ستظل تقفز وتسخر منك الناس.

وكصاحبيه، منح نصف عمره للإنسان.

عاش الإنسان ثلاثين سنة في رغد وهناء، فرحا بالكون من حوله، ثم لما تم عمره عاش ما أخذه من عمر الحمار كادا يجمع المال، ويحمل هم الحياة، فلما تم له عمر الحمار عاش ما أخذه من عمر الكلب، يدور حول ماله يحرسه، لا يدع أحدا يقترب منه. قد ضاقت نفسه، وقل نومه وزاد قلقه، حتى إذا شاخ، وتم له عمر الكلب تقوس ظهره، وتجعد وجهه، وأمسى كالقرد قبيحا لا عمل له تسخر منه الناس.

* * *

لوحة ٤

في منتصف عام ٢٠٠٦ تلقيت رسالة غادة بفرح:

«سأكون في القاهرة بعد أسبوع من الآن.

لم أحدد بعد كم سأبقى..

سنلتقي بالتأكيد.

كن بخير

غادة».

ستصل غادة بعد أسبوع.

لم أعرف سببا للفرح الذي شعرت. مزيج من الفضول، والترقب.

لم يكن فرحا صافيا في الحقيقة، هناك خوف خفيف حاضر معه.

ستكون هذه أول مرة يتجسد لي فيها شخص عرفته مراسلة، سيصبح الرأي إنسانا له وجه، وصدر ويدان، يتنفس ويسعل، ويتغير وجهه حين ينفعل.

تعجلت انقضاء الأسبوع وأنا أتخيلها تخرج من بين السطور التي تملأ الشاشة حية كما يحدث في أفلام الخيال العلمي. ضوء مبهر ينقشع عن فتاة بارعة الحسن جاءت من عالم بعيد.

ماذا لو كانت غريبة الأطوار، تنفخ في الشاي قبل أن تشرب منه، تغمز بعينيها وهي تتحدث، تدخن، أو تسعل كثيرا أو ربما كان صوتها خشنا.

كم يبلغ عمرها؟

لم أفكر في ذلك من قبل.

في كل مرة كنت أقرأ رسالة من رسائلها، تتشكل لها صورة في خيالي، تحضر دون أن أبذل جهدا في رسمها، لم تكن صورة واضحة التفاصيل،

لا أستطيع أن أصف ملامحها بالتأكيد، لكنها كانت صورة كافية لأن تهب الكلام المكتوب روحا حية، روح إنسانة تكتب هناك من بغداد.

ليست فتاة صغيرة، كانت طفلة أيام حرب إيران، هي تكبرني إذن بسبع سنوات على الأقل.

كيف سيكون لقاؤنا الأول؟ هل سأعرفها مباشرة؟

كيف ستحدث حين نلتقي؟.. الحديث الرقمي يمنحنا حرية واسعة، لا تبدو فيه الانفعالات، كما لا تتقيد بحضور مع أحد، يمكن أن أقوم في أي وقت وبلا أعذار. أعذار العالم الافتراضي كثيرة وسهلة. ينقطع الاتصال، يتعطل الجهاز، تنقطع الكهرباء. لا أحد يغضب إن تأخرت عليه في الرد، تأخذ وقتك، وترتب أفكارك، وتكتب حين تكون مستعدا للكتابة. أنت حر في كل شيء، أمام لوحة المفاتيح.

انتهى الأسبوع ولم يصل منها أي خبر، بعد أسبوع آخر كانت رسالتها تخبرني أنها وصلت، وتعتذر عن انشغالها بترتيب أمورها في القاهرة. تركت رقم هاتفها لأتصل بها حين أكون في القاهرة لنلتقي.

مضت أسابيع قبل أن أستطيع السفر إلى القاهرة، كان لقاؤنا في مكتبة بوسط البلد.

سيدة طويلة، ترتدي حذاء عاليا تقف أمام ركن التاريخ، تتصفح كتاب قصة العلم.

لم يكن في المكتبة سواها، لكنني زيادة في التأكد جربت الاتصال بها، سمعت أغنية فارسية تصدح في المكان.

«أشكم دونه دونه».

- د. غادة!

- محمد .. حمد لله على السلامة.

- حمد لله على سلامتك أنتِ، نورت مصر!

يختصر التعارف الرقمي كثيرا مما يفعله الناس في لقاءاتهم الأولى، يلتقون أول مرة بعد فترة طويلة من التعارف واللاتعارف، فيتصافحون كأنهم افترقوا بالأمس.

- تبدو أصغرَ مما توقعتُ. كنت أنتظر رجلا بنظارة سميكة يبدو عليه غبار التاريخ.

- هل يفعل التاريخ هذا في الناس.

- وأكثر.

- لا يبدو عليكِ شيء منه إذن.

- تركتُه في العراق قبل أن آتي إلى هنا.

- هذه أول مرة تزورين فيها مصر؟

- لا.. زرتها قبل ذلك مرتين وأنا صغيرة.

- لهجتك المصرية جيدة.

- ربّما هي ضعف القدرة على اكتساب لهجات جديدة. تقولها وتضحك.

- صحيح، كنت أدّعي أن المصريين لم تتغير لغتهم في وجود الإنجليز لضعف القدرة على اكتساب لغات جديدة فقط!

- ليس الأمر بهذه السهولة، لغات الأمم ليست مجرد مفردات للحديث، اللغات حافظة عقول الأمم، وتغيرها يكون نتيجة لتغير عقولها عادة. أيضا هناك ما يمثله الوافد الجديد على الأرض وماذا يقدم لها، كيف يتفاعل معه القطاع الأوسع من الناس، كيف يرونه. مع الإنجليز كان وجودهم بصفة «محتل» أو مستعمر، وكان أيضا وجودا يأخذ أكثر مما يعطي، لم يكن عطاؤه إلا بمقدار ما تستقيم مصالحه، وهناك علاقة اللغة بالدين، والتفاعل أو الصراع بين الدين الوافد والدين بالقائم. مصر لم تغير لغة الكتابة الرسمية فيها إلى العربية إلا بعد قرنين من الفتح

الإسـلامي لها، مع ازدياد عدد المسـلمين فيها، وبعد ذلك بقرنين آخرين تحولت لغة المحادثة تماما إلى العربية. استغرق الأمر أربعة قرون كاملة مع أن اللغـة العربية لم تكن غريبة على كثير من المصريين، فبينهم قبائل عربية قديمة، وتجارة واسعة.

- وبلاد فارس؟

- ليس الأمر متشابها.. من جهة، فاللغة الفارسـية وَجدتْ من يحافظ عليهـا ... في نفس الوقت الذي تحولـت فيه مصر تقريبا إلى العربية تحولا كاملا، كانت اللغة الفارسـية تسـتيقظ في ممالك فارس. وكانت أسباب الإحيـاء سياسـية بحتة، ربما نفس الأسـباب التي مكّنت للفكر الشـيعي السـياسي، في منطقة قلقة ظلت تنتفض كلما سـنحت لهـا الفرصة لذلك، حتى مع قيام الدولة العباسـية التي كان هواها فارسـيا.

- «تُأمري بحاجة يا فندم»

نبّهتـا عبارة البائـع إلى صوتِنا الـذي علا مع الحـوار، فأعادت غادة الكتـاب الـذي كان بيدهـا منـذ دخلْـتُ إلى المكتبـة، وشـكَرَت الرجـل وانصرفنا.

- «أين تحب أن نجلـس»؟

- في التاريخ طبعا.

- وسـط البلد كلها تاريخ.

- جروبـي أقرب تاريخ إلينا.

***

كانـت هـذه هي المرة الأولى التي أدخـل فيها إلى جروبـي ، وكنت قـد انتهيـت حديثا من قراءة رواية رضوى عاشـور «قطعـة من أوروبا»، ولايـزال حـاضرا في ذهني ما قاله عنه. كَتَبَتْ: «سـويسري آخر جاء من

المنطقة الإيطالية في سويسرا... لم يكن جروبي في زمانه مجردَ مطعم ومقهى يقدم أشهى الأطعمة والغريب والجديد من الحلوى والمثلجات، بل مشروعا ثقافيا يُرسي ذوقا وتقاليد... كان مشروعا مزدوجا يتصل بالذوق/ المذاق والتجارة/ الاقتصاد».

أتذكر كلامها وأفكر أنه بمثل هذه المحلات تسربت الثقافة الفارسية في نسيج الحياة العربية في الشرق، وبهذه الطريقة أيضا تسرّبت الثقافة الشرقية في نسيج الحياة الأوروبية في الغرب. الذوق، والمذاق، التجارة والاقتصاد...

اجتزنا القاعة الأولى التي تتوزع فيها الثلاجات إلى قاعة الجلوس، طاولاتُ منتصف القاعة تشبه الوقوف في حافلة. إلى اليمين جهة النوافذ كانت طاولة خالِية. أحبُّ النوافذ دائما.

جلسنا متقابلَيْن. لم أكن قد نظرت لوجهها حتى الآن. مستديرٌ، فيه تجاعيد خفيفة عند زاوية العينين، يبدو أكبر من عمرها بقليل. ربما هي الحرب التي تجعل الوجوه تشيخ. إذا كانت الأرواح تشيخ من الحروب فكيف الوجوه! .. كيف مرت أيام الحرب عليها؟ هل تزوجت؟ أم بقيت حتى هذه السن بغير زواج؟ لا يبدو من أصابعها أيّ علامة. كنت أبحث عن علامة خاتم قديم. وهل تبقى علامات الخواتم في الأصابع زمنًا طويلا بعد خلعها إلا إن كانت قد تركت ندوبا.

كسرت هي الصمت بحديث طويل، متشعبٍ عن العراق وعن الحرب، وعن التاريخ.

كنت أسمع، وأنا أتابع وجهها وتعبيراته.

لم أسألْ نفسي من قبل لماذا أهتمُّ بالتاريخ، لكنني وجدت هذا السؤال مهمًا في حقها؛ لماذا تهتم امرأة مثلها بالتاريخ إلى هذا الحد؟

حدثتُها عن حلمي القديم عن ابن سينا وزيارته، عن أسئلتي فيما يخص رحلة المعرفة الإنسانية في أنحاء العقل العربي. استعدت كلاما كثيرا من رسائلي إليها، مضت سبع سنوات على أول رسالة، تغيرت فيها كثير من أسئلتي، أصبحت أكثر تحديدا.

- إلى أي شيء تريد أن تصل في عملك الذي أخبرتني به؟

- لقد كانت حياة الدول التي حكمت هذه المنطقة من العالم مضطربة، أقصد سياسيا. لم يهنأ العالم باستقرار لفترة طويلة، لم يهنأ أبدا، وحتى أخلاقيا فالخمر وبيوت الغناء والجواري كانت شيئا ثابتا في هذا المجتمع.. كان عندهم فسّاق ولصوص ومستبدّون، ومع ذلك قامت في حضرتهم نهضة مدنية عالية، استوعبت إرث العالم ونمّته حتى سلّمته إلى أوروبا في عصر النهضة. نحن لا نختلف عن أسلافنا اليوم في هذه الأوضاع المضطربة، ولا في أن حولنا أخطارا تحدق بنا، ولا في أننا مستهدفون، ولا في أننا اتجهنا للهو وتركنا صحيح الدّين، كل ذلك كانوا يشبهوننا فيه .. هناك شيءٌ آخر فُقِد فانقطعت صلتنا بالامتداد الحضاري الطبيعي لأي تجمع بشري، وانتهينا إلى ما نحن فيه، حتى تكاد صفة الانتساب لما هو عربي أن تكون سُبّة، أو وصمة تجمع كل المعاني الناقصة. كل ما أريده أن أضع يدي على هذا الشيء المفقود. فقط!

- تفكير جيّد، ربما هو صحيح أيضا. أظن أن علاقة الدولة بالمجتمع في ذلك الوقت لم تكن كما هي الآن، فالدولة قد تشجع الترجمة مثلا، أو تبني المستشفيات. لكنها ليست هي التي تفرض مناهج التعليم على الناس وتسيطر عليها، فيتأخر الناس حين تتأخر الدولة. هناك الفقهاء في المساجد، أحرارٌ تقريبا عن سلطان الدولة، وهُمْ بُناة عقل هذه الأمة الحقيقيين. كان الفقه هو مُنطلَق كل العلوم تقريبا. لن تجد عالما في أي مجال إلا وقد درس شيئا من الفقه. الفقه لم يكن يُعلمهم الحلال والحرام فقط، كان يُعلمهم القدرة على النظر والقياس، والاستنباط. على السؤال

وعلى البحث. بالجملة كان يُعلمهم التفكير الصحيح... حين ارتبطت الدولة بالمؤسسات التعليمية، انتهت بها إلى الشلل. الآن يعود الأمر إلى ما كان عليه، في صورة جديدة هي ما أصبح يحمل اسم «المنظمات غير الحكومية»، أو «منظمات المجتمع المدني».. ليست سوى محاولة لإعادة ما هو شعبي إلى مكانه، وفصل الارتباط المقيِّد للجميع.

– لكن الشلل حدث قبل ذلك، قبل هذا الارتباط الذي تمثله الدولة الحديثة. وربما كان هذا الارتباط ضرورة على عهد محمد علي مثلاً لبعْث العلوم التي اندثرت قبله بزمن.

– وهل بعثها؟

– أظن ذلك.

– لم يبعث كائنا سويا يمكنه البقاء وحده، بعث كائنا مشوها عاجزا. هذه الأمة مزدحمة بإرث عقلي كبير، كان الأسهل والأقرب للنجاح هو النظر في أدواته، بدلا من محاولة استيراد امتدادات ظلت طوال هذا الوقت أبنية غريبة مثبتة على الأطراف، لم تستطع أن تغير شيئا من بناء العقل الفعلي.

العلوم كالفنون، ثمارٌ إنسانية خالصة يمكننا أن نستورد الثمار مبرّدة قد فقدت نصف حيويتها، سنكون قد فقدنا جمال الحقل، وجمال الفلاحة، وجمال انتظار الثمر، وجمال رؤيته معلقا على الأغصان. يعني أننا نكون قد فقدنا الحياة.

مضى الوقت في لقائنا بسرعة، لم أنتبه إلّا وصوت أذان المغرب يملأ الميدان. خمس ساعات كانت هي لقائي الأول بغادة.

أصبحت «الماهية» امرأة عمرها أربع وثلاثون سنة، وعمر وجهها أكبر من ذلك بعشر سنوات، لها صوت ناعم، وترتجف شفتاها ارتجافا خفيفا حين تتحدث. اسمها الدكتورة غادة.

اتفقنا على أن نلتقي مرة أخرى قريبا، قالت إنها ربما تفكر في البقاء بمصر.

«أنا غريبة هناك وغريبة هنا، سئمت الخوف الذي يسكن كل شيء، أنام بعين مفتوحة، أموت في كل يوم مائة مرة، إذا انقطعت الكهرباء، أو توقف السير في الطريق بدون سبب، أو حتى نظر إليّ شخصٌ لا أعرفه نظرة غريبة. أريد أن أرتاح قليلا».

* * *

لقاؤنا الثاني كان في حديقة الأزهر بعد سنة كاملة.

كيف مرّت سنة بسرعة حتى أختصرها الآن في ثلاثة نجوم وأنا أكتب؟

لا أعرف. لم يكن لي خلال هذا العام أحداث لتحفظه؛ تلك الأيام الميتة تخيفني. قضيت سنة «الامتياز» بأيام متشابهة، تبددت كلها فيما لم يبق منه أي شيء صالح للكتابة. ثم تسلمت عملي طبيبا ثالثا بوزارة الصحة، في مستشفى صغيرة بقرية بعيدة منسية من قرى قنا، لم تكن لترضي ابن سينا لو رآها، وطلب منه إجازتها على معايير زمانه التي وضعها الرازي قبله بثمانين سنة.

خلال هذه السنة عادت الرسائل هي الصلة بيني وبين غادة، وزادت معها مكالمات قصيرة أحيانا وطويلة أحيانا أخرى.

كنت سعيدا في الحقيقة لوجود مرشد لي في عالم التاريخ الواسع، صحيح أن التاريخ ليس سوى وجهات نظر، وقد يكون المرشد فيه مقيِّدًا للنظر إذا كان حضوره طاغيا وبالتالي حضور رؤيته .. لكن غادة لم تكن كذلك .. كانت تتركني أرحل، وتراقب هي القارب الذي أنا فيه، فإذا لاح لها اضطراب في الموج.. أمسكت المجداف حتى يستقر الأمر ثم تعيده إليّ.

في حديقة الأزهر، عند البحيرة، تحكي غادة عن مصر التي تعرّفت عليها خلال عام كامل.

«يكفي أن تمسح بإصبعك أي طلاء من طلاءات القاهرة، فترى أي تاريخ مكتوب تحته. تاريخ هذا الأمة مختصر هنا، بل تاريخ العالم كله مختصر هنا أيضا. من حكاية واحدة فيه يمكنك أن تجد مداخل حكايات وحكايات. تماما كالملفات المضغوطة. تظل لا تشغل مساحة حتى تفتحها فإن فتحتها غرقت فيها».

كنا نسير بين ممرات الحديقة حتى وصلنا إلى ربوة عالية، لها درج صاعد إلى أعلاها، قلت: «فوق هذه الربوة منظار مقرب، يمكننا أن نرى منه القاهرة كلها».

صعدنا الربوة. لم يكن رواد الحديقة كثيرين في هذا اليوم فجاء دورنا سريعا، وضعت عيني على العدسة، يدهشني اقتراب الأشياء إلى هذا الحد كل مرة، تتحرك الصورة بسرعة كبيرة مع كل حركة صغيرة للمنظار. أنهيت دورتي وأفسحت لها فأدارت المنظار ببطء، وحين بدأت تسمية الأماكن التي تعرفها، أُغلقت عدسة المنظار. طلبتُ من الرجل أن يمنحنا وقتا مفتوحا فقال: لا أستطيع.. هو يغلق تلقائيا كل دقيقة. فتحه لنا مرة أخرى، فعادت تنظر من العدسة.

«هذا مسجد الأشرف قنصوة الغوري. هل تعرف بم سماه المصريون حين بناه قنصوة الغوري»؟

- لا.

- سموه المسجد الحرام. لأن الغوري كان لصا، أمر عماله أن يسرقوا أعمدة المساجد ليبني بها مسجده.

أدارت المنظار مرة أخرى.

«أبحث عن مسجد الحاكم بأمر الله. زرته قبل شهرين. لا أستطيع

أن أعرف القاهرة من هنا.. معقدة جدا.. كانت حياة الحاكم في نفس فترة حياة ابن سينا التي تبحث عنها».

تكمل دورتها. تلقي تعليقات قصيرة على كل ما تمر عليه حتى تنتهي. قالت ونحن ننزل.

- إنها كالملفات المضغوطة فعلا. لا تستطيع أن ترى تفاصيل الأشياء فيها وأنت تنظر من بعيد. لا يمكن أن تتخيل أصلا إن كانت هذه الصورة التي تراها صالحة لاحتواء الحياة أم لا. لا فضاءات للتنفس ولا حتى شوارع للمشي. في المرات التي حاولت أن أرى فيها صورًا جوية للقاهرة كنت أتعجّب كيف تعيش هذه الكتلة بكل ما فيها دون أن تنفجر... هذه الحديقة جميلة.

- نعم. ليتها تصبح حدائق لا حديقة.

- كانت القاهرة مليئة بالحدائق في كتب التاريخ. سأرسل لك ما كتبه أحد الرحالة الفرس حين زار مصر أيام الحاكم بأمر الله. تعجبني كتب الرحالة المسلمين. أحس أن فيها شيئا آخر غير دقة الوصف، ربما هي عاطفة الكاتب. صحيحٌ أن جزءا من هذه الرحلات كانت أغراضه سياسية أو اقتصادية بحتة، لكنك تستطيع أن تجد هذه الروح بسهولة حتى في تلك الرحلات ذات الأغراض الخاصة.

- لا أفهم.

- هو مجرد افتراض، لا أعرف، أنا أتكلم عن شعور ينتابني. أحيانا أشعر أن رحلة ما لم تكن سوى تقرير طَمْأنةٍ للمسلمين عن أحوال إخوانهم، خصوصا في فترات الحروب التي كانت تعصف بتلك البلاد. وأحيانا أخرى أشعر أنها تقارير كتقرير هدهد سليمان حين قال: وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله. دعني أشرح لك أكثر، كل حضارة يمكننا ونحن نحللها أن نضع عدة أسئلة لنجيب عليها، كيف

نظر الفرد فيها لنفسه وكيف نظر لأخيه، وكيف نظر لجاره الذي ليس أخاه، وكيف نظر للعالم حوله، وقبل ذلك كيف نظر إلى الله. وهذه كلها جزئيات صغيرة، ربما كان ضروريا لنفهمها أن نُقسّمها هذا التقسيم، لكن وعلى نفس درجة الأهمية ينبغي ونحن نرى الصورة أن نركّب كل هذه الأجزاء معا. وبقدر تناسق هذه الرؤى معا ودرجة اتزانها، نستطيع أن نحكم على حضارة ما... أنت معي؟

- إلى حد ما.. تُهت ولم أتُه.. أكملي.

- المسلم، ولا أعني به الفرد الذي آمن بالله وملائكته .. إلخ إلخ. بل ذلك الفرد الذي عاش فردا في جسد الدولة الإسلامية. تماما كما نقول «الأمريكي» على المسلم الأمريكي الذي يعيش فردا في جسد الحضارة الأمريكية.

- ممم.

- هذا المسلم أصبحت له رؤية مشتركة، أو لنقل حدا أدنى من الرؤى المشتركة، تمثل في الأساس رؤية الإسلام الذي هو نظام الدولة وقتذاك.

- نعم ..

- كان المسلم يرى أن هذا العالم كله بكل ما فيه ومن فيه، هو ميدان اهتمامه، على درجات مختلفة، فبلاد المسلمين هي بلاده التي يهتم بتفاصيل الحياة فيها، وما سواها بلاد هو مُكلف بأن يُبلغها ما يحمله من معرفة، فهو مهتم بأن يَعرفها أيضا.

- هذا صحيح، السفر بالأساس مكوّنٌ رئيسي في عقيدة المسلمين، لأنه متعلق بركن الحج، الحج لم يكن مجرد زيارة مكة، كان المرور على كل بلاد المسلمين التي بين بلد الحاج وبين مكة. كان رحلة يعرف بها الحاجّ كيف يعيش المسلمون، يبيت في كل قرية ومدينة، يأكل من طعامها، ويتزوج أحيانا منها، بل ربما حارب معهم إذا أدرك في بلادهم

حربا. كانت رحلة الحج وحدها تكفي لتذيب الحدود والفوارق بين كل الأعراق التي تحت حكم المسلمين.

- تماما. هذا ما كنت أعنيه بإحساسي مع كتب الرحلات. لم تكن هناك حدود بين الناس، حتى في المعرفة لم تكن هناك حدود.

- كيف؟

- لنأخذ رسائل إخوان الصفا مثلا.

- نعم.. كانت محاولة لمحو الحدود بين الدين والفلسفة، والتقريب بينهما.

- هذا هو الظاهر، لكن هناك جزءًا سياسيا خفيا وراءها. في هذه الرسائل سنرى أي درجة بلغها الرقي العقلي لفرقة سأعتبرها أنا سياسية، فمادامت تنتمي للمدرسة الشيعية فهي سياسية، سنرى كيف قدّموا المعرفة وحدة واحدة، كيف محوا الحدود بين الأشياء وصاغوا العالم كله وحدة وَاحدة .. في رأيي أن هذا أمرٌ بالغ الذكاء، ألا تلجأ لأدلة دينية مجردة لإثبات موقف سياسي، ولا لأدلة فلسفية كانت تَلقى تهما سهلة بالزندقة في ذلك الوقت، بل تعيد صياغة كل شيء في نسيج واحد، الدين والفلسفة والعلوم، لتجعل نظام الكون كله دليلا غير مباشر على ما تريده. أليست قدرة بارعة على محو الحدود؟ وسواء وافقناهم مع حججهم أم لا، فمجرد وجود هذه الفكرة في ذلك الوقت أمر يستحق التوقف.

- هذا أمر معقد!!

- بالعكس، الفكرة تبدو منطقية، فالكون مُنطلِقٌ من مصدر واحد هو الله، وبالتالي فهو يقوم على قوانين واحدة، تحقق اتزانه كله. نقرأ هذه القوانين، من العلوم التي تمنحنا أدواتها معرفة قوانينها، ونستعين بها على فهم تلك التي لا يسهل فيها ذلك.

* * *

اصفـرت الشـمس ومالـت ناحيـة المغيـب، وكنّـا جهة الغـرب من البحيرة. تداخلت ألوان السـماء، وبدت المآذن البعيدة ظلالا شـاحبة بلا تفاصيل في لوحة الأفق.

تهب نسـمة باردة، تحرك الأغصان الصغيرة والأوراق المتدلية، وتهز معهـا روحي هزا رقيقا. أتـرك عقلي حرا من كل شيء، وأنا أتابع القرص النازل نحو المباني البعيدة. كانت غادة مثلي متعلقة به، ساكتة قد جعل نور الشمس الأصفر وجهها شمسا صغيرة مبهجة.

اغتنمت الشمس، لأصور وجهها من قريب، الشمس سر الحياة التي فتنت السـابقين حتى عبدوها، وهي في هذا الوقت تمنح صور أي مصور مبتدئ حياة تستحق العبادة أيضا.

اختفـى نصف الشـمس وضوؤها يتبعها، حتى مـلأ الحديقة صوت أذان المغرب، خفيفا، يحمله الهواء وهْنًا على وهن.

بعـد الغـروب، خرجنا إلى الطريق، كانت غادة قد استأجرت شـقة أمـام أرض المعـارض، ركبـا سـيارة أجـرة إلى هنـاك، ونحـن نتحدث في أشـياء كثيرة صغيرة، عن شـوارع بغداد، ومسـاكنها، لم يكـن لها أقارب تعرفهـم في القاهـرة، لها عـمّ مقيم في أمريـكا منذ زمن بعيـد، لم تَرَه أبدا، وليس لها أخوال.

– لي جيران طيبون، لكنني لازلت أشعر بالغربة. قضيت عاما كاملا في السـياحة. مصر جميلة حين تكون فيها سائحا، تألفها سريعا. لم أجرب أن أكـون مصريـة حتى الآن. أفكر ماذا سـأفعل لو عـدت إلى العراق، لا أعـرف، لا أعـرف أيضـا ماذا سـأفعل هنـا. ربما أبحـث عن عمل يشـغل وقتي، وأكون مصرية به.

تركتها عند البيـت، وأكملت أنا إلى ميدان رمـسـيس. يتبعثر اليوم كله حـين تقترب السـيارة من الميـدان. لا التاريخُ ولا الغروبُ ولا مشـاهدةُ

الصـــور التي صورتهـا خلال اليوم تفلح في أن تحتفظ منه بشيء، تمنيت أن أدرك قطار السـابعة والنصف، حتى لا أضطر أن أحشر في حافلة تبدد ما أحاول الاحتفاظ به من نفسي.

في القطار كتبتُ في مُفكرتي عبارة وجدتها ناضجة في ذهني:

«الخلافة ليســت أن يحكم بلاد المســلمين جميعها رجـل واحد. لم يعد هـذا ممكنا، ولم يتحقق في الزمان إلا قليلا. الخلافة هي الحكم العادل ولو في بيـت صغير. كما يسـمي الخطباءُ أي منبر في أي مسـجدٍ منبرَ رسـول الله، أما بلاد المسـلمين فوحدتها هي وحدة وجدانها. لقد كانت بلادُ المسلمين تحت حكم دول عديدة، لكل دولة أرض وحدود وجيش يحميها، ورغم ذلك بقي الوجدان واحدا. المشكلة الآن بالأساس ثقافية، المعرفة تصنع جـزءا مهـما في عواطف الناس، لا يمكـن أن نراهن عـلى العاطفة الدينـية وحدهـا، العاطفـة الدينـية ليسـت إلا غريزة مجـردة من غرائز الإنسـان، ووظيفة الحضـارات أن تهذب غرائز البـشر».

* * *

في الصـباح كانت رسـالة غادة تسـتقر في صندوقي.. وفيها ذلك الجزء في وصـف مصر أيام الحاكم بأمر الله الفاطمي:

«..... أمـا مصر، فحاكمها شـيطان مريد، جبـار عنيد، كثير التلون، سـفاك للدماء، عظيـم، خبيث النحلة، لا يعلم له أحـد ملة. هو فرعون، يخـترع لهم كل حـين أحكاما يلزم النـاس بها، فتارة يأمر بســب الصحابة على جدران المساجد، ويهدم الكنائس، ويقسـر النصارى على الإسلام، ثم يعود فيـبني الكنائس ويرغم الذين أسلموا منهم على التنصر من جديد.

حرّم على الناس أكل السـمك الذي لا قشر لـه، فلا يأكلون إلا نوعا واحدا يعيش في نهرهم، يشـبه الأفاعي، لكنه أقصر. وحرم عليهم الملوخية وهي نبات أخضر يطبخونه، كما حــرّم بيع الرُّطَب، وخروج النسـاء من البيوت.

والناس هناك كل يوم في ثورة، لكن ثوراتهم تنتهي بهم إلى السجون أو القتل، حَرَق القاهرة التي بناها جده، واستباحها ليعاقب أهلها على تمردهم، وأرسل خادمه ينظر الخبر منها، فلما عاد وقال له مزهوا: لو استباحها طاغية الروم ما زاد على ما فعلت. قَتَلَهُ في حينه.

وهي على ذلك مدينة جميلة التنسيق، واسعة الشوارع، في وسطها قصر الحاكم، وبينه وبين البيوت فضاء واسع، يحرسه فيه خمسمائة جندي، ويسكن القصر خمسة عشر ألفا، من الخدم والحرس والعمال والجواري.

وللقاهرة خمسة أبواب، وبيوتها مبنية بناء نظيفا محكما ومفصولة عن بعضها بالحدائق التي ترويها الآبار، ويؤخذ ماء الشرب من النيل. وأكثر هذه البيوت يملكها الحاكم ويؤجرها للناس، وكذلك دكاكين الأسواق والحمامات والخانات، فكلها ملك له، يؤجرها لأهل القاهرة بعشرة دنانير في الشهر.

وفيها بيوت من سبع طوابق، بعضها فوق بعض، لها نوافذ من الخشب المعشق، ودرج قوي من الخشب أيضا، وفيها بناء مرتفع من أربعة عشر طابقا، يزوره السائح فيرى منه المدينة كلها، مبسوطة كأنها بيوت في الجنة، تحجب أشجارها العالية عن الرائي ما يعتمر في صدرها من اضطراب وغضب.

وفي جامع عمرو أقدم جوامعها، يُرمّم الناس جراحهم، ويتدارسون مذاهبهم، لا تضرهم دعوات الفاطميين الذين أمّنوهم كاذبين على مذهبهم ووعدوهم حين نزل العُبيدي الإسكندرية أنهم لن يرغموهم على التشيع. ولهم على دينهم غيرة، لا تهدأ. حتى أنهم قتلوا حمزة بن علي الزوزني، وبعده الحسن بن حيدرة اللذيْن دعيا إلى تأليه الحاكم بأمر الله *.

* * *

لوحة ٥

جاء اقتراحها لي بالسفر إلى إيران مُفاجئا.

كنّا في رَفَح، قد بدأتْ تعرف مصر المَعاصرة بالزيارة، بعد أن قضت عامين كاملين تقرأ لوحات مصر التاريخية في الشوارع والبيوت والمساجد. أصحبُها إلى المحافظات في رحلات صغيرة كالجوالة.

لم أشترك في أي نشاط جوالة من قبل، لم أعرف في الحقيقة نشاطا كهذا حين كنت طالبا، كانت الرحلات صورا مكررة ثقيلة، ولم أكن أحبها.

سافرنا إلى الصعيد، وإلى طنطا، وإلى بورسعيد، وقضينا في سيناء أسبوعا بعد أن استأجرنا سيارة لم يفهم سائقها إن كنا نتحدث معه بجد أم نمزح وأنا أقول له: أريد أن تتجول بنا في سيناء.

- في سيناء! وأشار بيديه علامة الاتساع .

- نعم.. تذهب بنا في الشمال حتى رفح، وتعود بنا في الجنوب حتى الإسماعيلية.

كاد يقول أي مجنونَيْن أنتما، ثم رأى أن خير ما تفعله مع المجنون أن تجاريه.

- ستكلفكم هذه ألفا وخمسمائة جنيه.

جاء دوري أنا لأقول أي أحمق هذا. وهل ترانا سائحين، يفرحان بركوب سيارة بيجو قديمة. والتقاط الصور منها، كأنه سفينة الصحراء.

- يا باشا أنت تطلب طلبا لم يطلبه مني أحد من قبل!

- وأنت تقول لي رقما لم أسمعه من أحد من قبل!

سألني: ماذا تريدان من سيناء؟

جعَلَتْه لكنة غادة يقدح عقله التآمري، ويفترض أنها فلسطينية، تريد أن تسافر إلى غزة عبر الأنفاق.

- الأمن كثير في الطريق وسأسلك طرق الجبال.
- لِمَ ... وهل نحن مهرّبان؟
- ستُثير الشكوك حتما.

أخيرا مضى بنا إلى رفح، بعد أن اطمأن إلى أننا مأمونا الجانب. تحركنا من بورسعيد، وعبرنا جسر السلام، ونزلنا في كل مدينة لقيتنا حتى وصلنا إلى رفح.

كان يحكي ذكرياته مع الطريق، والصحراء تكرُّ مسرعة حولنا.

«أوقَفَني هذا الكمين بسيارة فيها بضائع كنت أحملها إلى غزة، وقت أن تحطم السور كنا ندخل بسياراتنا إلى هناك، نسلم البضائع ونعود. كنت أحمل بضائع قيمتها خمسة عشر ألف جنيه، أسلمها هناك بخمس وأربعين.

- والكمين؟
- أخذ أمين الشرطة حلوانه، وتركنا.
- أنت مناضل.
- لا.. أكلُ العيش.. هم لا يستحقون شيئا.. يقولون عنهم فقراء.. نحن الفقراء.. حين كان يُفتح المعبر كنت أنقل الفلسطينيين إلى القاهرة بسبعمائة جنيه للفرد. وكانوا يدفعون.
- لستَ مناضلا.. بل نصاب.. تستحقون إذن النقود المزورة التي ضحكوا عليكم بها.
- لا تذَكّرني.. تجارٌ كثيرون كادوا يفلسون بسبب هذه النقود.

في رفح ... خُطِفتُ.

لا شيء يعبِّر عما حدث لي سوى هذه الكلمة القصيرة.

كنا نسير في الشارع الرئيسي في المدينة، مليء بالحفر والمطبات، ونقاط

التفتيش وهو يشير إلى المباني إلى يميننا ويقول: «خلفَ هذه المباني يكون الجدار الذي يبنونه الآن»؛ قبل أن ينعطف فجأة إلى شارع صغير، ويجعلنا في مواجهة السور تماما.

يحجز السور خلفه أرضا أخرى، لا تشبه هذه التي نقف فيها، كأنه يفصل بين عالمين مختلفين، لا بين أرض واحدة مقسومة إلى جزءين.

أشجار الزيتون ونقاط الحراسة، وبيت أبيض عند الأفق كأنه يرفع السماء من خمسة طوابق نوافذه مغلقة.

لم يمنع السور الهواء من المرور، فتحت له صدري، وأحسست كأنه يسري في أطرافي. ملأني شعور أن هذا الهواء يطهرني.

أعود أشرب منه، وأنا أشعر أن الجزء الذي مسّه مني قد خفّ، وزالت عنه الأدران المتعلقة به.

كانت اللحظة قصيرة لأن جنود الشرطة أشاروا إليه أن ينصرف، فأدار السيارة وتحرك ليخرج من الشارع الصغير إلى الشارع الكبير المكّسر. بقيتُ ساكتا لا أتحدث، ولم أدرك إن كان فرحا أم رهبة ذلك الذي أعجزني عن الحديث.

قال هو: «أيام الحرب الأخيرة، كنا نسمع صوت القصف ونحن هنا».

لم أتخيل يوما أن تكون غزة قريبة إلى هذا الحد. ثم أرحل عنها بسرعة.

قالت غادة: سبحان من علّق القلوب بهذه الأرض. «ائتوه فصلوا فيه فإن لم تأتوه فابعثوا بزيت يسرج في قناديله».

- هذه الأرض أيضا لغز من ألغازنا التي لا أفهمها.

- ليست لغزا.. أولا الصراع أحد لوازم وجود الإنسان، لا يمكن أن

تتخيل الدنيا من دونه، ثانيا، كل عقيدة لابد من الموت في سبيلها لتظل حية متجددة، والله جعل منشأ روح الأمة في هذه الأرض، تُخلق فيها ثم تتشكل إلى كل صورها بعد ذلك في كل مكان. ثم هناك الوعد الإلهي، تماما كوعده بالجنة، وبيننا وبين الجنة أن نعمل، وبيننا وبين هذه الأرض أن نعمل. ليس هناك مجال لافتراضات.. ليست سوى معادلة لقياس وعينا بما نؤمن به في الحقيقة.

قبل أن تنتهي من حديثها، كنا قد وصلنا إلى المعبر عائدين إلى الطريق. المعبر أحفظ تفاصيله من صوره المتابعة في نشرات الأخبار، لم يُسمح لنا بالوقوف، لم يكن هناك أحد، سوى سيارات أجرة قليلة تقف تحت مظلات الموقف القريب. ولا شيء سوى ذلك.

قالت:

- ما رأيك لو تسافر إلى إيران. لن تأخذ من الكتب إلا القليل، هناك ستعرف أكثر.

- لا أعرف الفارسية.

قالت متهكمة: العقبات أكبر من أن تعرف الفارسية.. لا تهتم بأمر اللغة، الدكتورة رضوى كانت معنا في القسم. هي أيضا مصرية. زوجها الدكتور گنجيان إيراني، وهو أستاذ الأدب العربي في إحدى كليات طهران، يمكنهما مساعدتك إذا وصلت إلى هناك. المهم أن تصل.

- هل يقيمان هنا؟

- لا، تزوجا ونحن في العراق. هو من أكراد إيران كما أذكر. وهو الذي ساعدني في هروبي من بغداد إلى أربيل، وأعادني إلى مصر. لم أكن أستطيع ذلك وحدي.

- سُنِّي؟

- لا.. شيعي.. ليس شيعيا تماما.. إذا عرفته ستجد أنه نموذج لانهيار الحدود بين المذاهب. سأرسل إليها حين نعود، وأخبرهما عنك، وأطلب منهما مساعدتنا. سنجد طريقا إن شاء الله.

هكذا تولد الأفكار سهلة أحيانا، من سفر في صحراء سيناء، تولد رحلة إلى صحراء فارس. وكلتاهما بغير خطة، ولا نسق.

لو أن كل شيء نفكر فيه يخرج إلى النور بهذه السهولة.

بعد أسبوعين أرسلت تخبرني أن صديقتها رحبت بالأمر كثيرا، وأنها ستسافر مع زوجها إلى طهران في الصيف بعد نهاية العام الدراسي، ويمكننا ترتيب الرحلة في ذلك الوقت.

كنا في الخريف، وبيننا وبين الصيف سبعة أشهر كاملة.

قالت: هي فترة كافية لأن تقرأ جيدا عن إيران. وتتعلم الفارسية، ونبحث عمن يساعدنا لدى أجهزة الأمن.

كانت تفهم أجهزة الأمن فهما خاطئا. ربما لأن من رأى أجهزة الأمن العراقية يتخيل أن كل شيء سواها هيّن، يمكن التفاهم معه.

رغم أن مجرد الاتصال بالهاتف لإيران ممنوع إلا بعد تقديم طلب إلى السنترال الرئيسي موضحا به سبب الاتصال، والعلاقة بالمتصل. فقد جربت أن أتقدم بطلب إلى مباحث أمن الدولة. لم أعرف إن كان يمكنهم أن يفهموا سبب السفر الذي سنقدمه لهم.

* * *

«مسافر لأي شيء»؟!

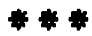
- لأجل تاريخنا.

- لأجل تاريخنا!.. أنت شيعي!.. أليس كذلك؟!

- لا.

- تصلي؟

- ألا يصلي إلا الشيعة؟
- أجب؟
- نعم.
- لك نشاط سياسي؟
- أبدا.
- كيف تهتم بالتاريخ وليس لك نشاط سياسي، أين ستصرف تاريخك هذا إذن، في عيادة الأعصاب.
- لا أفهم.
- مم.. لن تسافر.
- شكرا لك.
- لا شكر على واجب، لا تفهمنا خطأ، نحن حريصون على سلامتك، أنت تعرف أن دولا كثيرة تريد الشر بمصر، ربما تعرض لك أحد بسوء هناك، هل أنت متزوج؟
- لا.
- أمك تخشى عليك. لا أريد أن أراك هنا مرة أخرى. مع السلامة.
- لا ترسلوا لي، لئلا تراني.



لوحة ٦

فبراير ٢٠١١

«مبروووك يا محمد..

هذا ميلاد خير أمة يا عزيزي.

الأمم لا تبعث بهمة شخص، بل بصدى همته في نفوس الناس من حوله. وبتحملهم مسؤولية العمل بهذه الهمة.

لو لمْ تلق عبارة سعد زغلول في جمعية الاقتصاد والتشريع «مصر للمصريين» صدى في نفوس الناس حوله، لماتت في مكانها. ولما تحول هو من رجل الموقف حين قالها إلى رجل المسؤولية حين وافقت إرادة الشعب معه.

وهتافات الثلاثاء التي دوت: «تغيير - حرية - عدالة اجتماعية» لـمَّا وجدت صداها في نفوس الناس جميعا، تحولنا بها إلى رجال «موقف»، نحمل اللحظة ونرتجل لما يأتي.

رجل الموقف هو الذي يوقظ الهمم التي فترت، ويبث الروح حين تكاد تخمد، يحافظ على ما معه ويثبت على موقفه. طاقته بقدر ما يمور في نفسه، وبقدر ما يمور في نفوس من يستمد منهم روحه.

الآن انتهى طور الموقف، وجاءت الأمانة.

ولدنا، بعد كل هذا المخاض الطويل، أيام الولادة الأولى هي أيام ضعف الوالدة والولد...».

كانت رسالتها فرِحَةً، والجملُ فيها متابعةً بغير رباط واضح.

أعتادُ تنقلاتها فَي الحديث بين مواضيع كثيرة عادة، هذه سمة من يملكون الكثير ليقولوه. أما هذه المرة، فكان الفرح هو ما يخلط الكلام في رسالتها. رغم أننا تنفّسنا هذا الفرح معا حين اتصلت بي من ميدان التحرير لحظة انفجاره في كل مصر.

كان الفرح فيضانا عوّض تلك السنين التي لم يفِضْ فيها النيل، منذ بُني أمامه السدّ.

انساب الناس من البيوت إلى الشوارع، حتى كأنه لم يبق في مصر أحد في هذا اليوم إلا وله على وجهه ابتسامة وفي قلبه فرح.

فرح عزيز لم يعد يأتي سهلا لأحد.

أما أنا، فشعرت ساعتها أن هذه الثورة كلها قد قامت، لأجل أن أسافر إلى إيران. تلك الرحلة التي خططنا لها ونحن لا نعرف كيف سنفتح الباب لها، كسفينة نوح بناها في الصحراء ففاض الماء من كل جانب ليحملها.

لا أعرف هل نكون أنانيين إذا فكرنا أن كل ما يدور في الكون، إنما يحدث لأجلنا نحن بالخصوص. بالتأكيد لنا فيه جزء أو أجزاء. أعتقد أنه ربما كانت أسماؤنا مدونة في كل تفصيلة تحدث في العالم. يتغير مدير مركز في روما، ليحصل شخص ما على ترقية في القاهرة مثلا، ربما لن يعرف أبدا التسلسل الذي انتهى باستقالة مدير هذا المركز إلى ترقيته، لكن تسلسلا ما قد حدث. أليس الكون كله وِحدة واحدة.

* * *

في إبريل، أرسلتُ إليها:

«أسافر إلى المدينة المنورة خلال هذا الأسبوع، لن أمكث كثيرا هناك. أردت أن أسافر قبل أن أحصل على تأشيرة إيران على جواز سفري، لأني علمت أن المملكة لا تمنح تأشيرات لمن سبق لهم زيارة إيران في فترة قريبة.

هذا والإيرانيون يدخلون إلى المملكة بغير تأشيرات دخول.

إلى اللقاء».

* * *

لوحة ٧

«أعددت كل شيء للكتابة إليك.

الغرفة الآن مرتبة وقد غيرت موضع الطاولة والأريكة ومقعدين صغيرين فيهما. وضعت الأريكة عند النافذة، والطاولة أمامها؛ لأريح عليها جهازي وأنا أقرأ أو أكتب.

أما المقعدان فقد جعلتهما في موضع الأريكة القديم. لم يتغير من الغرفة إلا ما يقابل جدارين فقط، لكنهما كانا كافيين لجعلها تبدو أكثر نشاطا وحيوية. ربما كانت الغرفة بمثل هذا الترتيب في أحد الأيام البعيدة. لأنني أغير ترتيبها كثيرا ولا أضع فيها أشياء جديدة في العادة.

القليل فقط مما تقتضيه الضرورة. ضرورة التخزين أحيانا حين يضيق البيت بطاولة أو مقعد أو شيء لا يمكن الاستدلال على أهميته ولا يمكن التضحية به.

لدى من حولي اعتقاد بأنني قادر على إخفاء الأشياء غير الضرورية في غرفتي بحيث لا تظهر.

يسعدني في الحقيقة هذا الاعتقاد لأنني أرى به قدرتي على إيجاد قيمة للأشياء غير الضرورية. مع أنني لا أفلح دائما في ذلك؛ تخذلني بعض الأشياء بإصرار. كأنها تُلح في إيصال رسالة تخبرني بها أن الأشياء الجامدة تموت أيضا كما يموت البشر. ليس بالضرورة أن تتهالك أو تفنى ليكون في هذا صورةُ موتها. إنها تموت بصورتها التي كانت حية عليها. حين تصبح عديمة القيمة أو يغني شيء ما عن عملها.

أيّ قيمة لهذه الأشياء سوى ما تحمله من ذكريات.

الذكريات التي لأجلها لا تضحي جدتي بصالونها القديم وتصر على توزيعه في أركان البيت لأنه لم يعد له مكان يسعُه في حجرة الاستقبال،

ومنه أخذت الأريكة التي أجلس عليها الآن. لا تحكي هذه الأريكة لي أيّ حكاية عمن جلس عليها، هي على الدوام صامتة وإن كانت تحتفظ بجمالها الذي لم يتأثر كثيرا من مرور الأيام. قوائمها التي خف لون طلائها لا تشعرك أنه ينبغي عليّ تجديدها. هي على هذه الصورة منذ رأيتها المرة الأولى خفيفة الطلاء، أما قماشها فليس عليه آثار الزمن إلا الفترة التي قضتها عندي في الغرفة. لأن جدتي كانت دائمة الستر لها. غطتها أربعين سنة كاملة، لم تكشف فيها إلا أياما معدودات حين كانت تخطب واحدة من بناتها أو تُزف ثم تعود مستورة من جديد، كأنها لا تنكشف إلا للفرح وحده.

الذكريات التي تجعل جدتي متعلقة بكأس جدي لا تسمح لأحد أن يشرب فيه. هي ما يجعلني معلقا بحاسبي القديم رغم أن وجوده في المكان أصبح عبئا عليه. حاسبي الجديد صغير أحمله على الأريكة والسرير وأجلس به ممدا على الأرض. أما الآخر فيقيدني على الكرسي أمام المكتب. ورغم ذلك ما نظرت إليه إلا غشيتني سحابة من الحنين لا يمكن أن تتغلب عليها راحتي مع جهازي الجديد.

عليه قرأتُ أكثر الأشياء التي أحبها، كنت أجلس إليه أوقاتا أطول من التي أقضيها مع مَن حولي. كان يسرقني من كل شيء حتى من نفسي. لكن سنة الحياة التغيّر.

عُدت من المدينة المنورة منذ ثلاثة أيام، قضيت هناك أسبوعين، كان وصولي إلى جدة، فاعتمرت في اليوم الأول ومكثت في مكة يومين، ثم أكملت أيامي في المدينة.

لقيت هناك صديقي عبد الرحمن، زرت معه ما استطعنا أن نصل إليه من معالم المدينة القديمة.

لا شيء في المدينة قديم إلا روحها، كنت أعتمد على كتاب قديم لمحمد الأنصاري عن معالم المدينة، وكلما وصلنا إلى مكان لم نجد فيه شيئا.

تبدلت المساجد كلها، وهدمت أكثر البيوت والقصور وأزيلت البساتين، أو تحولت إلى قصور لأمراء لم يدخلوا المدينة منذ سنين.

سأرفق مع هذه الرسالة ما دونته هناك.

أتمنى أن أراك قريبا.

محمد؟

* * *

«.... كنا قد تركنا جبل أحد، وركبا السيارة متجهين إلى مسجد القبلتين.

أقول لعبد الرحمن: هنا، لو نبشنا هذه الأرض، لرأينا سيد الشهداء حمزة، الأرض لا تأكل الشهداء.

منذ وصلنا إلى الجبل، وأنا أشعر أننا في مكان لا معنى للزمن فيه، الزمن هو باب فناء الأشياء، والحديث المكتوب على اللوحة الكبيرة التي تحوي أسماء الشهداء، يقول إن الشهداء لا يفنون.

هنا كل شيء، يحمل روحه التي كانت فيه منذ ذلك اليوم. لم يمسها الزمن.

أسمع صوت الرماة على الجبل الصغير خلفنا، وقعقعة السيوف، وأرى فوضى الصفوف، والمنادون يرفعون أصواتهم بين الناس:

«قتل رسول الله».

أين كان يقف حين كسر سنه، أين وقف وأبو دجانة يحميه؟

هذه جهة المدينة.. جيش المسلمين يقف هنا إذن.

تملؤني الرغبة بتقبيل أحجار الجبل.

أحدٌ لا يشبه شيئا من الجبال التي رأيتها في أي مكان، أحجاره داكنة تلقي في النفس مهابة حين تراه من بعيد، وحيدًا في صدر الأفق.

أذكر حديث الرسول «أحدٌ جبل يحبنا ونحبه» ويخفق قلبي.

جبل يحبه رسول الله، يهمس له حين يرتجف، وهو واقف فوقه:

«اثبت أحد، فإن عليك نبيا وصدّيقا وشهيدين»

عمر وعثمان، الشهيد الذي تفجرت باستشهاده فتن هذه الأمة.

قاطعني عبد الرحمن:

«ليست فتنا!!، كانت جناية المؤرخين الذين لم يحسنوا الفهم والقراءة. لا يمكن أن يكون الله قد كتب لهذه الأمة أن تكون حياتها هي الثلاثين

ـسنة الأولى، ثم تتيه في الفتن حتى آخر الزمان، أليست هي من اختارها الله ليختم بها الزمان. هل يجعلها الله درة الأمم، ويكتب عمرها ثلاثين سنة، ثم يمد الزمان بعد ذلك ألفا وخمسمائة عام؟.

- إن لم تكن فتنا، فأي شيء كانت؟

- كان تابعا تاريخيا طبيعيا جدا، وملائما لما سيجدّ على هذه الأمة من تحديات. كان لابد لتجربتها الإنسانية أن تُصقل، بعد أن أرشدهم الله لأول الطريق الذي ينطلقون منه. ولا تصقل التجارب إلا بالحوادث الكبيرة.

كان لابد لهذه الأمة من ألم عظيم،ألمٌ تعرف به معنى الاستخلاف في الأرض الذي كلفت به، ومعنى عمارتها. كان لابد لها أن تدرك أن الحياة ليست مدينة فاضلة، تسير على نسق واحد منضبط، بل هي لوحة كبيرة متشابكة الألوان والخطوط، معقدة أحيانا، ومنبسطة أحيانا أخرى، لكن المحصلة في النهاية لمن يراها عن بعد، نقش متقن بديع.

- لكننا خسرنا كثيرا بذلك، خسرنا بانقسام المسلمين بين علي ومعاوية، وخسرنا بانقسام أتباع علي إلى خوارج وشيعة، وخسرنا حين استمرت ثورات الشيعة، وخسرنا حين قامت الدولة العباسية على كل هذه الجماجم، وخسرنا حين تبعثرت الأرض بين الملوك، نحن نخسر منذ ذلك اليوم، وبتتابع وانتظام.

- «نخسر، حين نخرج عن سنن الكون، وسنة الكون الانقسام، الخلية الواحدة تنقسم لتكون الطفل الوليد.

البيت الصغير الذي هو من أب وأم وأولاد، يصبح بيوتا عديدة من آباء وأمهات وأبناء، ونحن لم نكن سوى بيت واحد صغير، اتسع بيوتا عديدة.

لم نخسر ، دفعنا ثمنا كبيرا فقط..

ثمن لا يمكن المفاصلة فيه، لأن السلعة التي كانت تنتظرنا ثمينة وغالية.

عمارة الأرض ليست عَبَثًا يحمله خواة العقول، أو النفوس. مهّد الله عقل هذه الأمة بنصوصه، نقلها به من سطحية النظر في التعامل مع الأشياء إلى منطقة أخرى أرحب، ثم ترك أحداث الدنيا لتصقلها، وتشكلها».

كنا قد وصلنا إلى مسجد القبلتين. البناء جديد، لم يترك من تفاصيل التاريخ أي شيء، سوى ذلك المعنى المعلق في أذهاننا وقلوبنا.

في هذا المكان وفي صلاة العصر، صلى الرسول عليه الصلاة والسلام العصر، إلى بيت المقدس وإلى الكعبة المشرفة. تغيرت القبلة بين ركعتين في صلاة واحدة، أدار الرسول وجهه في الصلاة، فجمع في عصر النصف من شعبان قبلتَيْ المسلمين معا.

أفكر أني أودّ لو أصلي الآن مثلما صلى الرسول إلى بيت المقدس وإلى الكعبة، أجمع القبلتين حقيقة في صلاة واحدة.

أغمض عيني وأنا استقبل ناحية بيت المقدس. يسرح خيالي في الأفق البعيد، يزيل الظلام الحواجز، ويفتح الطريق إلى البيت المقدس، أشجار الزيتون، وصور البيوت القديمة، وصورة قبة الصخرة وقصيدة تميم البرغوثي في برنامج أمير الشعراء:

مررنا على دار الحبيب فردّنا	عن الدار قانون الأعادي وسورها
فقلت لنفسي ربما هي نعمة	فماذا ترى في القدس حين تزورها
ترى كلَّ ما لا تستطيع احتماله	إذا ما بدت من جانب الدرب دورها
وما كل نفس حين تلقى حبيبها	تسر ولا كل الغياب يضيرُها
فإن سرها قبل الفراق لقاؤه	فليس بمأمون عليها سرورها

فقلت لنفسي ربما هي نعمة

أفيق على رجل يديرني بيده إلى الجهة الأخرى.

- أنا لا أصلي!!

- الله يهديك بس!! ثم تركني وانصرف.

لم نمكث في المسجد كثيرا، صلينا المغرب، حيث أدركَنا هناك ثم خرجنا.

أقول لعبد الرحمن: «أتعرف، كم أتمنى أن أجمع تاريخنا في كتاب... ليس كتابا! أعرف أنه ليس أكثر من الكتب، أقصد علاقات الأشياء ببعضها. أريد أن أراه حيا حولي، أريد أن يحيا في نفسي كما هو.

في الطب نقول: من يستطيع أن يرسم العلاقات بين كل الأمراض وكل الأعضاء في عقله، سيكون طبيبا حاذقا.

الطب ليس هو معرفة الأمراض متفرقة، ومشاكل الأعضاء مجزأة، بل معرفة علاقات كل هذه الأشياء ببعضها، وبحياة الإنسان نفسه، ربما لذلك يخفق الكثير من الأطباء، حين يتحولون إلى رياضيين يقيسون الجسد كما يقيس المهندس حسابات الآلات.

والتاريخ، ليس آلة صماء، بل كائن حي، ربما تكون الجراثيم الطبيعية الموجودة فيه، هي سره الذي يحافظ على حياته. وتاريخنا يا عبد الرحمن، قيدنا في الزمان وفي المكان. حملنا الثقيل الذي نجره، ولا نعلم ما فيه، لا نريد أن نتركه، ولا نريد أن نفتحه فنخفف ثقل ما لا نفع منه فيه.

قال:

«لِمَ لا تكتب رواية تجعل فيها كل ما تفكر فيه. الرواية تصل إلى حيث لا يمكن للكتب والمحاضرات أن تصل. نحن مولعون بالثرثرة والخوض في سير الناس. والرواية تمنحنا ذلك دون عناء الغِيبة أو خوف انتقال الكلام و حدوث القطيعة».

«الرواية هي من سينثر أفكارك على الوسادات ويزرعها في أحلام النائمين، ستكون على مقاعد الحافلات والقطارات وفي أحاديث الناس في المطاعم واستراحات النوادي والحدائق. كل ما عليك أو أن تصنع بناء يغري الجميع بالدخول إليه واكتشافه. يأخذهم من كل ما حولهم، يسلكهم في نظامه ويفصلهم عن عالمهم. ارسم عالما بالغ الدقة في التفاصيل، حتى في ملمس الفرش والستائر ورائحة العطور المنثورة في جوه. دعهم يسيرون مبهورين به. الحكاية مبهرة دائما وإن كانت مكررة، الحكاية إدارة العالم دون جهد، معارك دون دم، انتصارات دون أرامل أو ثكلى. خلق من خيال. والخلق مبهر دائما، مغوٍ دائما. والإنسان غاو بطبعه، وليس أجمل عنده من غواية الخلق.

وحين تبدأ في الكتابة ستعرف شيئا آخر من قدرة الرواية. حين يكتمل عالمك الذي تبحث فيه بين يديك، قائما قد بدت ملامحه. ستراه أمامك كما يرى النحات تمثاله الذي يبنيه، وتعرف أين يكمن نقصه وضعفه.

الآن كل شيء مبعثر في ذهنك وفي أدراجك وبين رقائق هذا الجهاز الذي تحمله دائما. ولا أحد يهتم أن يفتش في كل ذلك، ولا حتى أنت. الكراكيب تثير الفضول لكنها لا تغري بالتنقيب فيها.

اصنع من كل ما يتجمع لديك رواية واحدة. بناء واحد، الأخشاب والزجاج وقطع الأثاث التي تملأ بهم كل شيء حولك، اجمعهم وابن بهم بيتا جميلا. صممه أنت كما تحب، وأثثه كما ترى. ستجد أن كل شيء معك أصبحت له قيمة. اللوحة الصغيرة المتروكة في بدروم صغير تصبح قيمة حين تعلق على جدار مصقول ملون، يظهر جمالها. ثم تزيد قيمتها حين تشهد على حياة أناس وتدخل في تكوين ذاكرتهم. في البدروم لا قيمة لشيء، لأنك لا تراه ولا تعلم بوجوده في الأساس. لقد قضيت وقتا طويلا تنقب في كتب، أخرجتها من خزائن المكتبات إلى بدرومك أنت.

الرواية هي بوابة الخلود لأي فكرة تريد قولها».

كنا قد وصلنا إلى بيتي، أوقف سيارته وسألته: متى تسافر؟

- بعد يومين.

- ستذهب إلى دمشق في إجازة نصف العام؟

- ربما.

- ألقاك هناك إذن..

- تشرف، ولو.

قبل أن أنزل عاد ليقول:

«لا تنس.. الرواية تصنع لنا ما نعجز نحن عن صنعه، حتى تلك الأجزاء المظلمة في نفوسنا التي نخشى البوح بها، تبوح بها بدلا منا. رغباتنا المكتومة التي لم نجد الطريق لإخراجها، ضحكنا، عبثنا، بكاؤنا... الرواية التي نقرؤها تتم جزءا من حياتنا حين لا نستطيع نحن أن نتمه في الحقيقة.

الروايات تطهرنا يا صديقي.

إلى اللقاء... »

- حاضر.. إلى اللقاء.

أكمل العبارة لنفسي بعد أن انصرَفْ: «أو تقتلنا».. الذي يقدر على إتمامنا، يفعل ذلك لأنه يعبث فينا، وقد يقتلنا من حيث لا نشعر!

«ألا تقتلنا الكتب أحيانا؟»

* * *

القاعة الثانية

«تالار دوم»

فكأنما خطرت بمصر..

فأشرقت في يوم أسْعُدِها على طهران

حافظ إبراهيـم

تابلو شماره ۱

لبيت رضوى حديقة صغيرة، فيها شجرتان كبيرتان يظللانها، ترتفعان حتى تتعديا سطح البيت المكون من طابقين. وتتدلى أوراقهما فوقه، حتى تنزل على جزء من واجهة البيت، يمكن لمن يفتح نوافذ البيت أن يمسك هذه الأغصان المتدلية. وعلى النوافذ أحواض فيها نباتات صغيرة مزهرة.

حتى سور الحديقة كانت تخفيه أشجار صغيرة لها أوراق ملونة.

صعدنا درجتين إلى الباب، بعد الباب يعلو الدرج خمس درجات أخرى، نصعدها بعد أن نكون قد خلعنا أحذيتنا وتركناها في خزانة صغيرة.

السلم مفروش بسجاد منقوش، والجدران مزينة بصور لوحات مشهورة لفنانين إيرانيين، أعرف منها لوحة لإيمان مالكي، لأنه مشهور في مصر كثيرا، سأرى بعد ذلك في متحف الفن الحديث في طهران، وفي أصفهان أعمال كثيرة تجعل لوحات إيمان المشهورة ليست سوى أيقونات صغيرة تخبئ وراءها عوالم أكثر رحابة وجمالا.

صالة البيت واسعة، لا شيء فيها سوى سجاد كبير يغطي الأرض، وحوض واسع في الركن فيه أشجار متسلقة تكسو الجدار، وتتعلق بحافة نافذة في السقف، يدخل منها نور الشمس ليضيء الصالة كلها.

بدا البيت هادئا، تنبسط فيه النفس، حتى السجادة المفروشة كانت قليلة التفاصيل؛ مساحات واسعة من ألوان هادئة، من دون نقش أو زخرفة. وعلى الجدار لوحة بخط فارسي مكتوب فيها قول الله تعالى:

﴿وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون﴾

كانت الكلمات ممدودة، ومتراكبة، لا يمكن تبينها بسهولة لكنني استطعت قراءتها من حفظي للآية.

- تفضل.

- بيتكم جميل.

قالت رضوى: يميل الناس هنا للبساطة في كل شيء. البساطة جميلة.

أكمل زوجها:

- البيوت سماها العرب سكن، باسم الزوجة، الزوجة سكن، هل تسكن إلى امرأة كل شيء فيها مزدحم؟! صوتها، أو وجهها أو أخلاقها.

- لا.

- هكذا البيوت، لن تكون سكنا إذا كانت مزدحمة كأنها مخازن. رضوى أجمل سكن، هل تعرف أنه في أدبيات فارس القديمة كانوا يكنّون عن مصر بأرض السكر، وكانوا يسمون الفتاة الجميلة «مصري». ستجد هذا الاسم موجودا في السيدات الكبيرات في الريف، جيل أمي، أنا أعرف امرأة اسمها مصري، كانت جارتنا في كَرَج.

تركتنا رضوى لتحضَر ندى التي كانت منذ الصباح في بيت جيرانهم، وصحبني گنجيان ليريني بقية البيت.

يحكي:

«قضيت في السودان ثمان سنوات، أنهيت الدكتوراه، وعملت مدرسا للأدب العربي بعد ذلك في جامعة الخرطوم.

حاولت زيارة مصر كثيرا في تلك الفترة لكنني لم أستطع، كانت حرب العراق وإيران لا تزال عالقة في الأذهان، وحتى دخول جيش صدام إلى الكويت لم يكن كافيا ليتبين العرب أنهم وقفوا في الجهة الخاطئة. بقي ذلك الخوف الكبير من أي وجود إيراني في مصر».

- وهل زال الخوف الآن؟

- ليس بهذه السرعة. ليس مهما أن يزول الآن، المهم أن يزول يوما ما، سيأخذ وقتا بالتأكيد، العلاقة بين الفرس والعرب معقدة جدا.

- وما السبب في ذلك؟

- ربما نتحمل نحن جزءا لا بأس به، لكن العرب يتحملون أيضا أجزاء ليست قليلة.

- تاريخيا تقصد.

- وسياسيا أيضا. لا أحد يمكنه أن ينكر ما للتاريخ من تراكمات، فالفرس قبلوا الإسلام ولم يقبلوا السيطرة العربية.

لم يكن الفرس الذين حكموا أرضا وصلت إلى غرب أفريقيا، ليقبلوا حكاما عربا كانوا دائما عبيدا لهم. والصورة التي قدمها الأمويون لهذا الملك، منحت الفرس المبرر لذلك. ففي الوقت الذي كان الإسلام يتسرب فيه إلى نفوس الفرس، يفتحها برفق، كان الإقطاع العربي يزرع الضغينة في قلوب الأجيال التي آمنت والتي لم تؤمن، وهو ينزع الأرض، ويمنح الفاتحين امتيازا على المسلمين الجدد.

- أحيانا أشعر أن هذه أسباب وجدت بعد ذلك، لتبرر ما حدث. أكثر من كونها العلة الحقيقية لما حدث. بدليل أن العباسيين جاؤوا ليقدموا الجنس الفارسي على العرب، ومع ذلك زادت القطيعة، بل حدث أن بدأت الدول المحلية الفارسية تستعيد لغتها، وتروج لثقافتها ودعمها على حساب العربية التي كانت قد انتشرت حتى سمرقند وبخارى.

- وهل جاء الإسلام ليمحو لغات الشعوب، وثقافاتهم.

- بالطبع لا.

- إذن فليست هذه هي المشكلة.

- الفرس لم يتألقوا في ميدان الفكر إلا حين جاءهم الإسلام.

- صحيح، ولولا الفرس أيضا لخسر المسلمون الكثير من نموهم العقلي، ولاحتاجت دولتهم إلى وقت أطول لتبني بناءا قويا صالحا لإدارة المساحات الواسعة التي أدخلتها. كأن الدولة الساسانية لم توجد في التاريخ إلا لتهب الدولة العربية الوليدة كل آليات البقاء في عالم مضطرب.

- ذلك فضل الله، يؤتيه من يشاء.

ضحك گنجيان كثيرا، وهو يقول: «أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله»، أنت تذكرني بفقهاء بني أمية، الذين اعتبروا انتزاعهم للأمر من عليّ «فضل من الله».

ضحكت أنا أيضا، ولم يكن ضحكي مجاملة، بل ضحكا صادقا، صحيح أن تحت جلد هذا الرجل يكمن شيعي محمّل بكل ما في الشيعة من تراث لا يمكن أن يزول، إلا أن مودة حديثه، كانت تشعرني بمعنى جديد لم أكن قد أحسسته من قبل.

كنت دائما ما أسمع عن «أخوة الدين»، لكنني لأول مرة أدركها صافية في نفسي، عاطفة قوية، أكاد لا أخطئها، وتعجبت أن أشعر بها الآن وأنا إلى جوار شيعيّ ينبغي ألا أثق فيه.

كان حبّ هذا الرجل قد بدأ يتسلل إلى قلبي، قضينا الليلة ننتقل من موضوع إلى آخر، حدثني عن سنوات الثورة الإسلامية في إيران، عن الشباب الذين كانت تسري فيهم تسجيلات الخميني القادمة من وراء البحار. عن السافاك، وجرائمه التي لم تكن تزيد الثائرين إلا حمية وإصرارا.

طهران تحمل الكثير من أسماء الشهداء الذين سقطوا في حرب العراق في شوارعها، حتى يمكن أن أسميها مدينة الشهداء. الشيعة لا يعيشون إلا على اجترار سِير المظلومين والشهداء، مذهبهم قائم على «المظلومية» والانتصار للمظلوم. سيمنح هذا الأمرُ المذهبَ قوة حين يريد، وسيُستخدم في أغراضٍ كثيرة في التاريخ، لكنه سينقلب عليه كثيرا أيضا.

رغم ذلك سَمَيّتُ طهران مدينة البساتين، بساتينها أصْدَق في نفسي من شهدائها، وما من حي زرته إلا وفيه متنزه واسع، كثيف الشجر، كبساتين الحكايات الفارسية القديمة، لا سور له ولا تذاكر. الماء يجري حول أشجاره بخرير لا ينقطع، والظل يحوّل حرّ طهران إلى نسيم رقيق.

أزور بَازْك مِلّتْ، مع گنجيان بعد أن نقطع شارع ولي العصر أطول شوارع طهران. ولي العصر أو ولي الزمان، هو الإمام المتمم للإثني عشر إماما يتبع الناس ذكره بعبارة «عجل الله فرجه»، فمنذ اختفى في السرداب ولم يظهر والشيعة الإمامية تنتظره.

نقف أمام تمثال الفردوسي في ميدانه، نفس التمثال في الفندق الذي أنزِل فيه لكنه أكبر، واقف يراقب السيارات التي تدور حوله.

قلت لگنجيان: يبدو غاضبا؟!

- لأن عمره الذي قضاه في كتابة الشاهنامة، هذا الكتاب الكبير الذي يحمله في يده، انتهت إلى زوال. غضب عليه السلطان محمود الغزنوي الذي كلفه بكتابته، تركه وهرب إلى مازندران وألحق بكتابه مدحا لواليها الذي أكرمه لكنه كان أضعف من أن يحميه من الأمير الغزنوي، ترك مازندران إلى بغداد، ولم يكن كتابه ليروج فيها، فالخليفة لن يرضى عن كتاب يمجد ملوك المجوس ويُعلي قدرهم فوق العرب، ولو رضي الخليفة، فلن يروج الكتاب خارج القصر بين الناس... في بغداد نظم حكاية «يوسف وزليخة» من خمسة آلاف بيت، فراجت وكفلت له عيشا كريما. رغم ذلك لم ينس أبدا حسرته على كتابه الذي أمضى فيه أعواما طويلة.

- تقصد أن الفردوسي كتب الشاهنامة تكسبا؟!

- بالطبع نعم .. من أين يعيش الكتاب والشعراء والعلماء إن لم يكن في عملهم باب للتكسب.. التكسّب في ذاته ليس عيبا.. العيب فيما يقدمه الشاعر لأجل ذلك.. لنأخذ شاعرا عربيا كان يكتب الشعر للتكسب

أيضـــا، أبو نواس مثـلا.. برأيي أنا أنّ أبا نواس أشـعر من الفردوسي، بل وأشـعر من حافظ شـيرازي.. أبو نـواس كان فنانا، عالما بتاريخ العرب وبأنسـابها.. اقرأ قصيدته: «واهج نزار وافر جلدتها .. وهتك الستر عن مثالبها» تجد رجلا يعرف تاريخ كل قبـيلة من قبائل العرب، وأيامها، لكنه استعملها في مديح أو هجاء لا قيمة له.. اقرأ وصفه للخمر.. لا تستطيع إلا أن تُبهَر بما كان لديه من ملكة شعرية عالية.. أي شيء قدم هذا الشاعر لأمته بهذه الموهبة غير أبيات المجون.. شـاعر نصف شعره في الخمر التي يحرمها دينه، ويراها مجتمعه الذي يعيش فيه غريبة غير مألوفة.. إذا كانت فرنسا وهي بلد الخمور لما ظهر فيها شـاعر فاسد الطبع مغرق في إباحيته هـو رامبـو واجتمع حوله بودلير وبـول ماري فرلين، نفـرَ منهم المجتمع الفرنسي وسـماهم النـاس الشـعراء الملاعـين.. maudits poetes les .. الشاعر الذي لا يبني بشعره أمته شـاعر ملعون.

- ربما لم يبْنِ الفردوسي تاريخ أمته لشيء سـوى الذهب الذي أغراه به الوزير، أنت قلت ذلك.. ولو طلب منه أن يكتب للعرب شيئا يشبه الشاهنامة وله به عطيّة ما امتنع. ثم هناك شعراء كثيرون من العرب تركوا شعرا عظيما في أشياء كثيرة غير الخمر والمجون.

- من؟

- كثير..

- مـن الكثير؟ المتنبي؟!.. الذي أضاع مـا مُنحه من حكمة وبيان في البحث عن منصب تافه في دولة تافهة، وأي شيء كانت دولة الحمدانيين حتـى يضيـع لأجلها نفســه، أمْ أبو تمام الذي مدح المعتصم بقوله: «سـور القـرآن الغـر فيكـم أنزلـت.. ولكم تصـاغ محاسـن الأشـعار» ... وهل أنزل القرآن في أمثال أبي العباس السـفاح وأبـو جعفر المنصور. هؤلاء يا صديقي ضيعوا أمانة الكلمة.. وكل شيء قـد يغفر للكاتب في الدنيا إلا إضاعـة هذه الأمانة.. خطـأ الطبيـب يواريه التراب، أما الكلمة الفاسـدة فإنها تفسـد حياة كاملة.

أسـمعه وأنا أتأمل وجه الفردوسي، أحـاول أن أتبين صواب حديثه مـن خطئه في ملامح وجه التمثـال الذي ازداد غضبه، زادت التعاريج في زاويتـي عينيه، وخطوط جبينه المقطب، وبدت السـنون على وجهه. ربما ليس غاضبا على أجره الذي لم يأخذه عن الكتاب!، ألن أغضب أنا إن كنت شيئا بذلت فيه وقتي، ومنحته من نفسي، ثم مر كأنه ما كان.

«أنـت حزين يا أبا القاسم؟ لم أشأ أن أخطئ في حقك، لكنه تجنى على شـعراء العرب، ألم تغضـب أنـت ممـا قاله عنهم؟! لعلها أصوات هذه السـيارات هي ما يزعجك؟ أليس كذلك».

منـذ تمنى البيروني أمام الفردوسي هـذه الأمنية، **«أن تتحرك العربات من ذاتها دون أن تجرها الحيوانات»** وهـو يترك خيال الشـاعر يرحل في تصـور كيف يكون ذلك.

ستحتاج هذه الآلات إلى أرواح تحركها بالتأكيد.

أما البيروني، فلم يكن له خيال شـاعر، بل عقل باحث يعرف أن كل شيء موجود في هذا العالم، ينتظر فقط من يكشف الغطاء عنه، وما دامت هذه الفكرة قد واته فهي حقيقة تنتظر بحثه.

لكنه قانون الحركة، الذي وضعه صديقه ابن سينا، قبل أن يفكر فيها نيوتن بقرون طويلة، ما من متحرك إلا وهناك قوة تحركه.

«إنك لتعلم أن الجسـم إذا خُلي وطباعه، ولم يَعْرِضْ له من خارج تأثيرٌ غريـبٌ، لم يكن له بُدٌّ من موضع معين وشـكل معيَن، فـإن في طباعهُ مـبدأ اسـتيجاب ذلك، وليـسـت المعاوقة للجسـم بما هو جسـم، بل بمعنىً فيه يطلب البقاء على حاله».

كيـف يمكن أن تنبعث القـوة من داخل العربة، بغير مؤثر خارجي إذن، وفيها معنى يطلب البقاء على حالها من السـكون.

في «بـارْك لاله»، تمثـال للبيروني، يلعب فيه بالأجرام السـماوية لعب الحواة، يـادلها بين يديه وهو ينظر للسـماء.

سفَره الطويل منحه معرفة الكواكب والنجوم لكنه لم يمنحه الوقت للبحث في علم الحيَل حتى يصل إلى شيء مما تمنى. بدأ بحثه عن القوى التي تمنح الحركة، اكتشف أن للأرض قوة تجذب الأشياء إليها، وإلا فوفق قانون ابن سينا، تظل الكرة معلقة في الجو إذا رفعناها ثم تركناها. الأرض تشد الكون إليها لقوة في طبعها.

ما تركه أبناء موسى بن شاكر في بغداد يغريه بالبحث، كانوا قد صنعوا مصباحا لا ينطفئ في الرياح، وآخر يخرج فتيله وحده، ويصب الزيت وحده، ويشعل النار وحده، وبنوا في قصر المأمون نافورة يفيض الماء منها على هيئة الترس زماناً، ثم يتغير شكله ويفيض على هيئة الرمح زماناً مساويا له.

إنه انبعاث الحركة، من دون محرك ظاهر. الحلم الذي راود الصناع منذ القدم، تحقق في بغداد.

الحلم الذي قام لأجله «علم الحيل» كله، ضاماً هندسة الأشكال والمخروطات، وهندسة المساحة، وهندسة البصريَّات، وهندسة الحركة، سيحققه أيضا مهندسٌ آخر بعد ذلك في الأندلس، اسمه «ابن خلف المرادي» حين يصنع حاملا لمصحف نادر، يُفتح وحده، ويخرج المصحف وحده، لئلا يتمزق من كثرة مس الأيدي، سيرينا هذا الرجل في كتابه «الأسرار في نتائج الأفكار» حيلة حرك بها جدران مقصورة الخليفة في قصر جبل طارق آليا، بحجرة محركات ملحقة بها.

في نفس الوقت، وفي ديار بكر سيصنع المهندس أبو العز بن إسماعيل الرزاز المعروف بالجزري دُمية علَى شكل غلام، على عمامته عصفور، وبيده إبريق وفي الأخرى منشفة، فإذا حان وقت الصلاة صفَّر العصفور، فإذا أقبل عليه سيده، صبَّ له الماء حتى يتوضأ، ثم مدّ يده بالمنشفة، والعصفور يغردُ حتى ينتهي من وضوئه.

حيلة أبي العز الجزري، تبدو وهما يعجز تصديقه، لكننا نعلم أن

ساعات تحمل العصافير، كانت تقذف الحجر على أقراص من النحاس عند كل ساعة، فيرن صوتها في قصر هارون الرشيد.

أقرب المتاحف لبارك لاله هو متحف الفن الحديث، بوابته في الحديقة، وبعده مباشرة متحف السجاد. لم نستطع زيارة متحف الفن لأنه كان مغلقا لأعمال الصيانة الأسبوعية، فزرنا متحف السجاد «موزه فرش».

«فرشٌ» عربية، و«موزه» من متحف بالإنجليزية، واجتماعهما معا جعلهما فارسيتين. هذا يحدث كثيرا في اللغة الفارسية الحديثة، مفردات من العربية والتركية والإنجليزية تستقر بسهولة في الجمل الفارسية، وتجعل هذه اللغة خليطا إنسانيا فريدا، في بلادَ يُصرُّ العالم على عزلها في كل مناسبة ممكنة، وتجاهد هي ببسالة لتضع اسمها في مكان لائق في كل مكان.

في المتحف كانت السجاجيد معلقة على الجدران، مِن الصوف ومن الحرير ومن القطن، عليها زخارفُ نباتية وتصاويرُ تحكِي تاريخ إيران، وعلى اليمين كانت هناك سجادة كبيرة رُسِمت عليها وجوه بعض مشاهير العالم وقت نسجها؛ عرفت منهم السلطان عِبد الحميد، وعبّاس حلمي، وجورج واشنطن، وتومس أديسون. وككل معروضات المتاحف في إيران كانت تواريخ القطع كلها عائدةٌ إلى العهدين القاجاري والصفوي من قبله، ولا شيء للعهد البهلوي.

جذبتني سجادة من الحرير الأزرق، ألوانها زاهية، عليها طواويس وأزهار زاهية، تتشابك الأغصان، والطواويس، حتى تخف الألوان في أحد أطرافها، من فعل السنين وأقدام الذين ساروا عليها.

تخيلتها مفروشة على الأرض في قاعة من قاعات «كاخ گلستان"، "قصر أرض الورود"، والأميرة فوزية أخت الملك فاروق تخطو عليها خطواتها الأولى امبراطورة لإيران.

أخبرني كنجيان أن أحد ميادين طهران حمل اسمها أيام كانت زوجة للشاه. وسأرى بعد ذلك في متحف المجوهرات طاولة صغيرة عليها خريطة العالم القديم تظهر فيها إيران والجزيرة وبلاد الشام والعراق، ومصر وشمال أفريقيا، وفي ركنها صورة للشاه الشاب محمد رضا بهلوي مع الأميرة فوزية.

لم يدم هذا الزواج سوى أربع سنوات، عادت بعدها «فوزيّة» إلى القاهرة، ليتزوج بعدها «ثريّا»، الفاتنة التي ملأت صحف الخمسينيات، سحرا، وفتنة، وترفا، وغلبت حكاياتها الحقيقية والموضوعة أساطير الأميرات في التراث الفارسي كله، حتى امتنع الشاه عن إرسال ورداته الستين التي كان يرسلها لزوجته كل صباح، ونشرت الصحف خبر «طلاق الأميرة ذات العينين الحزينتين» طلبًا لولي العهد الذي لم يُكتَب له الجلوس على عرش إيران أبدا.

ختمْنا اليوم في متحف طهران الوطني، وهو متحفٌ مخصص لتاريخ إيران قبل الإسلام مكتوب على بابه بخط الثلث:

«أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون».

وإلى جواره مباشرة، في نفس الحديقة، متحف إيران في العهد الإسلامي، وعلى بابه مكتوب: «لو كان العلم في الثُّريا لحازه رجال من فارس». حديث شريف.

* * *

تابلو شماره ٢

تجلس ندى عند النافذة الكبيرة المطلة على الحديقة.

رذاذ المطر يجعل الصورة من خلفها متماوجة. ألوانٌ ذائبة يرحل فيها الأخضر حرا بلا حدود. لم تكن هذه أوقات مطر في طهران، مطر الصيف يحمل فرحين، فرح المطر، وفرح المفاجأة.

بقيت ندى متعلقة بطبق كرز كبير، تمسك الواحدة تنزع عنها عنقها الصغيرة، وتمسحها بمنديل، ثم تضعها في حجرها. منهمكة في عملها وعلى وجهها علامات اهتمام بالغ، لا يصرفه صوت المطر، ولا إغلاقي للتلفزيون الذي شغلته.

بدا وجهها الذي خلا من كل انفعالٍ سوى علامات الاهتمام، أكثر نعومة كأنه سماء صافية لا شتات فيها. أصدّق أن الأطفال حين يلعبون منفردين، فإن الملائكة تكون معهم، تحرسهم وتلاعبهم، وإلا فمن أين تأتيهم هذه السكينة.

لا أشعر بالوقت وأنا أراقبها، وصوت المطر يطرق النافذة خفيفا. حتى تحين منها التفاتة إليّ، فيتغير وجهها إلى ابتسامة عذبة. تجمعُ حجرها، وتنزل من النافذة مسرعة نحوي.

تجلس ناشرة ثوبها سحابة واسعة حولها، وتمسك حبة الكرز وتقول: گيلاس.

أرد لها: گيلاس.

ثم أقول أنا بالعربية كرز، فتقول كرز.

دخل گنجيان وأنا أردد اسم الكرز بالفارسية.

- ندى تعلمني الفارسية.

- كانت أمها حريصة على أن تعلمها الفارسية، وكنت حريصا على أن تتعلم العربية.

- وهل يكون يسيرا على الأطفال تعلم لغتين في مثل هذه السن الصغيرة؟

- كانت تخلط أول الأمر الكلمات، تتحدث بلغة لا يفهمها إلا أنا وأمها، مزيج بلا قواعد من العربية والفارسية. كانت تتعامل معهما كأنهما لغة واحدة واسعة، وحين بدأت تتعلم القراءة والكتابة، كان الأمر يسيرا، فهي نفس الحروف، بنفس الرسم .. قيمة العقل في قدرته على ترتيب العالم، واللغة هي إحدى صور هذه القدرة، ربما لم يكن البشر مدركين لذلك حين بدؤوا وضع قواعدها، كانت عقولهم قد رتبت اللغة فعلا من حيث لا يشعرون على أمثل صورة. تماما كما يفعل الخطاطون حين يستقر الحرف على أفضل نسبة له، هل تعرف لماذا تكتب الصاد مثلا في الخط الثلث تصعد ثلاث نقاط وتهبط نقطتين، ويكون ارتفاعها نقطة ونصف .. من الذي فرض على الناس هذه الصورة؟ لا أحد، لا أحد يستطيع أن يفرض شيئا على الناس في أمر خاضع بالأساس للذوق، الذي فرضه هو قانون النسبة الفاضلة، هي النسبة التي إن تغير أي جزء فيها، فسدت كلها. صورة من صور الكمال التي لا مزيد بعدها.

هكذا اللغة. لماذا أقول هذا.. نعم.. لأجل أن أقول لك إن قليلين من اتّزنت عقولهم بلُغتين في وقت واحد. قليلون نالوا حظ هذه الفتاة من إدراك أن الاختلاف في الدنيا ليس إلا صورا واهية لأشياء ليست موجودة. ستذكر أيامها في مصر والعراق وإيران، وستجد نفسها متحمسة لأجناس ثلاثة، الفرس والكُرد والعرب، سيكون لها أوطان كثيرة. لن تفكر كما يفكر العرب، ولا كما يفكر الفرس، ستفكر بصورة تجمع النسبة الفاضلة من كلا العقلين معا.

- ممم.. النسبة الفاضلة من كلا العقلين!! نظريتك صعبة يعجز عقلي منفرد اللغة

عن فهمها. أنت ترى إذن حتى نحل مشاكلنا العرقية والطائفية علينا أن ننجب أطفالا لا يعرفون لأي شيء ينتمون، أبناء هذا العالم الواسع، لا لغة، ولا تاريخ أليس كذلك؟!

- أنت إلى أي القوميات تنتسب؟.. بدا سؤاله متهكما كعبارتي السابقة فأجبته:

- المصرية.

- إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم، ما أنزل الله بها من سلطان. وهل تدخل الجنة بمصريتك؟

- لا.

- ولو افترضنا انقراض المصريين من الدنيا، هل سيقف العالم؟

- نعم. قلتها وضحكت.

- بالطبع لا. لا مصريتك ولا فارسيتي.. ولا أيا من أجناس هذه الدنيا، تعني شيئا لهذا العالم.

دونت سؤالا ألح عليّ، لم أُرِدْ أن أطرحه عليه لئلا أسمع محاضرة من محاضراته الطويلة، سأسأله لوردٍ، حين أبدأ الكتابة من جديد: «لم خلق الله الناس كثيرين ومختلفين هكذا»؟..

- هل تريد أن تخرج قليلا.

- في هذا الجو؟

- المطر خفيف، وسيقف سريعا. جئت في الصيف فلا تحرم نفسك رؤية طهران في الشتاء.

لم يكن شتاءً، كان الجو غائما، ولكنه لم يكن باردا.

الشوارع مبلولة، والناس متجمعين على الأرصفة تحت مظلات الدكاكين.

المطر جميل في أي مكان. لا تستطيع أن تقول عن مكان أنك عرفته ما لم تكن قد سرت فيه تحت المطر، تاركا أذنيك تجمع الماء الساقط على الأرض، ثم تاركا روحك بعد ذلك تنبعث من جديد وأنت تملأ صدرك بالهواء إذا وقف المطر.

أفتح نافذة السيارة وأمد يدي إلى الماء، ونحن نتحرك في شارع كارگر حتى نصل إلى ميدان الثورة «ساحه انقلاب»، قبة محطة المترو هي الميدان، الذي ندور حوله لندخل إلى شارع انقلاب، تكون محطة الحافلات السريعة إلى يسارنا، بعد محطة واحدة نصل إلى جامعة طهران.

يترك السيارة في شارع صغير، ونخرج.

بلاط الرصيف غسله المطر، كما غسل الشارع، فبدت قطع الحجارة البيضاء فيه لامعة كأنها نجوم.

قال:

«هنا أكبر سوق للكتب في طهران، لموقعه القريب من الجامعة».

كانت المكتبات متتابعة على كلا الجانبين، وبامتداد المسافة بين محطتي الجامعة وميدان الثورة الإسلامية. أكثر المكتبات تشترك في وضع دواوين حافظ والسعدي والخيام في واجهاتها، مترجمة إلى لغات كثيرة لم يكن من بينها العربية.

وللتأكد سألت عن ترجمات بالعربية فلم أجد.

يقول رجل في مكتبة: «ربما تجد في مكتبات كذا وكذا كتبا عربية».

يجيبني گنجيان: هذه مكتبات تهتم بنشر المذهب الشيعي، فأكثر الكتب العربية التي ستجدها هناك من هذا النوع.

يعرفني على ما يتوارد لنا من أسماء، ونحن نتجول بين الكتب.

«هذا عبد الكريم سروش» يمد لي يده بكتاب معه.
اسم الكتاب «اخلاق خدايان».
«هذا الرجل هو المعادل الموضوعي لنصر حامد أبو زيد عندكم».
أفاجأ أنني لا أعرف الكثير عن نصر حامد أبو زيد، لأجيبه، فأهز رأسي.
«كان مفكرا شيعيا وهو الآن مفكر حر».
طلبت منه أن يختار لي من كتبه كتابين، أتعلم معهما الفارسية.
«لغته فاخرة، وأنا أثق أنك ستعلمها منه سريعا».
أعطاني مع كتاب أخلاق الآلهة، كتابا عنوانه «صراطهاى مستقيم»، يعني الطرق القويمة.
يريد عبد الكريم، كما أراد من قبله جلال الدين وكما أراد كل السائرين أن يخبروا الناس أنه ما من شيء يستحق التناحر، فمن سار وصل. والطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق.
أسأل عن كتابات عربية مترجمة للفارسية.
«قليل، لدي ليوسف إدريس رواية واحدة فقط، قديمة».
كنا قد دخلنا سوقا كبيرة من ثلاثة طوابق، ليس فيها سوى المكتبات. ومحلات تبيع مصورات للوحات الفنانين الإيرانيين المشهورين، وفيها محلات لأدوات الكتابة والرسم.
أبتهج لمرأى الكتب كثيرا، وفي صحن هذه السوق دمعت عيني فرحا بما حولي. أي روح جميلة تسكن الكتب المرتبة في مكتبة!
كتب، ولوحات، وموسيقى تصدح من بين المكتبات.
أقول لگنجيان: تشترون الكتب من هنا؟
- نعم.

- نحن نشتري الكتب من الأزبكية، حيث الشمس والتراب، وباعة أصواتهم عالية.

- تعال.. سأريك شيئا.

قادني إلى ركن كانت فيه مجموعة من الكتب، متشابهة الأغلفة، تنبهت إلى أنها كتب سيد قطب حين وجدت «ظلال القرآن» مكتوبة على كعبها.

«آفرينش هنرى در قرآن».

«ويژگى‌هاى ايدئولوژى اسلامى».

حتى رواياته غير المشهورة، «أشواك، والمدينة المسحور وطفل القرية»، وجدتها بين الكتب.

فرَحتُ كأنني وجدت مصر كلها حاضرة أمامي، سيضحك گنجيان بالتأكيد حين أقول له ذلك وهو الذي لم يفتأ يتحدث عن أن الأجناس ليست إلا صورا واهية.

ربما هي صور واهية، لكن من قال إن الخيالات لا تؤثر فينا. ابن سينا نفسه يقول ذلك، ألا يثار الرجل لمجرد تخيل امرأة جميلة لا وجود لها، هذه حجته وأنا أصدقها.

«الظلال والتصوير الفني في القرآن، وخصائص العقيدة الإسلامية».

هذه مصر، حاضرة في عقل طهران.

«عرفنا كتب سيد قطب أيام الثورة، كان المحركون لها يحتاجون إلى مثل هذه القراءات الثورية للإسلام، ترجمت كتبه إلى الفارسية، وسارت بين الشباب تخرج مكنون عواطفهم.

المسلمون تغلبهم العواطف خلال تاريخهم كله، لا مكان للعقل في أفعالهم».

أقـول في نفسي: «هـدم فكرة الأجناس وسـيهدم الآن فكـرة الدين. غنّي يا وحيد»!

يُكمل: «كان الفكر الشـيعي، القائم بالأساس عـلى الثورة، ورفض الواقـع قـد دُجِّـن، وفَقَد الكثـير من حريتـه. الدين في أصلـه فعل ثوري يرفض كل رتابة وتحجر.

الأنبياء بالأســاس كانوا ثوارا، يغـذون أتباعهم برؤية نقدية حيال ما يحيط بهم من بيئة مادية أو معنوية.

الدين لا يبحث عن مبررات للأوضـاع القائمة، إنه يرفض فسـادها، ويقـف بوجهه، من أجل ذلك كان وقوف النـاس بوجه الأديان الجديدة مشـتركا خلال كل التاريخ».

«خذلنـي!! لم يهدم فكـرة الدين، يقيـمها فقط بشــكل آخر، يصرّ هذا الرجل على مفاجأتي دائما».. عدت أسمعه:

«ليـس من ديـن إلا جاء ناقدا لديـن قبله، حتى المشركـين كانوا أهل دين. لم يكونوا كفارا بمعنى إنكارهم لوجود الإله، وحتى في أكثر المناطق خرافة وشركا هنـاك في كل نفس يقين ما بخالق غير معلوم.

مأساة الأديان حين تعامل بها البشـر، أنهم اسـتعملوها لفرض أوضـاع وإقرارها. فأهل الســيادة رأوا أن بسـط توفير حماية غيبية لهم هي الضـامن لبقاء سيادتهم.

هذا ما حدث في مكّة، وهذا ما حدث حين تحولت الزرادشتية إلى دين رســمي، بعد أن كانـت حركة ثورية رافضة، ثم أصبح الكهنة مسـيطرين على الحكام الأكاسرة.

جـاءت الثورة لتفجر الفكر الشـيعي من جديد، وتعيـد إليه ثوريته، ونجحت.

بثت الحياة في جيل كامل، لكنها فوجئت أن نظاما جديدا يستحوذ على كل شيء.

تحولت الحركة الثورية التي تربي العقل الناقد، إلى نظام. ككل حركة معارضة حين تستقر لها الأوضاع. وللنظام حسابات غير حسابات الحركة. يتحول إلى النمطية، و يصبح تأمين جانبه هو أحد أولوياته.

تاريخ واحد مكرر، لأجل ذلك لابد ألا تخلو الأرض من الثوار، الناقدين، الرافضين.

- الثوار كالهواء، إن سكن متنا حرا، وإن هاج، هلكنا.

بعد ساعتين من التجول بين الكتب، خرجت بديوان حافظ وكتابيْ سروش، وجوع شديد. سألني أين تريد أن تذهب.

- طهران كلها بساتين، وتسألني أين أريد أن أذهب!

- نذهب إلى الجبل، لم تخبرني ماذا تريد أن تفعل هنا؟

- جئت أرى الأرض التي عاش عليها ابن سينا حياته.

- لا أعرف كيف يمكنني أن أساعدك، لكنني أعرف أستاذا كان معنا، يقيم في كرمان شاه، هي قرية من همذان، يعرف العربية، ربما يمكنه أن يصحبك إليها.

- وأين تقع كرمان شاه؟

- محافظة كردية في الغرب، قرب العراق.

***

في المساء كنا في الحافلة المسافرة إلى كرمانشاه.

التقينا في ميدان آزادي قرب محطة الحافلات.

«سأصحبك إلى هناك وأعود أنا في الصباح»

«يمكنني تدبر الأمر وحدي، لا تتعب نفسك»

- ليس بهذه السهولة، في قناة الجزيرة يقول المذيع «كن على حذر فأنت في حضرة الشعب المصري»، وأنا أقول لك هنا «كن على حذر فأنت في حضرة الشعب الإيراني»، لا تسرف في ثقتك كثيرا.

في محطة حافلات طهران، «تيرمينال تيهران» كانت أصوات السائقين، والحمالين، تنادي بأسماء المدن. إلى شيراز، وأصفهان، أردبيل.

تحركت الحافلة في موعدها، وكنت متعبا من طول اليوم، فلم يطل الحديث بيننا كثيرا، أرحت رأسي على زجاج النافذة وجاءني النوم بسرعة.

أحبُّ النوم في السفر الطويل، النوم يقطع الطريق الممل. وخصوصا في المساء حيث تكون الطرق كلها متشابهة من نوافذ الحافلات.

أحلام قصيرة يقطعها توقف الحافلة المتكرر في المدن التي نمر عليها، اسمع نداء السائق باسم المدينة، وأشعر ببعض الركاب ينزلون، ثم نتحرك من جديد.

عندما بدأ الضوء يكشف ما حولنا، كانت الأرض ممتدة بلون الذهب على جانب الطريق، مروج تموج ارتفاعا وانخفاضا، يصل القمح الذهبي المزهو إلى حافة الجبال البعيدة، ثم يصعد جزءا منها. يحرك الهواء قممه، كأنها أمواجٌ ناعمة على سطح بحر هادئ. تبدو القطع التي حُصدت ندوبا في وجه الأرض الفرحة بسنابلها.

- أين نحن؟

- جاوزنا همدان، وبقيت لنا ثلاث ساعات إلى كرمانشاه.

- بلادكم واسعة جدا!!

- نعم، لو فكرت أن تسافر إلى طوس «مشهد» حيث قبر الإمام الرضا، وقبر هارون الرشيد، فستقطع سبع عشرة ساعة في الطريق بالقطار.

- كيف كانت الجيوش تقطع هذه المسافات إذن؟

قطع حديثي وهو يشير إلى النافذة: انظر إلى هذا.

كانت الحافلة تدور صاعدة الجبل، وتختفي الحقول الممتدة عن يسارنا خلف قمم الجبال الصغيرة، تبدو القمم مهيبة، شامخة، ومع استمرار دوران الحافلة تتجاوز القمم، ويظهر الوادي من جديد.

وكأنها أرض مسحورة، ولدت فجأة في الصحراء، بساط القمح يكسو كل شيء، وشمس الشروق، تلونه، فيزيد توهج الحياة فيه، كوجه عروس فاتنة. والمدينة النائمة بين القمح، كأنها تسبح فوقه، تتمايل كلما تمايل.

كان المشهد من أعلى الجبل مهيبا، ورائعا. أخرجت الكاميرا وقربتها من زجاج النافذة وتركتها تصور ما تراه.

- هذه مدينة كنگاور. بعد قليل نصل إلى صحنة، المدينة التي قتل فيها نظام الملك.

هنا لابد للتاريخ أن يصحبنا أينما سرنا. خلف كل تل من هذه التلال حكايات لا تنتهي.

سيولد بعد وفاة ابن سينا بعامين، رجل سيظل ذكره يملأ كتب التاريخ، وسيبقى سره غامضا ككثير من الرجال الذين يولدون هنا.

في الري، ومن أسرة اثني عشرية، سيولد حسن بن علي بن محمد الصباح الحميري، وفي صحنة بعد تاريخ مولده بخمسين سنة، سيغمد فدائي من أتباعه خنجره في صدر نظام الملك، الوزير السلجوقي الذي حفظت مدارسه النظامية اسمه في بغداد وفي فارس، في مشهد من الناس، بعد الإفطار في رمضان.

وقبل أن يغادر مكانه، سيكون نفس الخنجر الذي قتل به الوزير قد قتله. ليعم الخبر المدينة والمدن التي حولها، وليغدو الفدائي الذي لم يخش الموت وضحى بنفسه ليقتل الوزير، بطلا تحكى سيرته في كل البيوت.

هكذا قدَّر الأمير حسن الصباح، وهو يخطط لضربته الكبيرة التي تجعل سيرته في كل بيت، وتمهد لدعوته أكثر وأكثر، بعد أن طاف بلاد إيران كلها، من شمالها إلى جنوبها، وإلى غربها، على حدود أفغانستان، ينشر مذهبه، ويجمع أتباعه. وليعلن بعد اغتيال نظام الملك أنه بموت هذا الشيطان، ستولد البركة، وتعم بلاد المسلمين.

لا يسفر «الصبّاح» في المدن أبدا، تستره الصحراء، وأفكاره، وثياب النساك والصوفية، وأحيانا لسان الحكيم المجادل، الذي اكتسبهُ من مدرسة الفكر الفاطمي في القاهرة.

سنوات قضاها هناك، تعلم فيها المنطق والجدل، ومهارات تسيير الجموع، وآليات الدعاية، والتنظيم. ثم أقسم قسم الولاء، ليسير بدعوته يفتح بها نفوس الناقمين على السلاجقة الحاكمين، وأولئك القلقين الذين لا يعرفون مستقرا لأرواحهم.

في كل عصر، ناقمون. ولكل فكرة أعداء بعضهم صامت وبعضهم عامل، وغاية العامل أن يخرج الساكتين عن سكوتهم، فتصبح بيده القوة التي تهز أي كيان.

وفي كل عصر قلقون، تهيم أرواحهم على غير هدى. وهؤلاء إن أمكن بث الطمأنينة في نفوسهم، فهم زاد لمن فعل ذلك يفعل بهم ما يريد.

وقد كان الصبّاح بارعا في منح مريديه الطمأنينة التي يبحثون عنها. فليست كل الدعوة عمل، وليس كل المدعوين يناسبهم العمل. والداعي الحاذق من يعرف أي بضاعته يناسب مريده.

بعد رحلته في الصحراء، آن للشيخ صاحب الدعوة الجديدة أن يستقر، وفي قلعة «عش النسر، آلوه آموت» القديمة، كان قراره، خمسا وثلاثين سنة كاملة. يحرك منها كل فِرَقِه في صحاري إيران الشاسعة.

تُلاقي فرقه المسلحة جيوش السلاجقة، في مواقع كثيرة. تسير رسائله وكتبه، ودعاته، إلى أقصى الشرق حتى أفغانستان.

بعد سنوات يموت الخليفة الفاطمي المستنصر بالله في القاهرة، ويكون الخلاف على الإمامة بين ولديه، نزار والمستعلي. وينقسم الفاطميون إلى نزارية مشارقة، ومستعلية مغاربة. يتولى الصبّاح الدعوة لنزار بن المستنصر إماما، فلا يلبث نزار حتى يموت في سجنه بالإسكندرية.

كلما مات في الظلم إمام، تفجرت بموته الطوائف تدعو له، وتستتر بدمه وظلومته. انشق الصبّاح عن الفاطميين في القاهرة، وأصبحوا أعداءه تماما كالدولة العباسية، ووصلت اغتيالاته إلى وزرائهم في القاهرة، حتى احتفل سبعة أيام كاملة باغتيال الوزير الأفضل قائد جيوش القاهرة.

فشلت كل الجيوش في اقتحام عش النسر، انكسرت أمام الجبل الأشم، والأسوار المنيعة، والنفوس المؤمنة حتى جاء هولاكو وهو في طريقه إلى بغداد، فلم يبق منها شيء سوى جدرانها شاهدة عليها. أما الأوراق والوثائق التي تحكي حكايات الرعب التي سكنت بين هذه الجدران، فتحولت كلها إلى رماد، تذروه الرياحُ، وأجنحةُ النسور الحائمة فوقها.

أدوّن في مفكرتي: «ليست الجماعات الفكرية المسلحة بدعا في حياتنا، ليست سوى امتداد أصيل من تاريخنا الذي لا نعرفه، وربما إنْ بحثتُ أكثر أجدها إحدى لوازم الدنيا في كل مجتمع وزمان».

***

تابلو شماره ٣

وصلنا إلى كرمانشاه قبل الجمعة بثلاث ساعات.

في التاسعة كان سيد جليل ينتظرنا في محطة الحافلات. رجل قصير، يرتدي ثيابا تشبه ثياب الفلاحين السوريين في المسلسلات القديمة؛ سروالٌ واسع، وسترةٌ ونطاقٌ من القطيفة حول الوسط.

شعره طويل، وسطٌ بين السواد والبياض، كلون الرماد المحروق.

سلّم على گنجيان، الذي عرفه عليّ.

يتأخر قليلا قبل أن ينطق بأوائل الجمل، كأنه يجمعها في ذهنه قبل أن ينطقها، يتحدث العربية الفصحى، بلا لكنات ظاهرة. ربما لأنه لم يعمل خارج إيران، تعلم اللغة من الكتب، لذا يتأخر قليلا في الحديث، ولا يفهمني إن تحدثت بسرعة. حين نذهب إلى بيته سأرى كتب سيد قطب في مكتبه، وأرى الكامل في التاريخ وتاريخ الذهبي، وسير أعلام النبلاء. سأرى مكتبة عامرة بكثير من الكتب التي نسمع عنها، بالعربية، ومترجمة إلى الفارسية و العكس.

تتحرك السيارة في طريق أخضر، أنشغل بتصويره، وهما يتحدثان معا بالفارسية، ألحظ من بين الكلام عبارة «نابغه ايراني بو علي سينا»، فأعرف أنه يحدثه عما جئت لأجله.

- ألم تجمع ما يكفي من صور الطرق، ستختلط عليك بعد ذلك ..

يقولها گنجيان وهو يضحك.

- أعرف أن الصور لا تغني شيئا،لم أكن أحبها من قبل، ليست إلا محاولة متورة للخلود، لكن ماذا أفعل ونحن مولعون بجمع الأشياء الجميلة حولنا. خصوصا تلك التي لابد لنا من فقدها.

توقفت السيارة في ساحة واسعة، تحت جبل، نزلنا وتركت حقيبتي في السيارة. قال سيد جليل وهو يشير إلى الجبل: هنا أحد آثار كرمان شاه. هل تعرف أسطورة شيرين وفرهاد؟

- لا.

- هما كقيس وليلى، قصة حب أميرة فارسية، يتناقلها الناس هنا بالكردية، ونظمها شاعر من أذربيجان بالفارسية أيضا اسمه نظام الگنجوي. في هذا الجبل شق فرهاد العاشق طاقا ستراه الآن. اسم هذا المكان طاق بُستان.

كان الجبل محفورا على شكل قوس متماثل، كانا قوسين في داخل الأول منهما نقش لكسرى «خسرو» وولده شاهبور، بور يعني ابن، وشاه بور يعني ابن الملك. وعلى أحد الجدران نقش قد درس أغلبه، فيه كتابات عربية.

- هذه الكتابات من عصر متأخر كما يبدو، ربما في عهد السلاجقة. لا أعرف.

إن صحت الأسطورة، ففي مكاني هذا ظل رجل يحفر الجبل وحده، لأن أهل القرية التي تسكنها حبيبته اشترطوا عليه ذلك. تختلف الأساطير في نهاية الحكاية، ومع ثلاث نهايات حزينة، نهاية واحدة تقول إنهما تزوجا أخيرا. لكنهما لو تزوجا لما بقي من حكايتهما ما يستحق الرواية، فالأرجح إذن واحدة من تلك النهايات الثلاث الحزينة.

حكايات متشابهة ترددها كل الألسنة، بالفارسية والتركية والكردية، فأصل شيرين مختلف فيه، بين أن تكون عراقية من المدائن، أو رومية أو كردية. لا يهم من أين هي، شيرين ليست سوى ليلى، وليست ليلى سوى جوليت. كل الحبيبات شيرين وكل العشاق فرهاد. من لم يحفظ بعد خواتيم سورة الحب، فليقرأها من نقش هذا الجبل.

يأتي صوت گنجيان:

- ستصلي الجمعة اليوم في مسجد لأهل السنة.

- صحيح؟!

- نعم.. جليل سني، شافعي. وهنا توجد مساجد كثيرة لأهل السنة. ليست بقية الأقاليم كطهران.

شعرت براحة حين أخبرني أن جليل سني، رغم أنني لم أر من گنجيان ظاهرًا إلا خيرا، لكن فرحا آخر أصبحت أشعر به وأنا أنظر إلى جليل.

***

في المسجد، كانت الخطبة بالكردية. كنت أعرف الآيات من كلام الخطيب، يقرؤها بعربية حروفها تخرج بمشقة، عينٌ قريبة من الهمزة، وهاءٌ مقطوعة، وواوٌ أقرب للفاء، يحاول أن يصل بحروفه إلى النطق الصحيح أحيانا، ويخونه لسانه أحيانا أخرى. الخطبة الثانية كانت بالعربية، ليست سوى خطبة مأثورة مملوءة بالسجع والأدعية.

صلينا الجمعة ووقفت أراقب المصلين بعد الصلاة، المساجد واحدة أبدا، كأنني في مسجد من مساجد القاهرة الكبيرة. انقسم الناس إلى مجموعات يسلم بعضها على بعض، أصوات الترحيب تختلط بزمزمات ختام الصلاة، وبين الناس فرح يشبه فرح صلاة العيد.

يمر علينا شيخ كبير له ملامحه أقرب لملامح الصينيين، له لحية خفيفة، قليلة الشعر، سلم علينا. فأشار إليّ سيد جليل وقال له: ضيف من مصر.

احتضنني الرجل، حتى كدت أذوب فيه، قبّل رأسي، وهو يقول: مرحبا. أهلا وسهلا.. كيف حال ميسر (مصر)؟

- بخير.

- نحن نحب مصر.

شكرته، فقبلني من جديد، وانصرف.

قال سيد جليل:

- قتل ولده في باكستان.

- قتل؟

- نعم، سافر إلى هناك ليلتحق بالقاعدة. لهم دعاة هنا ينشرون دعوتهم بين الشباب، كما كان يفعل دعاة حسن الصباح في الماضي، في كثير من القرى المجاورة شباب سافروا إلى هناك. أغلبهم من أهل السنة، يقتنعون بحديثهم، يحركون نفوسهم بما يعانيه المسلمون من ظلم في أنحاء العالم فيرحلوا.

- ثم ماذا؟

- لا شيء.. في زمان التِّيه يكون الناس مستعدين للموت في سبيل فكرة، لكنهم لا يكونون مستعدين لمنح هذه الفكرة شيئا من الحياة والعيش الطويل. شجاعة الإقبال على الموت لا شجاعة منح الحياة.. إنه أبسط اختزال للحياة، أن تموت أنت، دون أن تكون قد بنيت شيئا. اختار سقراط أن يموت بالسم، هذا صحيح، لكنه لم يختر ذلك إلا حين علم أن موته سيفتح أبواب دعوته. ألم نتعلم ونحن صغار حكاية أصحاب الأخدود، لقد اختار الطفل الصغير موتا كان باب إيمان القرية كلها.

بعد الصلاة تناولنا الغداء في بيت سيد جليل، ثم سرنا إلى البحيرة، كانت الشمس قد خفت حدتها، لكن الثوب الكردي الذي ارتديته كان ثقيلا، لأني لبسته فوق ثيابي كاملة.

وصلنا إلى البحيرة، فتركتنا آلاء ابنته وجرت إلى الماء. تكرر «آو.. آو».

- «آو» بالكردية هو الماء، وبالفارسية يكون آب. بألف مفخمة.

- وبالعربية ماء..

ماء البحيرة ينبع من الجبل، من بين الأحجار يخرج باردا، عذبا، يجعله اندفاعه يظهر كأنها يفور فورانا، أمد يدي إليه، وأرشف منه. رشفات صغيرة متابعة.

يحكي جليل عن معاناة أهل السنة في إيران منذ قامت الثورة الإسلامية. عن صدمتهم حين وضع الدستور، وفرض فيه المذهب الشيعي مذهبا رسميا للبلاد. ليس في طهران مسجد لأهل السنة، والمساجد في بقية المحافظات تتبع الحكومة. المسجد الذي صلينا فيه الجمعة إمامه مُوالٍ للحكومة.

يعود ويقول: مع ذلك لم تُبْقِ الثورة الإسلامية في إيران مع الأسف مسلمين. هل رأيت الشبابَ في طهران، وحتى هنا في كرمان شاه. العلمانية تحكم كل شيء، والناس في الحقيقة لا يعرفون شيئا عن الإسلام، علاقتهم به لا تتعدى الاحتفالات الدينية، هذه مأساة الدولة الدينية. حتى بيننا نحن أيضا، ابنة أحد أصدقائنا سافرت إلى فرنسا للدراسة، تغيرت كثيرا هناك. لا نعرف كيف نحافظ على هويتنا.

ربما في سنوات قليلة قادمة ستحول إيران رغما عنهم إلى العلمانية. كثيرون يرحبون بذلك حتى من أهل السنة، سيكون هذا أفضل من سيطرة مذهب واحد كما يحدث الآن.

قلت: رغم ذلك، فلا أظن أن وجود دولة دون مذهب أمر ممكن التحقق، لا أجد أي دولة على امتداد التاريخ لم تكن تحتمي بدين، سماويا كان أم وضعيا. شيء ما مقدس، حتى ذلك القانون الذي وضعه الناس، هو في النهاية صورة من صور الدين التي تقوم لحماية أشياء معينة، قيم أو مصالح. مهما ادعى البشر فكل قانون يحمي بالضرورة طائفة ويضمن لها سيادة ما. راجع كل قوانين العالم الفعلية ودساتيره، دعك من القيم

المطلقة، جرب أن تبحث في التفاصيل، لن تجد، إنه أمر يستحيل تحققه ما دام في الدنيا بشر.

- ربما لو كنا ملائكة لقبلنا نظام الله دون جدل ولا جهد، لكننا بشر. و«كان الإنسان أكثر شيء جدلا».

- المشكلة ليست في المنهج إذن، المشكلة في صياغة المعاني في الإنسان، هل هو سَويٌّ بما يكفي ليتوازن مع الكون من حوله أم لا. هل في نصوص الشيعة أن قتل المسلمين جائز؟ بالطبع لا. هل عندهم أن التضييق على من يخالفهم في عباداتهم قربى إلى الله، بالطبع لا. هل فعلوا ذلك في تاريخهم، بالطبع نعم. لأي شيء فعلوه؟، لأجل مصالح سياسية!. إذن لا مشكلة في أن يوضع مذهب دون سواه، حتى لو كنا نختلف معه، ما دام لا يضيق على أحد. المشكلة كيف يُربى الإنسان حين يُربى، وهذا الاختلاف موجود، أين يوضع هذا الاختلاف في نفسه، في خانة التعايش أم في خانة العداء. هل يستخدم هذا الاختلاف ليميز نفسه عمن حوله، فيكون حيلة يحمي بها نفسه، ويجلب بها لنفسه المصلحة، أم يتعامل معه بأنه أحد لوازم الحياة التي يحافظ عليها، ويجعلها أكثر اتزانا.. أتعرف.. كم أتمنى أن يأتي جيل يضع التاريخ في موضوعه الصحيح، لا يحمل كل شيء فيه دون نظر، يمد يده فتخرج جوهرة أو يمدها فتخرج فأرا، لا يفرق بينهما، لأن كلها خرجت من كتاب التاريخ المقدس.

كنا نسير، ونحن نتحدث، يقطع الحديث مرور صديق يسلم عليه ويعرفني إليه، أو حكاية تحضره على شيء مما أراه في المدينة. مررنا على حلواني اشترى منه فالوذج. لا أعرف إن كان هو الفالوذج الذي يرد في كتب التراث، أم لا. فالوذج سيد جليل كان حلوى من خيوط بيضاء مثلجة عليها ماء ورد، وفستق مبشور.

يصـف محافظته ويعدد مدنهـا، يحكي عن الأكـراد حكايات كثيرة لا أحفظها،

أدون بعـض النقـاط لأبحث عنها فيما بعد. أسـماء كتب ودراسـات لباحثين مصريين في مشـاكل الأكراد، لم أسـمع عن شيء منها قبل ذلك. يتحدث عن أحوال الأكراد في العراق وسـوريا وتركيا، عن حلم الدولة التي تجمعهم .. قسـمة أخرى من عمليات القسـمة الكبرى التي بقيت لنا من سنين الاستعمار.

عدنـا إلى البيـت عند المغـرب، وحين رأتنـي زوجته بلبـاس الأكراد قالت لي: انتي لازم اتجوزي واحدة كردية.

كانـت تعرف العربية قليلا لأنها درست الفقه الشافعي في الجامعة.

ضحكت وأنا أقول: لا بأس. أنا أوافق.

رد جليل: من لم يتزوج مصرية فما تزوج.

قلت: كان هذا في أيام الإمام الشـافعي، هذا رأيه، ولا يلزم به أحدا.

ضحكنا، وتركتنا هي لتعد العشـاء، وجلسـنا نكمل



تابلو شماره ٤

صـوت المنادين على الرحلات المسـافرة يـرن متداخلا في صالة محطة همذان الواسعة:

أصفهان، شيراز، تبريز، تيهران تيهران تيهران...

دلالـون بثيـاب متشـابهة يلقـون المسـافرين عنـد بوابـات الدخول، يصحبونهم إلى مكاتب الحجز التابعة لشركاتهم التي يعملون فيها.

أكثـر من شركة تتولى الحجز عـلى الطرق بين مدن إيران، لكل شركة مكتب في المحطة، وسيارات تقف في ساحتها الواسعة المرصوفة.

أجـرب الكلـمات التي تعلمتهـا في الفارسـية وأنا أسـأل عن مكتب الاستعلامات:

«دفتر اطلاعات كوجاست»؟

يسـير معي شـاب إلى كونتر تجلس عليه فتاة كأولئك اللاتي يرسمهن إيمان مالكي، يظهر شعرها من تحت غطاء رأسـها وعلى وجهها ابتسامة خجلة، هي من لوازم الوجه الفارسي:

«إصفهان»؟

أكسـر همـزة الكلمـة كـما ينطقونهـا.. ثم أحـاول أن أركـب لها جملة كاملة:

«ميخواهم به اصفهان مسافرت كنم»؟

أشـعر بسـعادة غامرة وأنا أكمل الجملة، رغم ما فيها من بطء وثقل ولحن.

كالطفل الذي يتعلم المشي، أكرر الجملة عدة مرات، وأكتبها في رسالة صغيرة على هاتفي حتى تكون الفتاة قد أنهت حجز التذكرة.

«هفت هزار تومان»

أخرج النقود من جيبي، وأنثرها على الكونتر أمامها، لم أتقن بعد التعامل مع العملة هنا.

الأرقام المكتوبة على النقود هنا غير القيم التي يستعملها الناس في الحديث والمداولة. الألف ريال تعدل مائة تومان.

حل الريال مكان التومان في عام ١٩٣٢، وبقي الناس إلى اليوم يستعملون التومان للتعبير عن القيمة. لا يكفي تغير الأسماء بمراسيم، حتى يعتادها الناس. أكثر الشوارع التي تتغير لافتات أسمائها تظل تحتفظ باسمها الذي ولدت بها.

التومان وحدة عد تركية قديمة، استعملها المغول في ترتيب الجيش، ويعدل عشرة آلاف جندي.

كان جيش المغول مقسما بنظام عشري، أقل وحدة فيه تساوي عشرة جنود، اسمها «آرافت» ثم تتضاعف إلى مائة جندي، «زوت»، ثم إلى ألف جندي، «مايانجات».

هذا التقسيم جعل جيش جنكيز خان أكثر الجيوش قوة، ومرونة في عصره. يمكنه أن يعزل أي جزء فيه بسرعة دون أن تتأثر بقية الأجزاء، كما كان يكافئ المخلصين من أتباعه بقيادة «تومان» كامل، أو إدارة وحدات من عدة تومانات. ويترك لهم تصريف شئون البلاد المفتوحة.

كان يطمح لامتلاك العالم. وصّى أبناءه بإتمام هذه الأمنية وهو يموت:

«بمعونة السماء فتحت لكم إمبراطورية عظيمة. لكن حياتي كانت قصيرة للغاية لتحقيق غزو العالم. هذه المهمة تركت لكم».

إمبراطوريته التي تركها لهم حافزا ليكملوا امتلاك العالم حين مات كانت تضم من دول العالم اليوم الصين ومنغوليا وفيتنام وكوريا وتايلاند وأجزاء من سيبيريا.. ومملكة لاوس وميانمار ونيبال وبوتان.

يحيرني أولئك الذين «تمنوا امتلاك العالم، عظماء أم مجانين؟ حمقى أم مجرمون؟ لا أعرف.

آخذ مكاني في الحافلة إلى جوار النافذة، وأضع حقيبتي على المقعد المجاور لي.

أرسل العبارة التي كتبتها على هاتفي إلى رضوى..

«ميخواهم به اصفهان مسافرت كنم؟ صح كدة »؟

«تقدمک جيد، شاطر، أنت فين»؟

«في الحافلة .. إلى أصفهان».

في مفكرتي ذلك اليوم كتبت:

«في التاسعة صباحا، تركت الجبال المعممة خلفي قاصدا أصفهان، تمتد الحقول في أول الطريق، قمح ذهبي حتى الأفق، بعد أن سرنا قليلا انقطع القمح لتبدأ حقول الفواكه، أشجار متوسطة خضراء، كغابات صغيرة، لا أتبين أنواعها، ومن خلف الحقول ترتفع مداخن مصانع الطوب.»

لا تستمر الحقول أكثر من ساعة، قبل أن تبدأ الصحراء.

بحر واسع من أمواج صفراء ناعمة، تصنع قبابا كأجساد الفتيات النائمات بعضهن خلف بعض، تفتن السماء، والطير والمسافرين.

يظهر فيها بين الحين والحين نباتات صحراوية باهتة، كأنها شامات تلك الأجساد الناعمة.

لا أستطيع أن أنظر خلفي لأرى همذان وهي تختفي في الأفق.

المسافرون في القوافل كانوا أحسن حظا مني، لم يكن يحجبهم شيء، تظل عيونهم

متعلقة بالديار حتى تختفي سواريها.

أستعيد أول وصولي إلى همذان مع سيد جليل.

عندَ تل كنجانمة، كان الطريق إلى الشلال متعرجا بين الجبال. جبال خضراء كثيفة الشجر، وفي الأودية الصغيرة التي تنشأ من تقارب القمم بيوت معلقة.

لا تنصرف عيني عن البيوت، تتابعها، والسيارة تدور في تعاريج الطريق.

«سر على مهل».

يبتسم وهو يبطئ السيارة.

لو تكون ورد هنا الآن. ما رأيت من شيء جميل إلا تمنيت أن أعرف كيف كانت تراه.

أملأ صدري بالهواء، وأتمنى لو كان هذا يحبس الجمال في نفسي. لماذا نشعر بالعجز أمام ما يبهجنا بهذه الصورة.

تبدو الكلمات صغيرة، باهتة أمام ما أشعر به. سأكرر مفردات تبدو حمقاء لأصف ما في نفسي. لن أتحدث، لن أصف شيئا. لماذا أصف؟ لأبقي ما أشعر به في نفسي الآن؟ لا أريد أن أشغل عنه بأي شيء.

أغلق عيني، وأدع الهواء يتسرب إلى داخلي. يملؤني، من قدمي إلى رأسي، رويدا رويدا، وأنا سعيد به.

كم مرة جاءت ورد إلى هنا؟

كم مرة جاء أبو علي إلى هنا؟

«أريد بيتا هنا».

«الله يرزقنا ويرزقك. هذه البيوت غالية جدا».

«هكذا الجمال في الدنيا، لمن يقدر على ثمنه. وهل يقدر ساكنو هذه البيوت ما هم فيه».

«الفرس بطبعهم يحبون الجمال».

«صحيح، في أول يوم مشيت فيه وحدي في أصفهان لفت نظري أن أنوف الفتيات جميلة، منمقة».

علت ضحكته وهو يقول:

«نعم.. إيران صاحبة أعلى معدل جراحات تجميل للأنف. كيف لا تعرف ذلك وأنت طبيب، يمكنك لو كان تخصصك هذه الجراحة أن تأتي إلى هنا، ولن تكف عن العمل. النساء هنا يحبون أن تكون أنوفهن دقيقة، وهي بدون جراحات لا تكون سيئة».

صوت الماءِ في مجاري الرخامِ والأطفالُ يلعبون فيه بأقدامهم يغمرنا ونحن نصعد الدرج.

أغمض عيني وأسمع أمنية في داخلي تنمو ..

«أريد قلبا واسعا.. يسع الجمال في هذا العالم»..

يسألني:

«كيف أنت والجوع»؟

«جائع، حتى لا أستطيع أن أرى شيئا».

إذن نأكل حتى ترى الشلال بروح صاحية.

الشلال خلف الأشجار العالية، أسمع صوت هديره ونحن نصعد باحثين عن مطعم،

لكني لا أرى شيئا.

كانت المطاعم مصفوفة في الجزء المنبسط من الأرض، ورائحة الشواء تُزيد إحساسي بالجوع.

لم يكن في هذه المطاعم طاولات ولا مقاعد، فيها متكآت مرتفعة عن الأرض، كل واحدة تسع لأربعٍ أو خمسٍ، مفروشة بسجاد من الصوف، وفيها مساند، وحشايا.

جاء الكباب الإيراني، والخبز البربري، والدوغ. الدوغ لبن، عليه توابل ونعناع أخضر.

كان صوت كمانٍ حزين قد بدأ ينساب مع صوت الماء ونحن نأكل. إلى جوارنا كان شيخ كبير قد نصب كرسيا صغيرا، وساعة وجلس بكمانه يعزف، فاردا منديلا صغيرا أمامه.

بـدا عليـه رحلة عمـر طويل، تحكيهـا تجاعيد وجهه وانحنـاء ظهره، وصوت الكمان الحزين.

دائـما تخبرنـا الحياة أنه لا شيء فيه كامل، لسـنا في جنـة على أي حال، نحن في الدنيا، الممتلئة بالوجع، بقدر امتلائها بالفرح.

يتوقـف حولـه النازلـون من الشـلال والصاعـدون إليه، يسـمعون ويصورون، ويتركون عملات معدنية على منديله المفروش.

بالموسيقى تصيـب التخمـة بعض البطـون، وبها بالـكاد يعيش هذا الرجـل. هـذا الذي يخرج الشـجن منه بـدون تكلف، لأنه مـادة روحه، وأولئـك الذيـن يتكلفون كل شيء حتى الفرح، سبعة حروف متشـابهة والفرق في القلب الذي أنطق الكمان.

تركنـا المطعـم وأكملنـا صعودنـا. كان الطريـق مبلطا وسـهلا حتى اقتربنا من الجبل، انكشـف المـاء مرة واحدة، علا صوتـه، وفاض برذاذه على وجهي.

يملؤني صوت الماء، ومرأى الناس يلعبون حوله بفرح واسع، أحس كأني خُلقـت شـيئا جديـدا، طائـرا لا يبالي بشيء، سـوى القفـز بين قمم الأشجار.

أين كانت روحي، قبل أن أولد.

أتذكر سؤال غادة، ونحن في حديقة الأزهر. «أين كانت روحك قبل أن تأتيك»؟

هنـا، ولدت هذه العقيدة يا دكتورة، هنا الأرواح تحل، وتتناسخ. هنا، ظن الناس أنهم

في الجنـة، فبحثوا عما يبقيهـم فيها بعد موتهم، فتخيلـوا أن أورواحهم ستحل في آخرين بعد رحيلهم.

لا أعرف أين كانت روحي من قبل.

ربما أفضـل أن تحل في طاووس فارسي ملون بعدي.

أسأل جليل: هل تؤمن بحلول الأرواح؟
- لماذا؟
- أفكر لو حلت روحي في طاووس ملون.
ضحك كما لم أسمعه يضحك من قبل وهو يقول: إذن تصبح غداءً لملك من الملوك.
- وهل قلت إنها ستحل في نعامة؟!
- نعم.. في طاووس.. الملوك يأكلون الطوواويس.
- أنت تفسد علي أحلامي..
تركته يصعد الجبل، وبقيت أنا أراقب الشلال. تحته، وقفت ورد منذ ألف سنة تغتسل. لم يكن حولها أحد، كانت وحيدة منفردة، وقفت في تجويف من الصخر يسترها. لم تكن قد عرفت ابن سينا بعد. طفلة قد بدأ نهداها في التكور، تخرج وحيدة من بيت النار وتسير إلى الشلال.
تجلس على الصخور أعلى الجبل، تبني بالأحجار بيوتا صغيرة، وتظل تراقب المدينة حتى يقترب المغرب فتعود.
أمد يدي إلى الماء، أملأ به كفي.
عذب، بارد.
أغسل وجهي ثم أعود أملؤها لأشرب.
وكلما شربت، أحسست السعادة تغمرني.
أخلع حذائي، وأمشي في الماء.
توضأت، ثم عدت وشربت.
ملأت كفي أغسل رأسي.
حولي الفتيات شمرن سيقانهن فأضاءت، والنساء جالسات على حجارة الجبل، والأطفال يرشون الماء.
ضحكات، يرويها ماء الشلال فتزهر في الوجوه.
وأنا..

روحٌ خفيفة سمت فوق كل شيء.
أغمض عيني، وأترك خرير الماء يرتب نفسي.
أدرك الآن فتنة عمر الخيام من أي شيء كانت. ويحضرني لحن رياض السنباطي في أذني «هبُّوا املؤوا كاس المنى ..»
وأيُّ منًى أجملُ مما أنا فيه يا عمر.
في حضرة الجمال، يبدو العالم نقيا كما خلقه الله، لا زيف فيه ولا خطيئة.
أشعر أنه ما من دعاء يُرَدُّ هنا.
يارب
اجعلني رسول الجمال للعالم. اكشف لي أسراره، واجعله طريقي إليك.
يقطعُ خيالي من جديد:
«هل نرحل الآن»؟
«دعوني هنا، واذهبوا أنتم»
«سعيد بالمكان»؟
كنتُ سعيدا كطفل صغير، لا يدرك من الزمن إلا لحظته الراهنة، فسعادته سعادة
ممتدة، لا شيء قبلها ولا شيء بعدها.
«نعم.. أنا سعيد ..»
تركنا التل لنبحث عن فندق أبيت فيه.
كان السيد جليل مرتبطا بأعمال في كرمان شاه، ولا يستطيع أن يبقى معي أكثر من ذلك، ولم يشأ أن يعود حتى يطمئن إلى أنني نزلت في فندق جيد.
انتهينا إلى فندق اسمه «بابا طاهر» أمام ميدان الشاعر الكردي العارف بابا طاهر العريان.

يقول جليل ونحن نصعد المقبرة: «غض بصرك فإن الرجل عريان».

كان حول سور المقبرة باعة كتب، ولوحات وتماثيل. كل ما يشتريه سائح سيزور بَابَا طاهر؛ دواوينه ودواوين حافظ، ورباعيات الخيام والسعدي.

«هذا الرجل الذي يأكل الناس من جواره، عاش فقيرا ومات فقيرا».

يكرم الإيرانيون شعراء بلادهم كثيرا. خصوصا أولئك الذين كتبوا قصائدهم بالفارسية. يقرؤون شعر حافظ في سهراتهم في ليالي الشتاء الباردة. يبعثها «شجريان» حية حين يغنيها.

الشعر في كل مكان، في سيارات الأجرة، وفي أكشاك الصحف، وفي محطات المترو، موازين الشعر تنظم حركة الحياة هنا.

«هذه قصيدة كردية.. عن الفراق» و«هذه قصيدة لنظام كنجامي» شاعر من أذربيجان كتب الشعر بالفارسية.

- أنقلها إلى هاتفي؟
- بفرمائيد.
- ممنون.

نفترق بعد زيارة بابا طاهر، يودعني عند باب الفندق، وأنا أشعر أن ما بيننا أكبر من مسافة اليومين اللذيْن صحبته فيهما. أجاهد نفسي لأضحك وأنا أصافحه. الذي قال «خذ من كل بلد حبيب»، هل كان يقدّر الألم في عبارته هذه. وأيّ إنسان ذلك الذي يتحمل أن يتوزع قلبه في البلاد، وهو مقيد في مكان واحد!

***

تابلو شماره ٥

أكمل اليوم وحدي، في الحديقة أمام الفندق، وتحت شجرة باروتيا كبيرة، أضع السماعات في أذني أسمع «نظام كنجامي»: وهو يحكي حكاية شيرين وفرهاد.

تنتشر هذه الشجرة كثيرا في إيران، عرفت بعد ذلك أن اسمها في كتب التصنيف العربية «شجرة إيران الفارسية» وتحت اسمها تعريف يقول «إنها شجرة متساقطة الأوراق ارتفاعها ثمانية أمتار وقطرها اثني عشر مترا، أغصانها تنتشر على مساحة واسعة وأوراقها تغير ألوانها بين فصول السنة من الأخضر في الصيف إلى الأصفر ثم البرتقالي والأحمر في الخريف.»

كان الجو جميلا، ونفسي هادئة، لولا غصة أحاول الإفلات منها، وحولي فتيات وفتيان منثورين بين الشجر، ورجال وشيوخ جالسين على مقاعد موزعة في الممرات، وأمامي مباشرة سيدة عجوز، وشيخ كبير جالسان على سجادة صغيرة ومعهما إبريق شاي، وعلب بيضاء صغيرة.

أطلت النظر إليهما، كان مرآهما مؤنسا إلى جوار الشبان والفتيات، عشاق الشجر.

هذه السيدة هي «ستارة»، مدبرة بيت ابن سينا، أحفظ ملامحها لأكتبها. حين كَبُرَت «ستارة» تجعد وجهها تجعدا خفيفا حول شفتيها وفي زاوية عينيها. حركة يديها أمست بطيئة قليلا، لكن عينيها احتفظتا بصفائهما، عينان من قزوين بلون السماء الصافية. ليس في جسمها سِمَن، كانت نحيلة أيضا.

ربما لأني أطلت النظر ناحيتهما نادتني السيدة، فهمت ذلك من إشارة يدها، تكلمت بعبارة طويلة لم أفهمها، خِفت أن يكون معاتبة لاقتحامي مجلسهما بالنظر، لكن وجهها كان مبتسما، فابتسمت، وأجبت بالعربية.

- عربي.
- بَلِه.. باء ممدودة، ولام مكسورة، بالفارسية تعني نعم.
- بفرمائيد.
قالتها وهي تمد كفها مملوءة بالفستق.
- ممنون.
- چاي؟ (شاي)
ثم أشارت بيدها إلى الأرض لأجلس، كنت وحيدا أسعد بأي شيء يكسر وحدتي، فجلست.
لم تتكلم، ولم يتكلم زوجها، أعدّت الشاي، وقدمته مع قطع صغيرة من السكر. مددت يدي أضع واحدة في الشاي فقالت:
- نه.
وأشارت بيدها «لا».. ثم أمسكت واحدة وضعتها في فمها، وشربت بعدها الشاي.
جربت أن أفعل ما فعلت، فبقي الشاي مرا، والسكر في فمي.
- ممنون خانم.
هزت رأسها مبتسمة، وابتسم زوجها.
عدت أسمع شعر «نظام»، تحت الشجرة الملونة، واستحضر عبارة أبي الريحان البيروني لأنشغل بها عما أشعر به من حنين:
«لسان الفرس لسان الشعر والمسامرة، ولا يصلح لشيء آخر».
قالها في حضرة السلطان الغزنوي محمود، في أول لقاء بينه وبين أبي قاسم الفردوسي. هذا اللقاء الذي رفض ابن سينا أن يكون فيه، قال لأبي سهل المسيحي حين وصلت الرسالة:
«هؤلاء الأمراء يجمعون حولهم العلماء كما يجمعون الندماء والجواري، وغرائب المدن البعيدة».

قال أبو سهل:

- «وهل يمكن لنا العيش بعيدا عن كنف هذه القصور»؟!

- الحقيقة لا تولد على أسرّة الملوك.

- «الحقيقة تولد في أي مكان، راحلة أبدا بين الدروب. ولئن كان سرير الملوك غير مناسب لها، فأسرّة الأكواخ الفقيرة تقتلها قبل أن يفتح الهواء رئتيها الصغيرتين».

كانا في كركانج، أول مدينة نزل بها ابن سينا عقب خروجه من بخارى، حين وصل رسول السلطان الغزنوي لابن هارون حاكمها يطلب إرسال من لديه من أهل العلم والفكر والمنطق إلى غزنة. رسالة ظاهرها الطلب، وباطنها الأمر. فمن يملك رد طلب لأمير الغزنويين؟

يكمل ابن سينا:

«كأنه يريد من كُتّاب التراجم والسير أن يلحقوا باسمه قولهم: وكان رحمه الله محبا للعلم مقربا لأهله. سافر أنت يا أبا سهل، لعلك تجد في قربه ما تحقق به ما ترجو، أما أنا فطبيب، حيثما مرض الناس، أداويهم».

في البلاط، حضر مع البيروني أبو سهل المسيحي، وأبو الخير الحسن بن الخمار الطبيب وأبو نصر العرّاق، والفردوسي الشاعر.

يقول البيروني لأبي قاسم:

«تريد ألا تظهر العربية في ملحمتك. فتتخير ألفاظك كلها فارسية، ولو كانت قد دَرَسَت».

- «أنا أحكي تاريخ ملوك الفرس قبل الإسلام، ستنتهي الشاهنامة حين يدخل العرب المدائن. ولم يكن في لغتهم عند ذاك من لغة العرب شيئا، كما لم يكن للعرب في حياتهم أثر».

- «كأنك تريد أن تنزع الفرس من هذا البناء الجديد الذي أصبحوا فيه».

- «بل أريد أن أدعم هذا البناء، فيقوى على قوته. الإسلام لم يطلب من الفرس أن يكونوا عربا. سياسة العرب هي التي فعلت ذلك. ولو بقي الفرس فرسا، وهم مسلمون، لكان ذلك أوسع لهم، وللمسلمين».

- «الهجو بالعربية أحبُّ إليَّ من المدح بالفارسية».

- «لأنك تركي.. ولسان الفرس غريب عليك، كلسان العرب».

- لسان الفرس لا يصلح إلا للأخبار الكسروية، والأسمار الليلية. للحكايات وللشعر. أما العلوم فتمام جمالها في العربية بلا ريب. ولقد نقلت العلوم من أقطار العالم إليها فازدانت وحلت إلى الأفئدة وسرت محاسن اللغة منها في الشرايين والأوردة. وسيعرف مصداق قولي من تأمل كتاب علم قد نقل إلى الفارسية كيف ذهب رونقه وكسف باله واسود وجهه وزال الانتفاع به.

يتدخل شاب لا يعرفانه في الحديث، ظلّ ساكتا خلال حديثهما:

- لقد كان الفرس أصحاب لسان يعرف التأليف، لكنهم لم يؤلفوا حتى جاءهم العرب، وما ألّف العرب قبلهم سطرا، لكنهم أفادوا مما تعلموه منهم. وكان الفرس أصحاب دولة قد قطعت شوطا كبيرا في الإدارة، لكنهم لم يعرفوا ماذا يفعلون بها، فكانت جيوشهم تحارب، تكسب أرضا ثم تغلب عليها فتفقدها، ثم تعود تردها، حتى جاء المسلمون فأصبح للدولة غاية.

- من أنت يا فتى؟

- أنا محمد بن إسماعيل الشيرازي. درَسْتُ اللغة في بغداد على يد أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. وسمعته يروي عن ابن المقفع أنه سأل جلساءه مرة: أيّ الأمم أعقل؟ فنظر بعضهم إلى بعض كأنهم يقولون: لعله أراد أصله من فارس. فقالوا: فارس.

قال: ليسوا بذلك؛ إنهم ملكوا كثيرا من الأرض، ووجدوا عظيما من

الملك، وغلبوا على كثير من الخلق، ولبث فيهم عقد الأمر؛ فما استنبطوا شيئا بعقولهم، ولا ابتدعوا باقي حكم بنفوسهم.

قالوا: فالروم. قال: أصحاب صنعة.

- فالصين؟

- أصحاب طرفة.

- فالهند؟

- أصحاب فلسفة.

- فالسودان؟

- شر خلق الله.

- الترك إذن؟

- كلاب ضالة.

- الخزر؟

- بقر سائمة.

قالوا: فقل.

قال: العرب. فضحكوا.

قال: «أمَا إني ما أردت موافقتكم، ولكن إذا فاتني حظي من النُّسْبَة، فلا يفوتني حظي من المعرفة؛ إن العرب حكمت على غير مثال مُثِّلَ لها، ولا آثار أثِرت؛ أصحاب إبل وغنم، وسكان شعر وأدم؛ يجود أحدهم بقوته، ويتفضل بمجهوده، ويشارك في ميسوره ومعسوره، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة، ويفعله فيصير حجة، ويحسّن ما شاء فيحسن، ويقبّح ما شاء فيقبح؛ أدّبتهم أنفسهم، ورفعتهم هممهم، وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم؛ فلم يزل حباء الله فيهم وحباؤهم في أنفسهم، حتى رفع لهم الفخر، وبلغ بهم أشرف الذكر، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر، وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر على الخير فيهم ولهم؛ فقال تعالى:

﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، فمن وضع حقهم خسر، ومن أنكر فضلهم خصم؛ ودفعُ الحق باللسان أكبت للجنان».

أحس البيروني أن هذا الشاب إنما بُعث له، ليدعمه، وينصره برأي أشهر كتاب الفرس في زمانه. لكنه لم يجد الوقت ليزهو بذلك على شاعره المجادل إذ كان السلطان محمود قد حضر، فسكتوا جميعا.

***

يتبدل الحديث في خاطري، كما تتبدل صورة الطريق من حولي.

سهل يعقبه تل، ثم واد. أفكار السفر محلقة دائما كالطيور. وإذا كانت الطيور تحلق عالمة لأي شيء ترحل، فالأفكار في الحافلة لا تحلق إلا قطعا لملل طريق صامت.

كانت الطريق قد انبسطت صحراء واسعة ناعمة، لا عوج فيها.

أخرج مفكرتي، وأدون في صفحة جديدة:

«زرت قبر ابن سينا».

أكتبها بخط فارسي بتاء ممدودة ونون عميقة، وسين طويلة.

تبدو فرِحَةً بشكلها الذي كتبتها به، لم أتخيل أن أكتبها يوما هكذا ببساطة.

زرته على الحقيقة لا على المجاز.

صباح الأمس كنت أقف على قبره، أقرأ الفاتحة، وأسلّم عليه.

«أنت تعرفني.

منذ أحد عشر سنة، وأنا أحمل اسمك.

لم يغضبك ذلك؟

أنت من ألهمنيه في ذلك الحلم البعيد.

هل تذكر.

لم أرك يومهـا، لم أسـمع صـوتـك، لكنـي أدركت أنك كنـت هـناك، تراقبني حين دخلت القاعة ودرت حول الطاولة الكبيرة المنقوشة.

كان اسـمك في ربعهـا الأول، دائرة حولها رسـوم نباتات فارسـية، حينها أردت أن أبحث عن اسمي.

درت مع الطاولة أتابع الأسماء المتالية، وتواريخها، حتى وصلت إلى الربع الأخير، كان ناعما لا نقش فيـه. رفعت عيني أجمع صورة النقش على الطاولـة، كان مجمُوعُه صورة نسر يحلق فاردا جناحيـه، وتحته قمم الأشجار العالية. نِصف جناحه الأيسر واقع في ذلك الجزء الأملس الذي لم ينقش بعد.

بإصبعي تمت النقش، ظهرت الحدود على الغبار المنثور على الطاولة. رسمت الدوائر، واخترت مكان الدائرة التي رأيت اسمي فيها.

اخترتها لتكون على استقامة اسمك، وحين عدت إليك كان الكتاب مفتوحا.

أنت من فتح لي الكتاب.

لم يكن على الطاولة شيء حين وصلت.

وفي الكتـاب كانـت تلك العبـارة التي حفظتها منذ ذلـك اليوم: «إن الإنسـان يجهل أكثر مما يعرف، وغاية المعرفة إفادة اليقين، حتى نصل منه إلى مبدئ الوجود وعلله».

وصحوت أبحث عن «النجاة» يا أبا علي.

واليوم جئت أبحث عنك أنت..

أنا أحبك.»

جاءني صوته همـا كذلك الهمس في الحلم:

«اعلم أن عوام الناس إذا رأوا صورة حسنة أو شخصا مزينا، حنُّوا إليه وتعلقوا به، أما خواصهم فإنهم إذا رأوا صورة حسنة، أو شخصا مزينا حنُّوا لصانعه».

«وأنا أحن لصانعك يا أبا علي، وأعرف فضله، وأسأله وقد جمعنا هنا، أن يجمعنا مع أنبيائه في جنّته.. السلام عليك، وعلى روحك الطيبة، ويغفر الله لي ولك».

ثم قرأت الآية المنقوشة على قبره: «يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا».

وعلى اللوح الكبير في صدر الحجرة طالعتني الأبيات المكتوبة من شعره:

از قعر گل سياه تا اوج زحل
كردم همه مشكلات گيتي را حلّ
بيرون جستم ز قيد هر مكر وحِيَل
هر بند گشاده شد مگر بند أجَل

من قعر الطين إلى أوج زحل، خبرتُ حل جميع مشكلات العالم إلا الموت فإنه قدَرُ البشر.

***

تابلو شماره ٦

تمرُّ القافلة الصغيرة أمامي، عابرة الصحراء إلى أصفهان.

أربعة جياد قصيرة، وجمل تركماني كثيف الوبر بسنامين شُدت بينهما أمتعة الرحلة التي تستغرق اليوم ست ساعات. كل مرحلة يقطعونها في نهار كامل، تساوي بالحافلة سير نصف ساعة أو أكثر قليلا.

يهب الهواء باردا على وجه ورد، فتشعر به ناعما رقيقا، وفي نفسها اطمئنان لم تشعر به منذ سنين.

كانت هي آخر الأربعة السائرين. أمامها ابن سينا وأبو عبيد وعبدٌ أصرّ على صحبتهم. موكب صغير، لا يشبه ذلك الموكب الذي كان يتقدم الوزيرَ أبا علي بن سينا منذ شهور قليلة؛ ألفُ فارسٍ بزينة كاملة، يجوبون شوارع همذان من بيته إلى البيمارستان وإلى القصر.

يلبَس الرجال الثلاثة ثيابَ صوفيةٍ قاصدين أصفهان يسألون عن الشيخ أبي نعيم الأصفهاني. هكذا يُعرِّفون أنفسهم كلما نزلوا خانا من خانات الطريق الموزعة على مراحله.

حدّ الطريق المأهول تُعلّمه جفان كأنها قباب مقلوبة، ترسم حدوده حتى لا يضل الناس، وتجمع ماء المطر في مواسم المطر، أو تكثف الندى في غير مواسم المطر أثناء الليل، يستعين بها المسافرون ودوابهم حتى يصلوا إلى أقرب موضع يتزودون منه.

قالت ورد:

«في أي شيء تفكر يا سيدي»؟

«في هذا العالم».

«أي شيء فيه يشغلك»؟

«من أين يأتي الشر يا ورد»؟

سكتت ورد ولم تُجب، كانت تعلم ما في نفسه من غصة، كيف لمثله وقد كان وزيرا مسموع الكلمة، أن يتستر خائفا بثياب صوفية هائمين في الصحراء.

نظر إليها وهو يقول: «العالم صادر عن الله، والله كامل جميل، مصدر كل خير، لأجل هذا لا يمكن أن يكون في الكون إلا الخير. أليس كذلك؟»

«وما نراه من شر كإحراق النار، وإغراق الماء، أليست جميعا من خلق الله؟»

لم يجب.

أكملت: «أنت تصر على أن تصنع العالم جميل الألوان متسق الصور، لكل موجود فيه مرتبته من الكمال ومن الجمال. كيف يمكن أن يوجد هذا العالم خارج عقلك، وهذه الجيوش تقطع الصحاري لتزهق الأرواح، والناس لا تكف عن المكائد، والذئاب لا تكف عن الافتراس»؟

رنا إلى الأفق البعيد، ولم ينطق. كان يسأل نفسه تلك الأسئلة ذاتها.

ما هو الشر؟ ما أصله وما جوهره؟

لم يقبل عقله أن الشرّ صادر عن الله.

كيف يصدر عن الجميل، ما ليس بجميل.

عاد يرتب العالم بعقله كما اعتاد.

ينزل من أعلى إلى أسفل، علّه يكشف الحد الأوسط لما يفكر فيه.

«الخير، هو ما يتشوقه كل شيء، ويتم به وجوده.

هو كمال كل شيء.

كل شيء ؟!

نعم ..

وتلك الأشياء التي لا تدرِك، النار والماء لا يدرِكان، هل يعرفان الخير؟

لا !..

بل يعرفانه.. أليس لكل شيء في الكون أفعال سواء أدرك أم لم يدرك.

ومنشأ الأفعال ما ركب في الشيء من غريزة وطبع.

كل موجود له عشق غريزي إلى بلوغ الكمال، لولا ذلك لظل الماء محبوسا في البحر لا يغادره، ولما تصاعدت ألسنة النار إلى السماء، ولما تطاول النبات إلى حيث يكون النور وتكون الشمس.

ثم يكون الخير منقسما، ككل شيء يقبل القسمة؛ خير هو مطلوب لذاته، وهو الغاية القصوى للجمال. وخير مطلوب لأنه معين على الوصول إلى خير أعلى مطلوب لذاته.

وذلك الأخير هو ما نرحل فيه جميعا. هو كل لذة مؤقتة ترفع الإنسان إلى كماله.

والشر؟

الشر انتفاء وجود الخير.

فلا ذات له إذن، بل هو انتفاء ذات الخير الموجود.

الشر هو غياب الخير.

وتلك الأشياء التي تبدو شرا في ذاتها.. كالنار؟

كل شر من جهة .. هو خير من جهة أخرى.

النار شر من جهة، لكنها خير من جهة أخرى.

الشر مرهون بإدراكنا نحن، ولا وجود لشر محض. الشراب، والنساء، وحب الرياسة. ليست شرورا، هي بالأساس مسالك إلى الخير».

يضيق صدره حين يذكر الرياسة.. لم تورثه إلا ضيق الصدر.

كان في غنى عنها، وعن نارها، كانت أيامه التي قضاها في القصر كأنها تُظلم روحه. وتسلب منه بصره وبصيرته.

بعُدَ العلم وحجبته السُتُر.

تذكَّرَ ما قاله لأبي سهل المسيحي حين خرجا من بخارى معًا قبل اثني عشر عامًا:

«أشعر بعالم كامل يولد في داخلي، لكنني لا أستطيع التعبير عنه..

كم كان يعاني النبي حين يتلقى الوحي؟

هذا وهو الذي أعد الله نفسه لقبول ما يلقيه فيها.

أما أنت فسجين في شرورك يا حسين.

ويل لمن لا يتقي جحيمه بنعيمه»!!

تراقبه ورد ولا تتكلم، لا شيء حولهم إلا وشيش رياح الصحراء، هادئة، باردة، وظلالهم التي تلقيها الشمس طويلة على الرمال.

باتوا لياليهم الأولى في الصحراء، يتعدون عن الطريق المأهولة إذا شارفت الشمس المغيب، ينصبون خيامهم، ويوقدون نارهم، وتتوزع الحراسة على الرجال منهم.

حتى إذا عبروا حدود أصفهان، أمسَوْا يبيتون في الخانات الموزعة على نهايات المراحل حتى بلغوا خان طبران آخر خانات الطريق.

في طبران بقي لهم سير نهار واحد، تحل رحالهم بعده في ساحة أصفهان.

كان الخان مزدحمًا، في ساحته جياد كثيرة، وإبل مربوطة وخفر يحرسونها، وفي صحنه نافورة حولها طاولات من الخشب يجلس النزلاء حولها، وفيه أشجار تظللها.

دلّهم خادم عجوز على المطعم، وعلى الغرفة الخالية التي سينزلون بها. وضعوا متاعهم فيها، واجتمعوا في المطعم.

المطعم حجرة واسعة، تملؤها رطوبة أبخرة الطعام فتدفئها، حاملة رائحة المرق، والبهارات. لم يسألهم أحد عما يأكلون، وضع الخادم أمامهم الأطباق متتابعة، لحم، ومرق، وخبز ولبن، وسفرجل.

أكلوا، ثم انصرفوا إلى الحجرة، يمنون أنفسهم بقرب انتهاء رحلتهم التي استغرقت خمسة عشر يوما. فرشوا بسطا على الأرض، وأشعل لهم الخادم حطب المدفئة، وناموا.

قرب الفجر صحت ورد، فرأت في وسط الحجرة أبا علي قائما يصلي، ضوء المدفئة منعكس عليه، وصوت دعائه همسٌ لطيف، يتسرب إليها فتؤمّن خلفه، حتى طلع الفجر فصلوا جميعا خلفه، واستأنفوا سيرهم إلى أصفهان.

في جامعها الكبير، صلى ابن سينا العصر، واستراح عند سارية من سواري المسجد، ينتظر أبا عبيد الذي سار بخبر وصوله إلى قصر الأمير.

كانت حلقة قد اجتمعت في المسجد بعد الصلاة، وجاء شيخ جليل، ممتلئ الجسم، أبيض الوجه، على رأسه عمامة كبيرة، كأنها تاج كبير، وله صوته هادئ، مكث حتى هدأ الناس ثم بدأ هو حديثه:

«الحمد لله محدث الأكوان والأعيان، ومبدع الأركان والأزمان ومنشئ الألباب والأبدان، ومنتخب الأحباب والخلان منور أسرار الأبرار بما أودعها من البراهين والعرفان.

نكمل ما بدأناه من شرح كتاب الإمام الحافظ الثقة العلامة شيخ الإسلام، أبو نُعيم الأصفهاني: «حلية الأولياء»، عن ثاني القوم ذي المقام الثابت المأنوق، الذي أعلن الله به دعوة الحق، وفرق به بين الفصل والهزل،

عمـر الفـاروق. كان رضي الله عنه للدين معلنا ولأعـمال البر مبطنا، وقد قيل إن التصـوف الوصول بما علن إلى ظهور ما بطن.

قـال علي كـرّم الله وجهه: ما كنّا ننكر ونحن أصحاب رسـول الله أن السكينة تنطق على لسان عمر بن الخطاب.

وقد حدثنا سـليمان بن أحمد عن عمر بن أبي طاهر عن سـعيد بن أبي مريـم عـن عبد الله بن عمر عن جهم بن أبي الجهـم عن مسـرور بن مخرمة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسـلم أنه قال: جعل الله الحق على لسـان عمر وقلبه.»

قبـل أن ينقضي الدرس، كانت ركائـب الأمير، محملة بثياب جديدة، تنتظـره عند باب المسـجد، مع أبي عبيد ليسـيروا إلى حيـث اختاروا له أن ينزل في «محلة كون كيد».

* * *

القاعة الثالثة

«تالار سوم»

«كم من الأشــياء الجميلة يمكن أن يتحقق في آن واحد،
هواء عليل وآنية مملوءة بالفســتق وصحن مزخرف بالفواكه
المكتنــزة بالعافية، وماء محلى بقطــرات الورد المحمدي،
ودفتر منهك الاســتعمال مليء بأشــعار عمر الخيام وحافظ
الشيرازي، وثغرٌ باسمةٍ تشــدو بأبيات فارسية تمدح جمال
أصفهان»

(يک)

في الخريطة التي معي، يكون الجسر في آخر هذا الطريق.

تتشابه أسماء الشوارع والميادين في كل إيران، ككل البلاد التي تريد تسريب أشياء بعينها في عقول أجيالها الجديدة؛ أسماء الأئمة، وصورة الخميني، والثورة الإسلامية، وأسماء شهداء إيران في حرب العراق، كل هذه ثوابت في كل مكان هنا.

بعد ميدان الإمام الحسين، أسير في شارع چهارباغ عباسي، إلى ميدان انقلاب، ثم أجتاز الميدان، لأصل إلى النهر؛ زايندة رود، النهر الولود.

رتبت الأماكن التي سأزورها في الأيام الأولى، بحسب موقعها من الفندق الذي أنزل فيه. تخبرني الخريطة أن المدينة على اتساعها تبدو قريبة جدا في كل شيء.

النهر يقسمها نصفين، الشمال والجنوب، وأنا الآن في الجنوب، بيني وبين النهر كيلومتر ونصف تقريبا.

في الدائرة الأقرب من الفندق، توجد أماكن كثيرة للزيارة، منطقة القصور الصفوية والمتاحف، ومسجد الجمعة وحمام علي قلي آقا وميدان نقش جهان أكبر ميادين العالم.

فضلت أن يكون النهر هو أول ما أزوره قبل أي شيء.

أصفهان، كطهران لا تشعرني بالغربة منذ توقفت الحافلة بمحطة المدينة. ركبت سيارة الأجرة مع سائق اسمه عباس أيضا.

قلت له : اسم عباس مشهور هنا.

لم يكن عباس يعرف شيئا من الانجليزية ولا العربية، كنت أتحدث أنا في واد، ويجيبني هو إجابات كلها حول أماكن الفنادق، وأسعارها، ثم يبتسم وهو يكرر كلمة واحدة:

- برادر مسلمان.

برادر مسلمان تعني أخي المسلم بالفارسية.

الناس هنا مبتسمين على الدوام، حتى وهم يسيرون مسرعين، في وجوههم انبساط جميل.

كيف كان وجه ورد؟

تبحث عيني في وجوه كل الفتيات اللاتي أقابلهن في طريقي إلى النهر، العيون الواسعة، والأنوف المنمقة والشفاه الرقيقة ولون البشرة الذي لم أجد له وصفا، والذي سمى العربُ الفرسَ لأجله بني الأصفر.

ورد تشبههن بالتأكيد لأنها فارسية، من همذان، لون وجهها نفس لون وجوههن الدافئ، وبشرتها صافية كبشرتهن، وعيناها بنيتان عميقتان، وشعرها بلون خشب شجر الجوز الممتدة في الطريق إلى النهر.

تخفي الأغصان الكثيفة سماء أصفهان الصافية، وتجعل شوارعها حديقة واسعة.

وإلى النهر، مع الأشجار تنحدر على جانبي الطريق جداول صغيرة تسقي هذه الأشجار.

صوت الماء الجاري لا ينقطع هنا أينما سرت، أنهار صغيرة حول الأشجار المزروعة بين الأرصفة والشوارع.

لا تفاجئني أصفهان، رغم تفردها في كل شيء ... المفاجأة مربكة دائما، تصرفنا عن الإدراك الحقيقي، وتخفي خلفها أشياء قد تكون صغيرة، لا قيمة لها، لكنها كافية لهدم الحياة حين تظهر لأنها لا تظهر إلا فجأة أيضا.

أصفهان، كانت كالمرأة الفاتنة الذكية، تتسرب في النفس بخفة وهدوء، دون مفاجأة، ودون إرباك، فتظل متعلقا بها، لا تملّها ما امتد بينك وبينها الزمن.

تترك لك دهشات صغيرة، تهبك الفرح، وتعلق قلبك بها.

تماما كما يكتمل خلق الإنسان مرحلة بعد مرحلة، وكما تنمو معارفه، درجة بعد درجة، ينمو حبه براعم صغيرة، تغري بالانتظار، حتى يشهد تفتحها يوم تتفتح زهور نضرة.

أخِف، حتى كأني أحلق، وهواء المدينة يملأ صدري، محملا بظلال الأشجار، وعيون الفتيات السارحات، وألوان الورد المنثور.

تختلط أصوات السيارات، بنداءات البائعين، وأصوات الأطفال، وثرثرات النساء المارات إلى جواري. أترك كل شيء يتخللني، الروائح والأصوات وتعاقب الحركة من حولي.

وأسأل نفسي: أليس هذا هو الفرح؟

إذن فأيّ شيء كانت كل الحياة التي عرفتها في الدنيا قبل أن آتي إلى هنا. وكيف ستكون معاني الأشياء التي اعتدتها حين أعود من جديد إليها.

الفرح، واحد في كيمياء الجسد، لا يختلف إن كان الفرح فرح جائع حاز لقمة بعد انتظار، أو فرح امتلاك شيء بعد أمنية، أو فرح لقاء ولدٍ بعد غيبة. لكنّ من الأفراح أفراحا تنبه كل مستقبلات الحياة فينا، فتكون أوسع أفراح في الدنيا.

خاطرة لا تتسع في نفسي حتى أكون قد وصلت إلى الميدان، وإلى النهر.

حين عبرت الطريق إلى جهة النهر، لم يعد تحت قدمي أرض.

كنت كالطائرة التي بلغت سرعتها حدَّ الطيران، فعَلَت.

لم يعد الهواء محملا بتفاصيله الصغيرة. لا الروائح، ولا الأصوات، ولا العيون.

غابت كلها ولم يبق إلا متعة الانفكاك من أسر العالم.

يا الله!!

لماذا لا يمكننا أن نسع العالم بين ذراعينا، حين يكون بمثل هذا الحب والكرم.

يا الله!

طويلة ممتدة تريد لو تطول السماء.

يا الله..

هي هذا الحضن الواسع للدنيا، حين تكون جميلة رحبة.

وهي الحضن الواسع لنا من ضيقها حين تضيق.

على لساني أجد دعاءً يلح علي: «اللهم، وقد منحتني رؤية هذا الجمال في الدنيا، فلا تحرمنيه في الآخرة».

أصعد الدرج إلى الجسر الحجري، ذي الأقواس الثلاثة والثلاثين. أمسّ بيدي الأعمدة، وفي نفسي رغبة في تقبيلها.

تزيد سرعة الهواء، فكأنه يحضن وجهي في صدره الندي. أمامي على الجسر أربع فتيات، يحرك الهواء أغطية رؤوسهن المسدلة بدلال على أكتافهن. شعورهن البنية تتناثر، مع ضحكاتهن في الهواء.

تضيع الضحكات بين رذاذ الماء المبثوث حولنا وأنا أقطع الجسر وئيدا، وأكاد أمس أحجاره حجرا حجرا.

«ورد» جالسة على ضفة النهر الأخرى، هناك إلى الأسفل تحت الشجرة الكبيرة. شعرها كشعرهن منثور تحت غطاءٍ غير محكم، ساقاها ممدودتان قد عقدت واحدة فوق الأخرى، فيهما حذاء رياضي أبيض، تتكئ بذراعيها خلف ظهرها.

هي «ورد»! أعرفها، حتى إن لم أرها من قبل.

قلبي يعرفها..

«جئت أبحث عن أبي علي، فوجدت ورد، في أول يوم في أصفهان».

لم يكـن هـذا الجسر موجـودا حـين كانـت ورد تعيـش في أصفهان. بُنـي بعد موتها بثمانمائة سـنة أيـام الصفويين. أما ورد فقـد توفيت في أيام السـلاجقة بعد رحيل ابن سـينا بعشرين سـنة كاملة، لتبعث أمامي الآن.

- ورد؟

- مَنْ ورد؟.. قالتها بالعربـية.

مرت لحظة لم أنطق فيها. ماذا فعلت.. كيف تكون ورد هنا الآن.

«آسف»

- مافيش مشكلة.. أنا آواز.

أكرر الاسـم.. آواز.

تهز رأسها: نعم.

- آ و ا ز . يعني؟

- اسـم تركي معناه نغم.

- نغم!

تبتسم.. وهي تهز رأسها بالإيجاب..

- أنـت نغم. تعرفين العربـية .

- شوية، مش كثير. وأعرف التركية والفارسية. أنا تركية من قونـية.

- وأنـا تركي الهوى منذ زمن، منذ كنـت صـغيرا، لا أعرف من اللغة إلا اسـمي. كان عندنا كتاب على غلافه اسـم «محمد الفاتح» وكنـت اعتبره كتابي لأجل «محمد» المكتوبة على الغلاف.

- الفاتح سـلطان عظيم.. مَنْ تعرف أيضـا من تركـيا؟

- سعيد النورسي.

- لا أحبه.. مَنْ أيضـا؟

مادامـت لا تحـب النـورسي، فـكل الذيـن أعرفهم لـن تحبهم لأنهم يدورون في فلكه.

- أعرف عن تاريخ تركيا العثمانية أشياء ليست كثيرة.
- هل تحب أتاتورك؟
- لا.
- لماذا؟

لماذا؟.. لا أحب هذه الأسئلة التي تجعلنا نحتار. لم أفكر من قبل لماذا لا أحبه. لا أحبه كما لا أحبّ أشخاصا كثيرين، وأعتبر أن الناس تشاركني هذا الأمر!

هذا سيءٌ .. لماذا أفترض دائما أن جميع من ألتقي بهم يشبهوني في كل ما أحب وأكره، حتى إذا بدا شيء من الاختلاف توقفت لأفكر، ولا يسعفني تفكيري. أفكر كيف لا تحب النورسي وهي تركية محجبة. ربما هي محجّبة لأنها في إيران ولا تملك الخروج بغير حجاب. الحجاب ليس شعبيا في تركيا، وهو مفروض بالقانون هنا.

سيحل لي الفيس بوك جزءا من هذه المعضلة حين أعود للفندق، فعلى صفحتها، وفي رؤيتها السياسية كتبت: ÜN'ATATÜRK İZİNDEYİM وبغض النظر عن كوني لا أفهم التركية، فاسم أتاتورك «أبو الأتراك» يمكن قراءته. وعليه تكون صديقتي الجديدة أتاتوركية الهوى.. وحيث أني عرفتها على الحقيقة وعرفت أتاتورك على الخيال، فالحقيقة أبقى لي من الخيال. أما بقيّة أجزاء هذه "المعضلة" فسأكتشفها فيما بعد حين أغيّر أسئلتي لما حولي.

أجيبها: من يحب محمد الفاتح، كيف له أن يحب أتاتورك؟

ضحكت حتى أشرق وجهها وهي تقول: وماذا يفعل الفاتح في أصفهان؟

- يتجسس على الصفويين أعداء العثمانيين بالطبع.

عادت ضحكتها أرحب وهي تعتدل في جلستها. «لم يكن على أيام

الفاتح صفويين. أنت ضعيف في التاريخ. حكموا بعد موته بعشرين سنة. «جدا» ماذا تفعل هنا، هل يزور المصريون إيران للسياحة»؟

جدا بالعربية التركية الخاصة بها تساوي «عن جد» بالعربية العامية.

أجيبها:

- المصريون لا يزورون أي مكان للسياحة إلا نادرا، نحن عمليون، نعامل الأماكن عادة بقدر ما تمنحنا من فائدة، جئت في عمل هنا. جئت أبحث عنهما.

- مَنْ؟

- ابن سينا وورد..

- مَنْ؟! ابن سينا، الطبيب؟

- نعم..

- ومَنْ تكون ورد؟

- جاريته طبعا، وأنت ماذا تفعل تركية في أصفهان؟

- أنا أبحث أيضا عنه؟

- ابن سينا؟!

- لا.. جلال الدين..

- الرومي؟

- والبلخي الفارسي، حتى لا يغضب أصدقاؤنا الفرس.

كان وجهها مبتسما وهي تتحدث، فسألتها: بالفارسية كيف نقول «ابتسامتك جميلة».

ضحكت وهي تقول: لبخندت زيباست.. أنت لا تعرف الفارسية؟

- قليل جدا.

- سأعلمك.

- لبخندت زياست.

- لبخندت زياست.

- صح.. زيبا يعني جميل.. لبخند يعني ابتسام.

- شاطرة.

تبدل ابتسامها تعجبا واستفهاما جعلا وجهها أجمل وهي تقول: شاطرة!! يعني إيه؟ تكسر الهمزة جدا فتخرج الياء ضيقة رقيقة.

- مش فاهم!

- بالعامية يعني أحسنت.

- إنتَ شاطرة.

- لا.. أنا شاطر.. أنتِ شاطرة.. أما بالفصحى فمعناها بعيد جدا عن هذا.

- يعني من الشطر الذي هو القسمة؟

- تقال للص، ولمن أعيا أهله خبثا، ولمن غادرهم جاحدا.

- وتستخدمونها للتعبير عن الإحسان.

- نعم.

- أنتم مجرمون.

- من «أنتم»؟

ضحكت جذلة وهي تقول: العرب..

- أنا مصري على أية حال.

- عربي مصري!

- مصري.. عربي يا آواز.

- هل رأيت أصفهان؟

- في الخيال فقط، لم أصلها إلا من ساعة.

- قُم إذن حتى تراها.

سرنا بمحاذاة النهر إلى جهة الغرب.

قالت: هذا جسر سي و سه پول، سيو سه يعني ثلاثا وثلاثين، لأن له ثلاثا وثلاثين قوسا. وهناك في المنتصف، مقهى للشاي. مثله أربعة جسور تعبر هذا النهر. كلها جددت في العهد الصفوي، أقدمها جسر شهرستان بُني قبل الفتح الإسلامي للمدينة.

على ضفة النهر، نكون معزولين تماما عن المدينة، يحجبنا عنها غابات كثيفة من شجر، وورد.

وعلى الرصيف قرب النهر أجهزة تريض مثبتة بالأرض، وبين الأشجار أصدقاء، وعشاق وطلبة ينشرون كتبهم، ويستذكرون. حياة صغيرة من الجنة منثورة على بسط العشب الأخضر.

(ثلاثة تذهب عن قلبي الحزن الماء والخضرة والوجه الحسن)

- كل الوجوه هنا حسنة، من يسكن في الجنة، يصبح جميلا بجمالها.

أشير إلى الطلبة المجتمعين للمذاكرة، تقول: نحن في أيام الامتحان الوطني، هو امتحان كبير يؤديه كل من يريد الالتحاق بالجامعات الإيرانية، وبناء عليه تتحدد الكلية التي سيدرس فيها. هل يوجد مثل هذا الامتحان في مصر؟

- لا، عندنا فقط امتحان الثانوية العامة.

- هذا يكون بعد امتحان السنة الأخيرة في المدرسة.

- صحيح. كيف يرى المصريون الأتراك؟

- «انتي مصرية خارة»...

- ....

- كان هذا فيما مضى، الآن غزت تركيا مصر بسيرة رجال السياسة فيها، وبمسلسلاتها أيضا، يكفينا مهند ونور ويحيى ولميس!.

ضحكنا، ونحن نكمل سيرنا بين أشجار كورنيش أصفهان. تحكي هي ما تعرفه من تاريخ المدينة، منذ بناها اليهود على عهد الملك كورش العظيم، الذي حررهم من بابل، صحبه من لم يعد منهم لأورشليم إلى بلاد فارس، وحين وصلوا إلى هذه الأرض، استطابوا جوها، وأحسوا أنه يشبه جو أورشليم، فبنوا المدينة.

«لابد أن تجد امرأة يهودية بعد كل حدث ملفت في التاريخ، تقول الروايات إن كورَش كانت زوجته يهودية، كما كانت زوجة السلطان سليمان القانوني أيضا يهودية، وكانت بوابة الأحداث الكبيرة في تاريخ العثمانيين.

هذا الرجل الذي فتح بلجراد، ورودس، وهزم المجر في معركة لازالوا يذكرونها في أمثالهم إلى اليوم، فيقولون: «أسوأ من هزيمتنا بموهاكس»، الرجل الذي قال عنه المؤرخون الإنجليز «إن يوم موته كان من أيام أعياد نصارى أوروبا». هو الذي كفّ أيدي المسلمين التتر عن الإغارة على الروس نزولا على طلب زوجته اليهودية الروسية «روكسلان».

ولم يكن الروس بحاجة إلا لهدنة يجمعهم فيها «إيفان الثالث» ويوحد صفوفهم، ثم ينتزع لقبه الشهير «إيفان الرهيب» بمذابحه للمسلمين في بلاد القرم.

روكسلان أيضا هي التي أقنعت زوجها السلطان بتسكين اليهود الذين طردهم الإسبان بعد سقوط الأندلس في بلاد الإمبراطورية العثمانية.

روكسلان ومعها الصدر الأعظم زوج ابنتها هما اللذان دفعا سليمان ليستدعي ابنه وولي عهده مصطفى من حربه مع الصفويين، ليقتله فيخلوا الطريق لابنها سليم الثاني سلطانا بعد أبيه، ثم للصفويين في الشرق بعد ذلك.

نحن الآن يا سيدي، نسير في عاصمة الصفويين، التي قضت نصف حروبها ضد تركيا. ما رأيك بهذه المفارقة؟

- سخرية الزمن من ساكني قبور التاريخ. لا شيء يبقى للأبد، لا مَلك ولا مُلك. لا ظالم ولا مظلوم، الجميع يرحلون، تاركين سيرهم، ومدنهم.. نسير فيها.

- ومع ذلك، يصر الناس على تحضير التاريخ، ويا ليتهم يحضرون روحه الطيبة. الناس لا تحضر من التاريخ إلا روحه الخبيثة دائما.

- هي الأسرع في الحضور، لأنها قلقة في الجحيم. أما الروح الطيبة، فلن تترك الجنة لندنسها من جديد.

بلغنا صوت الأذان، خافتا من بين الأشجار، كان صوتا جميلا، ناعما. حتى وصل إلى عبارة «أشهد أن عليا ولي الله» قالت:

- أنا شافعية. وأنت؟

- سني.. مصري.

- لا أفهم.

- في مصر نعبد الله بالأيسر في المذاهب، فنحن نتزوج على مذهب الإمام أبي حنيفة، ونبيع ونشتري بمذهب الإمام الشافعي. ولو كان للشيعة وجود كبير في مصر لصلينا على مذهبهم ثلاث مرات في اليوم اختصاراً.

رنت ضحكتها من جديد، وهي تقول: ألم أقل لك، أنتم مجرمون.. المصريون مجرمون.

- هل ألقاكِ غدا؟

- أغدا ألقاك. قالتها بلحن أغنية أم كلثوم. ثم تابعت: أنا أحب أم كلثوم كثيرا. أكون في الجامعة صباحا، بعد الظهر نلتقي. أين ستذهب في الصباح؟

- لا أعرف بعد، المكان الأقرب إلى الفندق حسب الخريطة هو حمام قلي آقا ، سأذهب إليه أولا ثم أذهب إلى چهلستون.

- أقابلك هناك إذن، في چهلستون. في حضرة الشاه عباس الصفوي.

تبادلنا أرقام الهواتف، وعناوين البريد وسرنا عائدين ناحية الجسر.

في مفكرتي كتبت: «آواز تركية، من قونية، لا تحب سعيد النورسي، وتحب أتاتورك، وتصوت لأردوغان في الانتخابات وتعتبر السلطان محمد خان الثاني (الفاتح) رجلا عظيما.. أنا أحب تركيا، والسلطان محمد خان الثاني».

***

(دو)

لم نتحدث أي كلمة منذ وصلنا إلى القصر.

كانت الموسيقى تعزف من سماعات موزعة بين أشجار الحديقة، تقاسيمَ فارسية على آلات وترية، وحولها صوت خرير الماء من نافورة البحيرة الكبيرة.

القصر هو چهلستون.. قصر الأربعين عامودا.

ترتفع الأعمدة الخشبية الدقيقة في قاعة مسماة باسمها «قاعة الأعمدة» تحمل سقفا مكسواً بخشب منقوش، يعكسها ماء البحيرة الواسعة، فتتضاعف للداخل من البوابة، أربعين عامودا، عِلّة تسمية القصر بهذا الاسم.

في الحقيقة هي الآن ثمانية عشر عامودا فقط، تنعكس فتصبح ستا وثلاثين، لا أعرف إن كانت عشرين حين بنيت، أم اختار الفرس اسم قصر «الأربعين عامودا» تيمنا بعدد يحملون له تقديرا خاصا.

الأعمدة محاطة بصناديق من الزجاج بارتفاع قامة الرجل المتوسط، تمنعني من تحسس نقوشها، أتابعها بعيني حتى تلتقي بالسقف الذي يتابع نقوشها، ويزيد عليها قطعا صغيرة مشكّلة من المرايا.

تفضي هذه القاعة إلى قاعة أخرى داخلية. مزينة برسوم ملونة على الجدران، زخارف نباتية، وتصاوير تحكي تفاصيل حياة ملوك الصفويين أصحاب القصر الأوَل.

بدأ بناء هذا القصر في عهد الشاه عباس الصفوي الأول، في وسط حديقة واسعة، واكتمل في عهد الشاه عباس الثاني. لا أعرف هل قدّر أنه سيموت قبل اكتماله، أم لا. الملوك لا يبنون القصور ليعيشوا فيها، القصور تُبنى لتؤكد أبّهة الدولة، وقوتها؛ لتظل دعاية خالدة مع الزمن.

تماما كجامع محمد علي الذي استغرق بناؤه خمس عشرة سنة، وانتهى بعد وفاته ليدفن فيه وليتحول اسم قلعة صلاح الدين إلى قلعة محمد علي لأجل هذا الرمز الذي تُرى مآذنه من حيث لا يمكن أن تُرى أبراج القلعة.

أكمل بخيالي صورة القصر. أكسو النوافذ ستائر من الحرير، والأرض سجاجيد من الصوف كتلك المعلقة في متحف طهران، أوزع الأرائك، والمناضد والأسرّة، والتحف الهندية، ومنمنمات العاج الإفريقية على الطاولات وأحس الحياة وهي تتسرب إلى كل ما حولي.

أسمع همس العمال والعبيد والجواري، تُفتح نافذة في الطابق الأول، وتنشر منها أغطية الأسرّة في الشمس. تحمل صواني الإفطار، عليها فواكه، وعسل وجبن وخبز.

وفي ممر ضيق مزين، على جداره صورة لجارية ينام سيدها على فخذها، وهي تشير إلى رجل قادم ألا يتحدث، أسمع همسها وهي تقول للقادم: لا توقظوا سيدي، إنه نائم.

كم جارية عاشقة لقيت حبيبها خفية في هذا الممر؟

في اللوحة التي قبلها كانت تغني الجارية للأمير، كاشفة صدرها، بيدها دف كبير. وهو جالس ممسكا عنقودا من العنب بيد، ويضع حبة منه بالأخرى في فمه، وأمامه طبق كبير فيه عنب وتين وكرز.

وفي الجدار التالي، صوت سنابك الخيل، وأزيز الرماح التي تمرق الهواء في رحلة صيد. وعلى الجدار المقابل نساء يخضضن اللبن، ويشوين غزالا صيد في اللوحة السابقة، وحولهن الأطفال يلعبون.

كان لابد للعرب أن يفتحوا فارس، أولا لأجل أن أرى هذه الأشياء، ثم لأجل أن يعرفوا شيئا من أوصاف الجنة التي وعدها الله لهم. وإلا فمن أين لأهل الصحراء أن يغريهم وصف ما لا يعرفون.

تهزني يد آواز برفق لأفيق من أحلامي.

«أصغ».. تستعمل لفظ الإصغاء دائما للسماع. أحبه منها كثيرا.

كنا قد خرجنا من باب صغير إلى شرفة تطل على الحديقة، كان لحنا سريعا صاعدا نحو السماء. وفيه غناء بنغم سريع. كان الغناء ذائبا في اللحن فلن أتبين منه كلمة واحدة. قالت: «هذه الأبيات لجلال الدين، وهذا المغني هو شجريان»

- ماذا يقول؟

- حكاية ميلاد قلبه.. يقول:

مرده بودم زنده شدم گريه بودم خنده شدم

دولت عشق آمد و من دولت پاينده شدم

كنت ميتا فأصبحت حيا. كنت باكيا فغدوت ضاحكا.

لما جئت دولةَ العشق، صرتُ دولةَ الخالدين.

جئتهم أطلب الدخول، قالوا لست مسلسلا بالحب، عد.

عدتُ مسلسلا، فقالوا لست سكرانا.. فسكرت..

قالوا لن نعطيك جناحا..

وأنا لا جناح لي.

أنا تائه بغير جناح وريش.

يا رب أنت ضوء الشمس وأنا ظل الصفصاف.

فاجعلني منيرا، بك يا مالك الملك.

استطعت أن أميز السلاسل والملك من الأغنية..

يمتد صوته في آخر الأبيات وهو يقول: من كرمه وعفوه أصبحت منيرا.

***

«ولد جلال الدين في بلخ، مسلم حنفي، لأب عالم. رحل من بلخ إلى مكة، ثم إلى بلاد الروم السلاجقة، باحثا عن الحقيقة. وحيدا في قونية بلدتي، يتأمل السماء حين دعاه شمس تبريز:

- ماذا تفعل هنا أيها الصبي؟

- أبحث في عالم الشعر والخيال، واستلهم الوحي والجمال. أتأمل هذه الموجودات التي أوجدها موجدها فيختلط الأمر علي، فلا أعرف كيف السلوك إلى معارج الحقيقة الكامنة خلفها.

رد الشيخ: أنا من يدلك على ما تبحث عنه.

أمسك يده، وسار به يرتقي سماء بعد سماء، وجلال الدين يرق ويصفو، وكلما صفا أدرك. حتى بلغا ما يبلغه الأحياء من الفراق. رحل شمس تبريز، صعد نورا إلى السماء، وفارقه.

عاد جلال وحيدا، بعد أن جرب حلاوة الأنس.

دار يبحث عن شمس، في كل ما حوله. يدور، ويدور ويغني مع نايه الحزين:

تجل بوجهك، فإن مناي الحقيقة وبستان الورد. وافتح شفتيك فإن مناي الشهد الكثير.

صار دورانه رقصا، وإنشاده ذكرا، وهو يبحث عن سر أسرار الجمال:

«إن في يد كل واحد فُتاتا من الحسن، وغايتي منجم الملاحة ومعدنها. ومهما كنت

مفلسا فلن أقبل نثار العقيق فلا رجاء لي إلا المنجم المتلألئ.

إلى منجم اللآلئ تهفو أفئدة المحبين، إن الروح التي ليس شعارها الجمال والحب، من الخير ألا توجد».

«كن ثملا بالعشق فإن الوجود كله عشق. وفي كل قلب وردة..»

تكمل آواز: «لقد جعل السماع طريقا إلى الله. كانت أداته لتطهير النفس، والسمو بها. كان نقيا يقبل الجميع ولا يرد أحدا، وفي جنازته سار خلفه أتباع خمس ملل. كانوا جميعا مستظلين بظله.

أوصى صفيه حسام الدين، قبل أن يموت: «لا تحزن إذا رأيتني أهبط في القبر، فهبوطه صعود، والغروب لا يضير الشمس أو القمر، فهو غروب من جهة، وشروق في أخرى. وأيّ حبة دفنت في الأرض ثم لم تنبت شجرة وارفة بعد ذلك».

كانت آواز كمن تغرد، لا كمن يحكي.

أراقب شفتيها، وهما يقبلان الكلام قبل أن يخرج، أترك صوتها يرن في أطرافي، وأحس فعله في نفسي، تتسع، وكأنما تباعدت ذراتها، وتسقي ما بينها فرحا. كانت تملك روحا بيضاء، وهي تتحدث عنه. هل هذه روحها، تخلعها على جلال الدين، أم روح جلال هي التي تكسوها الآن؟

أيهما الشمس، وأيهما القمر؟

سكتت، حين رأتني أتأملها. فقلت: ماذا تعني أحبك بالفارسية؟

- من دوستت دارم.

قالتها بتلقائية سريعة، ثم تبينت، فأطرقت وجهها خجلا.

سرنا في حديقة القصر الواسعة، عبرنا جدولا صغيرا، على جسر خشبي، ثم دخلنا

غابة كثيفة الشجر إلى يميننا، وجلسنا تحت شجرة كبيرة.

كانت الأرض ندية، والهواء رقيقا، مع أننا في الصيف.

أرادت أن تقطع صمت الحرج، فقالت:

«كنت أظن أن التصوف لم يكن إلا علاجا لحالة اكتئاب عامة أحاطت بالمسلمين. كانوا أنصاف تعساء في عهد الأمويين، ثم تعساء في العصر

العباسي الأول، ثم تعساء وبؤساء في العصر العباسي الثاني، ثم تعساء بؤساء فقراء، بعد أن نهبهم الفاطميون، وسلبوا أموالهم يحملوها لإمام الزمان حتى أن إبل عبد الله الفاطمي حين خرج من تونس إلى مصر كانت تربو عن خمسمائة ناقة تحمل ذهبا لا يعرف الناس حصره.

جاء قوم لم تعجبهم حلول الشيعة ولا حلول السنة لإدارة الأمة، وسلكوا طريقا أخرى، اعتزلوا كل صراع، وزكوا أنفسهم، تعاهدوها بالرياضة ورأوا ذلك طريق الخير في الدنيا وفي الآخرة. رأوا أن النفس المتعلقة بالخير لا تظلم، وأن النفس التواقة للجمال لا تظلم، وأن النفس الذائبة في الحب لا تظلم. وهل تعذب الناس إلا بالظلم».

- شيء من هذا صحيح.

- بل كثير من هذا صحيح، هذا رأي دكتور مصري بالمناسبة اسمه حسين مؤنس. لكنني لا أحب اعتباره «نوعا من الهروب»..

- لا أعرف. لكن حتى في أيام الانتكاسات القريبة، امتلأت المساجد بالمصلين، المبتهلين، كما امتلأت الخمارات بالسكارى.. كلاهما هارب من مرار ما حدث.

- وهل تسوي بينهما؟

- ربما نعم.

- ليس التصوف امتلاء المساجد، ولا كثرة الذاكرين. التصوف رحلة القلب إلى الحب الأكمل. إنها رحلة بناء في الحقيقة لا رحلة انعزال وزهد، رحلة بناء الإنسان، وبناء الحياة معه.

- نعم..

- هيا بنا إذن..

***

(سه)

خرجنا من القصر، وكنا جائعَيْن.

حين أكون وحدي لا أستطيع إلا طلب الأشياء المتشابهة في أسمائها الفارسية مع العربية. لا يكون أمامي مساحة كبيرة لأتحرك فيها، معرفة البائعين وعمال المطاعم هنا باللغات الأخرى قليلة جدا. لأنه لا يأتي إلى هنا أجانب كثيرون.

- هذا أفضل بالتأكيد، أقصد ألا يكون الزوار الأجانب كثيرين، هل بنى الناس هذه المدينة لينعموا بها أم ليزورها السائحون، يلتقطون الصور. العقل الذى تسوقه أمريكا يجب أن يرى العالم كله متنزها مفتوحا له، يمنحه هو الحياة حين يريد، أو يتركها جنانًا مهجورة لا حياة فيها حين يريد أيضا.

- غريب.. أدبيات أوروبا ترى الشرق ساحرا دائما.

- وتراه بدائيا متخلفا مقموعا. يرون الشرق ساحرا، مليئا بالخيرات، ويرون الطبيعة ظالمة حين فعلت ذلك. الأمر قديم، ربما يبدأ الجزء القريب منه منذ خمسمائة سنة، مع رحلة كريستوفر كولومبس إلى الشرق. هل لديك وقت لتسمع هذه المحاضرة.

- الحقيقة أن يومنا مليء بالمحاضرات. أسمع ونحن نأكل.

- هل مللت؟

- أبدا. وهل كنت أطمع في صحبة أجمل من هذه.

- إذن.. ماذا تريد أن تأكل أولاً؟

- شيء لن آكله في مصر. الأسفيداج، والسكباج، والدوغباج وشراب السكنجبين، والخلنجبين والجلاب والفالوذج.

ضحكت وهي تقول: ما هذا؟

- هكذا أحفظها، أسماء أطعمة فارسية عند الجاحظ. كيف كانوا يتداولون هذه الأسماء؟!

- لا أعرفها! ليت الأمر وقف عند أسماء الأطعمة، ماذا تقول في هذا البيت: لنا جلسان عندها وبنفسجٌ وسِيْسَنْبَرٌ والمَرْزَجُوشُ مُنَمْنِما، فارسي أم عربي؟!

ضحكت من غرابة البيت، ومن كلماته التي تستقر فيه كأنها عربية، تستتر بأوزان الشعر العربي. كلمات كثيرة أجادت التخفي في العربية بقدرتها على الذوبان في أوزانها، حتى لا تكشفها الأذن. كتاج وهي فارسية، توّج يتوّج تتويجا. قواعد النحو كقواعد المنطق وأصول الفقه، يدخل الشيء مشوشا أول الأمر، ويخرج وقد اتسق، خلقا آخر.

قالت:

- على أيّ حال لدي اقتراح، لأني أريد أن أريك حديقة الطيور اليوم، ولن يكون أمامنا وقت إن جلسنا للطعام، لذا سنأخذ شيئا سريعا معا، ونذهب. ما رأيك؟

- حديقة الطيور؟!

- نعم.. ستعجبك.

- لا بأس.

توقفنا لشراء ساندويتشات «كباب تركي» من مطعم قريب. يقف الرجل أمام اسطوانة الشاورما التي نعرفها، يقطع منه، ويخلطه بالطماطم والخضراوات. ثم يضعه في خبز كبير.

كان كبيرا جدا، قطعة كبيرة من الخبز، مملوءة باللحم والخضراوات، أراقبه وأسأل نفسي كيف يؤكل هذا الشيء «سريعا».

نركب سيارة أجرة، وتقول للسائق: باغ پرندگان.

تتحرك السيارة ونعود نحن إلى عيون الغرب.

- هل تعرف ما الذي حرك رحلة كولومبس ناحية الغرب بالأساس.

- كان يريد أن يصل إلى الهند، معتمدا على كروية الأرض.

- ولماذا أراد الذهاب إلى الهند، بهذا الدوران.

- متعة الاكتشاف.

- وهل يمول الحكام متعة الاكتشاف إن لم يكن وراءها مصلحة أخرى. لقد رفض طلبه مجلس الشيوخ في جنوة، والملك هنري السابع ملك إنجلترا. أما الذين قبلوا عرضه فهم ملوك إسبانيا الكاثوليك. في أيّ سنة؟

- لا أعرف.

- ١٤٩٢ م.. السنة التي سقطت فيها غرناطة.

- ربما كانت مصادفة!

- ربما.. ألا يمكننا افتراض أن إسبانيا أرادت أن تؤمن طريق تجارتها إلى الهند، دون أن تمر على بلاد الشرق المسلم.

- هل هذا صحيح؟

- سنفترض ذلك، لو جعلنا السؤال: ماذا كانت ستجني إسبانيا من الوصول إلى الهند من هذا الطريق. بالتأكيد لم يكن فرناندو الثاني مهتما بإثبات كروية الأرض. كانت إسبانيا تريد أن تؤمن طرقها، وتعزل الشرق المسلم عن جزء مهم من مقومات حياته، فتجارة الصين والهند، كلها تقطع الطريق عبر أراضيه إلى أفريقيا وإلى أوروبا.

- ممكن!

- لو حاولنا رؤية العالم في ذلك الوقت بصورة متراكبة، ربما أمكننا أن نضع أيدينا على جزء مهم من تكوين العقل الأوروبي الحديث. هذا مهم بالتأكيد لمن يرحل بين العصور.

- نعم.

- في بداية الألف الثانية، ظهر ما يمكننا أن نسميه «شيطنة المسلمين»، أقصد الشيطنة المنظمة، ستجد مثلا أن دانتي شاعر إيطاليا قد وضع النبي محمد في أعماق الجحيم في كوميدياه الإلهية. هناك أدلة كثيرة يمكن سردها، وهناك شواهد ثقافية وعسكرية أيضا. المؤكد أن الشرق وأعني هنا الشرق كله، آسيا كلها، كان متفوقا على الغرب حتى مطلع القرن التاسع عشر.

- مم.

- الأوروبيون يضعون لأنفسهم نسبا خاصا، فاليونان القديمة ولدت روما، وأنجبت روما أوروبا المسيحية، وأنجبت أوروبا المسيحية عصر النهضة، وأنجب عصر النهضة عصر التنوير وأنجب التنوير الديموقراطية السياسية والثورة الصناعية ونظام الدولة الحديثة ومقومات النهضة وتعاريف الحياة الرغدة.. سلسلة نسب مستقلة معزولة عن كل شيء كما ترى. أين موضع الحضارة المصرية القديمة من هذه السلسلة، أين موضع الحضارة الصينية، أين يرد ذكر بلاد فارس سوى في حروب الاسكندر، أين نظم الدول المختلفة على مر السنين، أين حتى أساليب الرفاهية.. ربما تجدها تمثل روافد باهتة في الأنظمة الحديثة لكنها لا تعبر تطورا لها.. الذي أومن به تاريخيا أنه حيث كان الإنسان، كانت الحياة تتطور، لأن حاجات الإنسان الدافعة للبحث واحدة، وفي كل بيئة ما يعينه على ذلك. هذا هو عدل الطبيعة.

- لكن أوروبا هي التي اكتشفت أجزاء كثيرة من الحضارة المصرية القديمة. لو كان الأمر كذلك، لما اهتمت بها. أو على الأقل لم تكن لتروج لها.

- أوروبا هي التي اكتشفت، وهي التي سوّقت ما اكتشفته.

- كان بإمكانها أن تخفيه عنا.

- ولماذا تفعل ذلك، لماذا لا تترك لك فرحا صغيرا تنشغل به عن أشياء أكبر. تفرح أنت الشرقي، بأن أوروبا مهتمة بتاريخك، تقول لك إن أجدادك كانوا عظاما، ونحن سنعطيك أشياء لأجل ذلك، سنزور بلدك، ونمنحك نقودا تحسن عيشك. أنت فقير لا تستطيع تحمل نفقات اكتشاف هذا التاريخ، ولا دراسة ما يمكن استثماره به. باختصار أنت عقبة في طريق كنز إنساني ثمين.

كانت السيارة تسير في محاذاة نهر زاينده رود، ينعطف السائق في أحياء صغيرة قديمة، ثم يخرج من جديد ناحية النهر. كنا نخرج من المدينة العامرة إلى ضواحيها.

- الحديقة خارج أصفهان؟!

- ليست بعيدة. معك الخريطة؟

- ها هي.

تفرد الخريطة الصغيرة التي معي، وتشير إلى مكان الحديقة. «لو سرنا في النهر، لوصلنا أسرع».

- أحب المدن التي تبنى على الأنهار. يصبح النهر هو كل موازينها.

- في المدن الإسلامية يكون المسجد وبيت الإمارة هما الميزان، لا النهر. في أصفهان القديمة، وفي همذان وفي بغداد تدور المدينة حول المسجد وبيت الإمارة ..

- بيت الإمارة هو الذي يستمد مركزيته من المسجد.

- سيّان .. دائما كان بيت الإمارة متعلقا بدار العبادة، مسجدا أو بيت نار قبل أن يكون في إيران مساجد. هذه إحدى تجارب البشر التي أثبت نجاحا لفرض النظام، القانون وحده ليس رادعا، والسماء وحدها ليست رادعة أيضا، ربما وهما معا يصبح الأمر أيسر.

- لم يكن ذلك دائما لفرض النظام.

- بل كان، انحرف بعد ذلك، هذا صحيح. انحرافه لا يعني أن هذه العلاقة بالضرورة تؤول إلى الانحراف، لكنه يعني أنها تحتاج إلى موازين. بعض هذا الموازين وُجد في النظام الإسلامي، نظريا على الأقل. لم يُفعّل إلا قليلا، وعُطل بعد ذلك، يمكننا أن نعتبر تعطيله ردة إلى زمن الجاهلية.

كانت السيارة قد بدأت تستعد للوقوف، تسير على أرض ترابية، لا صوت حولنا إلا صوت عجلاتها والأحجار تقرقع تحتها.

سألتها لماذا تبدو إيران صامتة دائما كأنها مهجورة، كم عدد سكان إيران؟

- سبعون مليونا.

- كثير.

- لكنهم موزعون على مساحة واسعة، ضعف مساحة تركيا تقريبا.

حديقة الطيور غابة واسعة، تحيطها خيمة عالية من الأسلاك، تحفظ الطيور من الطيران بعيدا، لكنها تمنحها الحرية في تحليق محدود داخلها.

طوواويس ملونة وبيضاء، وفلامنكو، وبط وبجع وإوزّ، وبلابل مغردة، تسرح حرة، تمر بين أقدام الناس لا يزعجها أحد.

«هنا لا مكان للتاريخ. ولا للجغرافيا. يمكنني أن أبحث عن مواطن هذه الطيور فيما بعد.. الآن سنغض الطرف عن هذه اللوحة التي تقول: لا تتعقب الطيور، ونتعقبها».

في البحيرة، يسبح البجع، وفي ظل شجرة تنام واحدة منهن، قد لوت عنقها حتى أخفت رأسها تحت جناحها.

يتشاجر طائرا فلامنكو، يرفعان رأسيهما عاليا، ينقر أحدهما رأس الآخر، ولهما جلبة عالية. ساقاهما طويلتان، دقيقتان، فيهما مفصل كأنه

ركبة صغيرة، تجعل سيرهما رقص، ينزل برقبته العالية إلى الماء ليشرب، حركته ناعمة، وذيله فيه حمرة لطيفة.

يبدو البط سعيدا، وهو يعثر الماء بقدميه، ثم ينزلق سابحا بلا صوت. أين هذا البط من ذلك السارح في ترعة قريتنا. لو يعلم البط هناك ما يلاقيه البط هنا من دلال، لتظاهر حتى ينال حقه أمام هذه التفرقة الواسعة.

في الحديقة بِرْجُولة، برَاجِيل، برجولات.. لا أعرف على أي جمْع تُجمَع هذه الكلمة، ولا من أيِّ لغة جاءت، المهم أنه في منطقة البراجيلَ هذه لوحة كبيرة مكتوب عليها بالعربية قول الله تعالى: ﴿ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾. ثم ترجمتها إلى الفارسية، والإنجليزية.

آيات القرآن تملأ كل جدار في إيران، حتى جدران الحدائق. منمقة بخط فارسي ومترجمة إلى الفارسية والانجليزية معا.

لو يملأ القرآن القلوب في كل مكان يكتب فيه، لتغير وجه العالم.. وأنّى ذلك!

كان الشجر يحجب أكثر الحديقة ونحن نجلس في البرجولة، ودجاجة ضلت طريقها فلم تعد تعرف كيف تخرج من متاهة الأشجار هذه، تدور بين الناس تبحث عن مخرج لها، وكلما رأيتها أصورها، وأنا أتابعها لأرى كيف تتصرف.

ملأني كل ما حولي أنسا وتذكرت ما كنت أشعر به إذا قرأت آيات سورة «المؤمنون»:

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾.

المؤمنون سورة رقيقة، ربما لتشابه إحساسي حين أسمعها، وإحساسي الآن تذكرتها.

مـا الذي يجعل كلمة كجنـات، أو نخيل، أو أعنـاب تبدو أكثر جمالا هنـا.

ربما هو توافق جمال الفرد مع جمال ما يحيطه.

لا شيء يَكمُل جماله حين يكون وحيدا. حتى القرآن فرّق في استعماله للكلمـة فيما هو وحيد، وما هو بمشـاركة. سـمى الشيء الجميل في ذاته غير المرتبط بتلقي أحدٍ له حُسْـنا، وسـمى ما تعلق بأثره في نفوس الناس جمالا.

قال في العمل الصالح، وفي وصف الجنة، وفي صورة النسـاء حُسْـنا. أما الصبر والصفح وحتى الهجران ففيه أمر بالجمال.

أود لو أسجد سجدة طويلة في هذا المكان.

في نفسي خجل يمنعني من ذلك.

أراقب الناس حولي حتى يخف عددهم، فلا يخف.

يدخلون ويخرجون.

أغمض عيني تاركا الأصوات من حولي تذوب في حفيف الشجر..

ثم أعود فأفتحها من جديد..

لا شيء حولي هنا إلا الله.

«تجلَّى بِمَا تَشَاءْ

مِثْلَ تَجَلِّيْكَ عَلَى صُورَتِكَ فِي أَحْسَنِ صُورَةْ

وَالصُّورَةُ هِيَ الرُّوحُ الذي أَفْرَدْتَهُ بِالبَيَانِ والقُدْرَةْ»

وهل أملك أمام هذا الحسن ألا أسجد.

وعلى الأرض، أول معراج السماء.

سجدت.. وتركت نفسي كأنما تنسكب الدنيا منها. وتعلو بها الكلمة ﴿سبحان ربي الأعلى﴾ علوا يليق بمقامه.

﴿سبحان ربي الأعلى﴾.

وأي عين ترى ما أرى ثم لا تفيض باكية تود لو يغسل البكاء كل شيء فيها.

اللهم بحق هذا الذي أريتنيه، وهذا الذي علمتنيه..

أتكون هذه الشجرة خيراً مني..

يذكُرك من يراها، ولا يذكرك حين يراني.

أتكون هذه الدجاجة التي ما فتئت تبحث عن مخرج، وأنا سعيد بحثها خيرا مني، تحمل آيات قدرتك، ولا أحمل إلا آيات جحود الإنسان وتكبره.

هبْني الصفو والعفو، والأنس والرضا.

وهبْني أجنحة أحلق بها إليك، فأكون كالطير، لا أرى من العالم إلا جماله وقدرتك.

يا ودود.

***

على باب الحديقة ونحن عائدان قلت لآواز: لأجل هذا وُلِد تصوّف المسلمين هنا.

ابتسمت بسمةً عذبة فقلت: تو زيبايى هنگامى كه لبخندت مي زنّي.

رنت ضحكتها الصافية، تلك التي تجعل كل شيء ينير ويضحك، وهي تقول: تعلمتَ سريعا.. شاطر.

واتفقنا على أن نلتقي صباح الغد، لنكمل ما بدأناه.

***

(چهار)

وصلتُ الفندق، وقد بقي على موعد العِشاء ساعة.

في الصيف تتأخر العِشاء في أصفهان إلى ما بعد العاشرة مساء، لا أذان هناك لأعرف به المَوعد، عند الشيعة يُؤَذِّن للصلاة ثلاث مرات فقط. للفجر، وعند زوال الشمس وقت الظهر وعند غروبها، يجمعون صلاة النهار وصلاة الليل من دون سفر كما نفعل نحن.

كنت فرحا و أنا أشعر أن أصفهان تتودد إليّ بأميرة تركية.

على الهاتف إشارة رسالة لم أتنبه لها:

«ازيک. وصلت إلى الفندق. أنت بخير»؟

أقول لنفسي: المدينة التي فيها روح امرأة تفكر فيك، هي صورة الجنة على الأرض.

«نعم بخير، وصلت منذ قليل، شكرا لليوم الجميل ولاهتمامك. سأكتب قليلا قبل أن أنام، أراك في الصباح».

استعدت حديثنا كله، كانت روح آواز تتسرب في الأشياء من حولي.

أعلّم الطرق التي سرت فيها والأماكن التي رأيتها على الخريطة، أدون أسماءها، ومعها الكلمات التي تعلمتها في دفتري الصغير.

تحضر آواز في تفاصيل ما أفعل، فأتنبه فجأة لما يحدث.

كان يمكن أن يصبح لقاؤنا الأول عابرا، ككل اللقاءات التي تتم في السفر.

لكنها أدركتني في قصر چهلستون.

في الصباح ذهبت وحدي إلى حمام علي قلي، سرت منه حسب شوارع الخريطة إلى القصر. استغرق سيري ساعة تقريبا، أعبر الشارع والجسور الصغيرة فوق مجاري المياه لأصل إلى جهة القصر، أسير مع سوره الضخم

حتى أصل إلى تقاطع الطريق. لا يكشف السور إلا جزءا صغيرا من الحديقة الكبيرة، تخفي أشجار الحديقة كل شيء خلفها. الطريق أيضا مظللة بالأشجار، وعلى الأرض نقوش تصنعها أشعة الشمس التي تمكنت من التسلل عبر الغصون المتشابكة.

رنّ هاتفي وأنا عند التقاطع.. جاء صوتها يقول: «إنتَ فِين، أنا قادمة».

انتظرتها في متحف التاريخ الطبيعي، أول قاعات مجموعة قصور جهلستون، حيث يقف مجسم ديناصور كبير في الساحة إلى جوار بركة الماء الواسعة، يخبر الناس بأن قصور الملوك، تسكنها اليوم حيوانات قادمة من كل حقب الزمن.

كان إحساسي بأنني «إنسانٌ جديدٌ» يجعلني أتلقى الأشياء بسهولة، وسرعة.

حدث ذلك منذ وصلت إلى طهران، لا تاريخ شخصي يلح عليّ، ولا قيود. تركت كل شيء في القاهرة، وجئت كأني ولدت جديدا لحظة وصلت، أفتش بدهشة في كل ما حولي، وكانت الدنيا لطيفة معي، فلم ترني من كل شيء إلا أجمله.

كل شيء جميل ونافع. كما كان آدم يفكر في الأشياء من حوله، قبل أن يكون في الدنيا تنافس، ويكون فيها شر وأذى.

لم أعارض فرح حضور آواز في خاطري، كانت المدينة أجمل من أن يتحملها قلبُ رجل مفرد، أو قلب رجل منهك.

وكنت أنا كليهما. رجل مفرد، ورجل منهك.

لا أعلم إلى أين يمكن أن يسير الأمر، ولم يشغلني ذلك. من علامات القلب المنهك ألا يهتم بسير الأشياء. لا طاقة فيه ليدير دفة شيء، ولا حتى ليسأل نفسه أسئلة سألها قبل ذلك، وكانت هي سبب إنهاكه.

يرن في أذني صوت أم كلثوم تغني رباعيات الخيام:

«لا تشغل البال بماض الزمان، ولا بآت العيش قبل الأوان، واغنم من الحاضر لذاته فليس في طبع الليالي الأمان»

من جديد أدرك شيئا من أسرارك دون بحث يا عمر.

«حاضر يا ابن الخيام، لن أشغله بشيء».

أخرج أوراقي من الحقيبة وأرتبها على المنضدة الصغيرة أمام المرآة.

كانا كتابين اثنين، تاريخ الفكر العربي، لعمر فرّوخ، وتاريخ الإسلام في إيران لكاتب روسي، وأوراقا دونت فيها ملاحظات كثيرة ليست مرتبة، وفصولا لم تكتمل بعد من روايتي التي بدأتها.

أرسم خط الزمن الذي عاش فيه ابن سينا. بين عامي ٣٧٠ هـ و ٤٢٨ هـ. جاء إلى أصفهان عام ٤١٤ هـ أي قبل وفاته بأربعة عشر عاما، ولقي ورد أول مرة في همذان، قبل فراره إلى أصفهان بحوالي عام ونصف تقريبا.

على الخط، وتحت أسماء المدن أكتب أسماء الدول التي كانت تحكمها في ذلك الوقت. سأحتاج إلى خريطة لأتخيل حدود هذه الدول، ومناطق التداخل بينها.

أحتاج إلى تفاصيل أوسع في سيرة البويهيين والسامانيين، والسلاجقة. وتاريخ الإسماعيليين، والحياة الاجتماعية في العصر العباسي.

ربما أجد شيئا عن الحياة العقلية والاجتماعية فيما كتبه أحمد أمين، في ضحى الإسلام. أتذكر ثورة صديق ذكرت اسم أحمد أمين أمامه، وهو يقول: هذا المعتزلي، لا تأخذ منه شيئا. المعتزلة يقولون بخلق القرآن. ضحكت يومها كثيرا من صورته وهو يتحدث. ألئن مدح الرجل المعتزلة في مقال صار معتزليا.

وهل بقي في الدنيا معتزلة يقولون بخلق القرآن اليوم، ليقول هو به.

«كم نحمل من أوزار الذين سبقونا بغير علم».

«لقد مضت بيننا وبينهم سنون طويلة، رحلوا بأخطائهم، وبقيت في كتب التاريخ مع سيئاتهم مآثرهم».

دونت العبارة في مفكرتي، وتركت الدكتور عمر فروخ يرحل في فكر ابن سينا شارحا رؤيته لله وللعالم، مقارنا بينه وبين سابقيه من المسلمين ومن غيرهم حتى غلبني النعاس فنمت.

* * *

(پنج)

«وصلنا إلى «نقش جهان» ثاني أكبر ميادين العالم»

لم أنتبه حتى قالت آواز هذه العبارة. كنا نتحدث ونحن نسير. قطعنا الطريق في نصف ساعة من ميدان الإمام حسين إلى هنا.

ماذا أفعل الآن؟

كان الميدان كله إلى يميني. أعرف ما سأراه من الصور التي جمعتها قبل أن آتي إلى هنا. هذا الميدان تحديدا كنت أضع صورته خلفية لجهازي.

سيكون في مواجهتي إذا نظرت إلى اليمين مباشرة مسجد الشاه، الذي أصبح يحمل اسم مسجد الإمام، وإلى يمينه قصر عالي قابو، قصر الضيافة في العصر الصفوي، وإلى يساره مسجد لطف الله.

كيف يمكنني الاحتفاظ بدهشة المفاجأة، وجوجل قد أفسدها عليّ.

لا أعرف.

أجرّب على خوف.

أغمضت عيني، والتفت لأراه مرة واحدة. كنت كمن رأى حلما، فاستيقظ فوجد نفسه فيه حقيقة، يمد يده يلمس كل الصور التي كان يراها في حلمه، فيجدها في يده، يطبق عليها أصابعه غير مصدق، فتشرب يده إحساسه بها، وتسري حتى يشعر بطعم الحجر في نفسه.

أمامي الميدان.. حديقة واسعة بطول نصف كيلو متر.

أين أنت يا عمر.

الخيامُ، هو الرجل الذي حفظ اسم عمر حيا في إيران.

القلب قد أضناه عشق الجمال

والصدر قد ضاق بما لا يقال

يارب هل يرضيك هذا الظمأ

والماء ينساب أمامي زلال

تمر بجوارنا عربة يجرها جواد، يحملني صوت أقدامه إلى الوراء سنين بعيدة. وسنابك الخيل تطرق الأرض صاعدة إلى القصر. ضيوف ووفود، والموسيقى تعزف في القاعة العليا، ذات الجدران المجوفة، لا يخرج صوتها إلى الساحة حتى لا يزعج العباد والمجاورين في المسجد.

- قبل الصفويين كان هنا ميدان يحمل نفس الاسم.. صورة العالم.. لكن عباس الصفوي هو من أعاد بناءه على هذه الهيئة، ليفوق بعاصمته عاصمة العثمانيين.

- لا أستطيع أن أصدق أن كل هذا الجمال، بناه مجرمون!! ألا يمكن أن يكون كل هذا التاريخ قد بُني على ضلالة؟

- لا تغرك ضخامة التاريخ عن دقة النظر فيه. أليست هذه هي نفس العلة التي أشرك بها قوم نوح، وهل كانوا إلا مخلصين لصلحائهم متمثلين لأمرهم.

- لا أعرف.. لكن.. مم.. ألم تسمع جدران هذا القصر المؤامرات التي كانت تدبر للنيل من الأتراك، وهم مشغولون بصد القوات الصليبية التي كانت تترصد لهذه الأمة. ألم يعلو في هذا المسجد سبٌّ لصحابة رسول الله، ألم يتحول في هذا المسجد المذهب الشيعي من مذهب قائم على الحجج والبحث والمناظرة إلى فوضى توقظ في العوام عواطف عمياء، لأجل صراع سياسي. ثم أين هم العثمانيون وأين الصفويون.. رحلوا جميعا.. رحلوا.. لم يبق أحد.. الذي بقي هي الجراح فقط..

- وهذا الميدان الجميل.

- لا أستطيع أن أصدّق، كيف كانوا يريقون الدماء على بعد فراسخ من هنا، وهم

يشيدون هذه الجنة.

- هل نملك محو كل هذا؟

- لا.

- هَوِّن عليك إذن فقد رحلوا بدمائهم. وتركوا لنا جنات وعيون، «كذلك وأورثناها قوما آخرين».

- قوما آخرين.. ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين.. وأنشأنا بعدها قوما آخرين.. وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم. لماذا لا يقرأ الناس القرآن.

- وفي التأويل مندوحة يا صديقي.

- هو هذا العقل المغرور، حتى حين يتعامل مع كلام الله.

- هذا الذي نحن أمامه هو مسجد الشيخ لطف الله. ولطف الله رجل جاء من لبنان إلى هنا، من ميس الجبل إلى طوس، ليعينه الشاه الصفوي خازنا للمشهد الرضوي، ثم رحل إلى قزوين، ولما احتلها الأوزبك دعاه الشاه إلى أصفهان وبنى له مسجدا ومدرسة إلى جواره.

- المساجد في بلادنا كثيرة.. ولا معنى لها!!

***

تركنا التاريخ، يرحل حيث يريد، وأكملنا جولتنا في الميدان، نبحث في الفن الذي فيه فقط.

لم يكن سهلا عليّ أن أُنحّي ما أفكر فيه، لكن ما رأيته ساعدني على ذلك. صعدنا إلى قصر عالي قابو، حتى بلغنا قاعة الموسيقى، كانت التجاويف في نقوش السقف والجدران موزعة بانتظام لتوفر صدى مناسبا للعازفين، أما الأساطير التي تروى عن القاعة فتقول إنها

كانت تحفظ الموسيقى وقت عزفها وتعيدها للشاه إذا جلس فيها بعد ذلك مع ضيوفه.

تجولنا بعد ذلك في بازار أصفهان، بين الأحجار الكريمة، والبخور والأقمشة، وصورنا مسجد الشاه. لا أحب دخول المساجد التي تحولت إلى مزارات سياحية، تصيبني بالحزن والكآبة، أو كما تقول آواز «أصبح محزونا» وقد كان المسجد خاضعا للصيانة والترميم، فخرجنا منه بسرعة، لنجلس على مقهى قريب في الميدان.

طلبنا من الساقي أن يحمل لنا الشاي إلى الحديقة، واخترنا مقعدا حجريا أمام النافورة.

قالت: معك أغنية عربي؟

- نعم.. طبعا.. ماذا أُسمِعُك؟

قلّبت الهاتف أبحث عن أغنية تكون كلماتها العربية واضحة، فجاءت لي من بين الأغاني أغنية أميمة خليل «أنا رح سميك».

قلت : هذه أغنية جميلة، لكنها ليست بالفصحى. عامية لبنانية.

- أنا أفهم قليلا.. أسمع إليسا، ونانسي.

- نانسي تعلم الأتراك لغة العرب.. شي الله يا نانسي.

- يعني إيه؟

- شي الله تساوي «مدد» عند العارفين، تقريبا.. أظن أصلها طلب (شيء لله).. هذه عامية مصرية.

- طيب.

غنت أميمة:

«أنا رح غنيك.. لأنه صوتي باقيلي علامة
أنا رح سميك.. لأنه اسمك أحلى من الأسامي.
بدي تناديني.. باسمي تناديني.
بدي تنادي.. ولو ما تحاكيني.
اسمي ع صوتك بيضوي إيامي».

كتبت معاني الكلمات: رح = سـ أو سوف. غنيك = لا أعرف، ربما سأغني لك، وربما سأغنيك وتكون صورة شعرية.. بدي = أريد، ع صوتك = بصوتك. بيضوي = ينير.

قرأت الكلمات، وجربت أن تضعها في جمل.

«أنا رح أذهب إلى الجامعة»

- رح أذهب؟!.. لا عامي ولا فصيح.. رح روح.. سأذهب.
- نعم.. رح روح.
- قل.
- أنا معي أغنية لنانسي، نصغي معا ثم تشرحها لي.
- نصغي.
في نقش جهان، وعلى مسمع من التاريخ، ومن ملوك الصفويين ومؤامراتهم، وصورة الخميني التي أقحمت على المباني حولنا، ومن الشيخ لطف الله الذي ترك لبنان منذ قرون ليدفن في أصفهان، فأتاه صوت نانسي من لبنان مغنيا: «أنا يللي بحبك وحدي أنا.. »
- يعني إيه بْريدَك؟
- يعني عاوزَك!
- يعني إيه عاوزك؟
- أريدك بالفصحى..
تكمل نانسي: «الهوى يا حبيبي الهوى أسرار.. حيرة وغيرة وشوق ونار. تسأل كيف بغار عليك.. وقلبك علم قلبي يغار. الدنيا بتحلى وأنا وياك.. غير عمري بلحظة هواك.. ما كان قلبي يعرف حب.. ولا عنده غالي لولاك.. »
كتبت لها معاني الكلمات فقرأتها وصفقت بيدها وهي تقول:
- الآن أصبحت أجمل.. أنا أصبحت مسرورة.
- برخوردار شدن.
تابعت الأغنيات، من نانسي إلى أم كلثوم التي تعلمها اللغة الفصيحة. واللهجة المصرية. لم يكن صوت أم كلثوم متجانسا مع ما حولنا في الحقيقة، كأننا ركبنا مسجد أحمد بن طولون مثلا في وسط هذه الساحة. أو كبجعة بيضاء بين طوواويس ملونة زاهية. لذا غيرته سريعا إلى غادة شبير لتبعث الروح في القصور من حولنا نغما، عربيا ساحرا

وهي تغني: لي حبيب عشقه ذوبني.. شغل القلب سناه والنظر. رسم الحسن على أعطافه.. صورا فتانة تتلو صور.. ساحر العينين واللحظ وكم.. طاب لي في ضوء عينيه السفر.

هنا رقّت أصفهان، وفاضت حسنا، وامتلأت آواز حلاوة، حتى كأنها روحٌ صافية لكل شيء جميل حولي، للنغم، وللهواء العليل، وللسحاب العابر في السماء، وطاب لي في ضوء عينيها السفر.

وأي سفر.

قلت: حين يفيض حُسْن العالم من حولنا، نتمنى لو نعانقه. وحين نعجز، نعانق حبية تختصره.

قالت ساخرة:

- هنا في الميدان، يصبح عناق الحبية، عناقا للسجن يا عاشق حسن العالم.

ضحكْتُ ضحكة طويلة. فقالت: المصريون مشهورون بحسن الكلام.. والأتراك بحسن الفهم.

قلت:

- من لا يعشق في أصفهان آثم في كتب الورد السبعة، وليس له توبة.

- وما كتب الورد السبعة هذه؟

- لا أعرف. بالتأكيد هم أمم عديدة مثلنا، ولهم كتب، ولكتبهم غاية واحدة، وطرق شتى.

- حقا؟

- نعم.

- وما غايتهم؟

- أن تتآخى الأرواح.. يا شقيق الروح لا تبرح دمي.. فعروقي تشتهي فيها تقيم.

- نزور غدا معبد الورد إذن، لتسجد هناك وتقترب، وتجاور إن شئت.

- معبد الورد؟!

- باغ گلها.. حديقة الزهور.. لابد أنه الموضع الذي نزل فيه الوحي على خاتم أنبياء الورد.

- ماذا بقي لم يبن له الفرس حديقة، أو متحف؟!

* * *

في الصباح عند البوابة الحديقة كانت تقف هي ومعها فتاة أقصر منها قليلا. قالت: «هذه صديقتي آفاق».

كانت آفاق في وجهها سمرة خفيفة، قد لوحتها شمس أصفهان، عيناها واسعتان، وفمها واسع أيضا، ترتدي ثوبا أسود إلى ركبتها تحته بنطلون أسود، وتغطي شعرها، إلا تلك الخصلة التي يشترك الجميع في تركها حرة، بغطاء مثلهما أسود.

قلتُ:

- عباسية في كل ثيابها، لا في العمامة فقط.

قالت: وأنت معارض من أتباع الحركة الخضراء.

ضحكتا، ولم أكن قد فهمت فقالت آواز تشرح لي: المظاهرات التي خرجت في الانتخاباتٍ الماضية، معارضة للحكومة كانت تجعل اللون الأخضر شعارها. سيشكون فيك فاحذر!

عبرنا بوابة الحديقة، وهي تكمل تعريف صديقتها:

«آفاق شمس، من أصفهان، وتدرس معي في نفس الكلية في طهران، تدرس الماجستير في تصوف بن عربي».

- عباسية.. تدرس تصوف ابن عربي، وعثمانية تدرس تصوف جلال الدين..

- وفاطمي يدرس طب ابن سينا، وفلسفته.

- لست فاطميا أبدا ولن أكون.. ولا مملوكيا، وقد لا أكون عربيا أيضا. ربما مصري، ليس تماما.. أنا الذي لا أصل له. في مصر هناك مثل

يقول «للشحاذ نصف الدنيا» فلأي شيءٍ نَتَسَّب نفسه انتسب. وأنا كل هؤلاء معا. ومسلم تجمع الكل.

- صح.

قالت آفاق: أنا سعيدة بأنني عرفت صديقا من مصر، أنا أحب مصر كثيرا، وأحب أن أسمع الشيخ عبد الباسط، وغلوش، (قالتها بغين كأنها قاف) وأتمنى أن أتعلم قراءة القرآن في مصر. هل يمكن للفتاة أن تتعلم قراءة القرآن في مصر، كما يقرأ الشيخ عبد الباسط.

قالت أواز: آفاق صوتها جميل، تغني أم كلثوم بدقة.. هي التي عرفتني عليها.

- صحيح؟

- نعم..

- أظن أن ذلك ممكن، في مسابقة من فترة قريبة بتركيا كانت هناك فتاة مصرية تمثل مصر في التلاوة. كانت تتقن المقامات، وتقرأ بطريقة رائعة.. وصوتها جميل، اسمها سمية الديب، معي تسجيلات لتلاوتها.

- حقا. لا يمكن هذا للفتيات في إيران.

- تعالي إلى مصر إذن، وأنت تقرئين في الإذاعة.

- في مصر يمكن للفتيات أن يخرجن بغير حجاب؟

- نعم.

- ليس جيدا!!

- الحجاب كثير على أيّ حال. نسبته مرتفعة جدا.

- هنا، تُوقَف الشرطة من لا ترتدي الحجاب. تدفع غرامة.

- سفرْن بُدورا وانتقبن أهلة ومِسن غصونا والتفتن جآذرا.. فأي شيء يجدي الحجاب إذن.

ضحكنا.. وأكملت آفاق: وأطلعن في الأجياد بالدر أنجماً جعلن لحبات القلوب ضرائرا.

- شاطرة.. تحفظين الشعر.
- هذا لأبي القاسم علي بن إسحاق البغدادي.
ضحكت أنا هذه المرة، وأنا أشعر أنني أقف أمام راوية من راويات العرب لا أمام فتاة فارسية، تدرس التصوف، وتسمع أم كلثوم.
قلت: لم أكن أعرف إلا البيت الأول.
- أنا أحفظ شعرا عربيا كثيرا:

مُحرّك الكل أنت القصد والغرض
وغاية مالها إن قستها عوض
من كان في قلبه مثقال خردلة
سوى جلالك فاعلم أنها مرض

هذا البيت أعرفه.. لابن سينا.
كنّا جلوسًا في قوس واسع من الشجر قرب نهاية الحديقة، فيه مقاعد مهذبة من سيقان أشجار مقطعة. اعتدلت هي في جلستها، وفردت ظهرها، ليخرج صوتها مترنما كأنها تعلمت إلقاء الشعر من حداة الإبل في القوافل:

يا أصفهان سُقيتِ الغَيثَ من كثب
فأنتِ مجمعُ أوطاري وَأوطاني
وَاللهِ وَاللهِ لا أُنسيتُ بِرَّك بي
وَلَو تَمَكَّنتُ من أَقصى خراسان
سَقياً لِأَيّامِنا وَالشَملُ مُجتَمِع
وَالدَّهرُ ما خانَني في قُرب إخواني
ذكرتُ ديمرتَ إذ طالَ الغناءُ بها
يا بُعدَ ديمَرتَ من أَبواب جرجان

صفقت لها حين انتهت. كانت الأبيات تنساب ناعمة، برنة عالية، ولكنة تحول حرف العين همزات مسروقة، وتجتهد في إخراج الضاد،

والواو صحيحة فتظهر كأنها ارتفاع طفيف في أرض منبسطة.

قالت: هذا للصاحب بن عباد، وزير فخر الدولة البويهي. لابد أن تعرفه أيضا، لأنه معاصر لابن سينا.

قلت: وأنا أيضا أحفظ شعرا عربيا، وأنشدت:

لولا الحياءُ مِنَ الرَقيبِ الراصِدِ   لجَعَلت قَصدَكَ مِن أَجلِّ مَقاصِدي

يا مَن تَسَلَّمَ مُهجَتي نَقداً بِلا   ثَمَنٍ وَسَوَّفَ بِاللقاءِ مَواعِدي

عَيناكَ تَقتُلُني وَلَستَ بِراحِمي   وَهَواكَ يُمرِضُني وَلَستَ بِعائِدي

نَفسي فِداكَ أَما بَدا لَكَ بَعضُ ما   أُخفي وَقَد كَثُرَت عَلَيَّ شَواهِدي

بدا على آواز الغضب وهي تقول: أراك صرت شاعرا، وقد عرفتك بالأمس طبيا مؤرخا، أم تلك عبادة الورد في هيكله.

قلت:

وغادة من بنات التُّرْكِ من خَجَلٍ لحسنها المحض بدرُ التمِّ يَمْتَعِضُ

باتتْ تديرُ سُلافاً لو تديرُ على أهل العفاف بَه للتوْب قد نَقَضُوا

- من بنات الترك أم من بنات الفرس؟.. والوزن واحد لا ينكسر.

- لتكن من بنات الهند، والوزن باق أيضا. أليس لكل حسنه، وعشق الجمال فريضة.

- في دين الورد؟!

- بل في دين الإسلام.. وعندي لذلك أدلة.

تدخلت آفاق في الحديث: «با يک دست دو هُندُوانه نميتوان بر داشت».

فضحكت آواز معها، وأنا أنظر مستفهما.

- يعني لا يمكن أن تحمل بطيختين بيد واحدة.

- بطيختين!! أيّ لغة هذه. أحفظ مثلا أجمل: «الربيع لا يكون بوردة واحدة».

ضحكت آواز وهي تُكمل: لكنه لا يبدأ إلا بوردة..

أكلمنا تجولنا في الحديقة، نصوّر الورود، والبحيرة الواسعة، وعلى الهاتف أرسلت آواز رسالةً، قالت: «على فكرة.. آفاق شيعية».

نظرت إليها، فغمزت بعينها وهي تقول:

«حتى تثوب إلى رشدك ،، عشق الجمال فريضة؟!!» قالتها بسخرية فقلت:

- هذا كلام جلال الدين صاحبك، ليس كلامي. أم تراك كفرت بالرجل.

- قال في كل قلب وردة، ولم يقل في كل قلب حديقة ورد.

- بل قال مستودع الحسن..

- هذا صاحبك ابن سينا، الذي كان مولعا بالنساء، لا جلال الدين الذي كان مولعا بالسماء.

- وفي النساء باب السماء يا نغم، حتى اسألي ورد.

- ومتى ألقاها، لأسألها؟

- ستبيت معك الليلة فاسأليها. أحضرت معي ما كتبته وسأتركه معك.

- جدًا.. هذا جميل. هل انتهيت؟

- لا..

- سأقرؤه الليلة كلّه.

تركنا الحديقة عند العصر، وعدنا إلى جسر «سي و سه پول»، لنفترق هناك. على أن نلتقي في طهران حين أعود، وتعودان.

***

القاعة الرابعة

تالار چهارم

... «مدينة عظيمة مشهورة، من أعلام المدن وأعيانها، يسرفون في وصف عظمتها، وهي اسم الإقليم بأسره. قال ابن دريد: أصبهان اسم مركب، لأن الأصب البلد بلسان الفُرس، وهان اسم الفارس، فكأنه يقول بلاد الفرسان، وهي من نواحي الجبل في آخر الإقليم الرابع، طولها ست وثمانون درجة، وعرضها ست وثلاثون درجة تحت اثنتي عشرة درجة من السرطان، فتحها عمر بن الخطاب في سنة ٢٤هـ، ونُسب إليها من العلماء ما لا يحصى، من أعيان أئمتهم جماعة غلبت على نسبهم فلا يعرفون إلا بالأصبهاني، منهم الحافظ أبو نعيم صاحب حلية الأولياء المتوفى سنة ٤٣٠هـ».

معجم البلدان

أصفهان

«جاء صباح أصفهان صامتا كما اعتادت المدينة منذ ضُرب حولها الحصار.

خلت الشوارع من المارة، ومن البائعين.. لا نداءات، ولا مساومات ولا شجار.

كل شيء ساكن، حتى الطيور في البيوت كتمت صياحها، كأنها أصابها ما أصاب المدينة من وجوم.

تمر الرياح على الطرقات فلا تجد ما تحمله سوى التراب وأوراق الشجر. تلقيها سريعا أمام واجهات المحلات الخاوية التي تحطمت أخشابها، وبقيت مفتوحة.

لم تكن هذه الصورة سوى ظاهر المدينة فقط، أما قلبها فقد بقي حيا ينقبض وينبسط بحوارات تدور مكررة في المساجد، والخانات والمقاهي والحمامات، يقطع بها الناس ليالي الحصار الطويلة. كانت هذه الحوارات كافية للإبقاء على جذوة الحياة في نفوسهم. كانت دليلهم على أنهم مازالوا أحياءً، وقادرين على الإدراك.. وعلى الحلم.

يعرف الجميع أن غاية هذا الحصار هي إسقاط يد البويهيين عن المدينة وضمها لما تحت يد السلاجقة الأتراك، لكن أحدا قط لم يعرف مدينة كان القصد من حصارها إسقاط أمير وإقامة أمير مكانه سَلِم أهلها وخرجوا بمجرد شهود على دوران الزمان وتقلب المُلك. إذْ كان دأبُ المُلوك الذي لا يعرف أحدٌ له تفسيرًا، أنهم إذا دخلوا قرية أفسدوها، وجعلوا أعزة أهلها أذلة، كأنهم لا يزيحون مُلكا سابقا، بل يطمسون حياة سابقة بكل ما فيها.

في المقهى جلس الحكّاء على دكته، أمامه كتابه المفتوح على حامل من الخشب، وبقي ساكتا لا يتحدث. لم تعد حكاياته قادرة على تسلية الناس،

وحتى إذا استبد بهم السأم من أحاديثهم التي لم تكن تُحرّك من الواقع شيئا وطلبوا منه أن يقصّ عليهم شيئا من حكايات رستم لا ينطلق لسانه.

أي حكايات يمكن أن تقال لن تكون سوى خيانة لكل خائف في المدينة يرتقب ما سيحدث. يقول «بعض الحكايات محرمٌ كالخمر، حين يكون هروبا من الحاضر إلى الخيال. وهل الخمر إلا طمسُ الحاضر، على حساب الخيال».

حوله الرجال عاقدو السيقان على دكك مرتفعة من الأرض، تحتها تجاويف صغيرة وضعوا فيها أحذيتهم. وأمامه مباشرة يكون باب المقهى الذي يتسرب منه نور الطريق، تعينه المشاعل التي خفّف الساقي عددها توفيرا للزيت الذي شح مع طول الحصار.

مالك المقهى رجل طويل، على رأسه عمامة صغيرة، أقرب للقلنسوة منها للعمامة، شعره منسدل على كتفيه، أسود فاحم، وله شارب كثّ يغطي شفتيه، موصول بلحية طويلة تصل إلى سرّته.

رغم هذه الصورة فإن ما بقي باديا من ملامح وجهه لم يغطه الشعر كان يُنبئ عن نفس لينة، يؤكدها صوته الذي يخرج هادئا ناعما لا غلظة فيه إذا تحدث مع أحد.

كان مجوسيا، كما تقول هيئته، يَزُمُّ الشراب بصوت عال إذا شرب، تزوج صغيرا لأن زرادشت يحب المتزوج عن العازب، وهو متدين يذهب إلى بيت النار بانتظام، ولا يعادي أحدا من أهل الأديان الأخرى، حتى المسلمين الذين استولوا على أرض أجداده كما يوصيه الكهنة دائما.

حافظ على المقهى مفتوحا خلال أيام الحصار وإن كانت المؤونة فيه قليلة. يقول إنهم حاصروا مدينتنا، ولم يحاصروا أرواحنا. فما الذي يمنع اجتماع الناس إذن، لعل ساعة أنس تنير ما أظلم في النفوس وتُذهب ما بها من وحشة.

اجتماع الأنس كان سريعا ما ينقلب إلى لقاء سياسة ونقاش فيما تمر به المدينة من أحوال، يسمع كل يوم الحوارات نفسها. ينقسم الحاضرون عادة إلى فريقين، يظلان في مناوشات الحديث حتى يقترب الفجر فينصرفوا، ليغلق هو مقهاه ليوم جديد.

- ستكون أصفهان حسنة الحظ إن فتحها السلاجقة وزال عنها ملك هؤلاء البويهيين.

- بل لا شيء سيتغير، سيذهب ملك شيعي، ويأتي ملك سني، كما ذهب من قبل ملك مجوسي وجاء ملك مسلم. ولا تزال أصفهان تغير حاكمها، وهي لا تعرف فرقا بينهم.

- الناس لا تهتم بدين الملك، لو كان عادلا.

- وهل هناك ملك عادل؟.. «وما يُلَقّاها إلا ذُو حظ عظيم».

- لا أحد منكم يفهم ما يريده هؤلاء الأتراك، لا عدل ولا ظلم، إنه الطموح المجرد. يحلمون بأن يملكوا بغداد. الأساطير التي يتداولونها تحكي أن ملكهم رأى في نومه أنه يبول نارا يتلظى منها شرق العالم وغربه، ومفسروه قالوا له إن ذريته ستملك أطراف الأرض.

- طموح الملوك لا حرج فيه.. وهل يحرك الملوك إلا الطموح، ما من قائد خرج يقاتل بسيفه إلا وله في نفسه طموح يخصه.. رغبة يسعى إليها.. وما من أحد تبعه إلا وله حاجة أيضا.. هل يحمل الناس حياتهم على أكفهم ويلقون بها في الأودية والفيافي إلا من أجل رغبة قوية.. لتكن هذه الرغبة ما شاءت.. حياة الدنيا أم رضا السماء.. لا يهمني ولا يهم أحدا ماداموا لن يعادوا الناس في حياتهم.. ليأت من يريد بناء دولة قوية يرثها أبناؤه من بعده، وليكن عادلا بين الناس، قائما بمصالحهم.. وسيظل الأمر له ولمن يريد ما بقوا كذلك..

- ولم؟ ألا يستطيع الناس الحياة بغير دول وأمراء؟ ماذا يفعل الأمراء سوى جباية الضرائب، وتبديدها على ملذاتهم، وعلى حروب لا تعود علينا بشيء؟

- لن تصمد أصفهان كثيرا، لم يبق لهم في فارس إلا هذه المدينة وإقليم الجبل. وبغداد ليست بعيدة عن أحد؛ النصر يغري بالنصر، وهؤلاء قد طلع نجمهم، والخليفة العباسي يخلع الملك لأي قوي يطرق بابه ويؤمّنه على عرشه!

- الخليفة العباسي!! وهل له من الأمر شيء، لن يتركهم الملكُ الرحيم ملك البويهيين هناك حتى يفسدوا عليه ملكه.

- لن يكون بمقدوره أن يفعل شيئا، الناس في بغداد قد سئموا حكم هؤلاء الديالمة. لم تهدأ بغداد منذ دخلوها من الفتن، إن لم تخرج الفتن هناك من المساجد، خرجت من ثكنات الجنود. إنها مدينة تتنازعها الطوائف الدينية والعسكرية. لقد ظن الديالمة أن المدينة التي لا تهدأ فيها الفتن، تصبح سهلة القيادة، العراق قلق متمرد في غير أيام الفتن، فكيف وهو يعاني من كل ما يعانيه الآن. وهذه صنيعتهم، سيُؤتَون منها.

- أسوأ ما قرره الخليفة العباسي هو منصب أمير الأمراء هذا، لو أنه يدرك أي باب فتحه للوقيعة والتنافس، وهو يظن أنه يزيح عن كاهله عبء الحكم، ويحتفظ بأبهته.

تتكرر العبارات بأشكال مختلفة وعلى ألسنة مختلفة، يزيد عليها في مساجد أهل السنة ما فعله البويهيون من فتن وتنكيل بهم، ويزيد عليها في أروقة القصر ما منحه البويهيون لأصفهان من استقرار وأمن وأبهة وجلال.

في الصباح حين خرجت «شيرين» إلى السوق، مرت بكل هذه العبارات في طريقها، وفي دكاكين الباعة الذين خلت أوعيتهم من السلع وامتلأت بالحكايات.

تزهر الحكايات عند الفرح وعند القلق وعند الخوف.

كانت تعرف تطورات الأخبار من زوجها سليمان، إذا عاد آخر اليوم.

يحكي لها عن استعدادات الجنود على السور، وعن المصابين الذين يصلون إلى البيمارستان، وعما يتداوله الناس من لقاءات بين أئمة مساجد السنة وبين طغرل بك يغرونه بدخول المدينة.

لا أحد يعرف إن كانت هذه اللقاءات تتم في الحقيقة أم يروج لها أتباع القصر ليزرعوا الفتنة بين الناس. مع أن هذا ليس زمان الفتنة، أي شيء يمكن أن يجنيه القصر من فتنة كهذه سوى التعجيل بزواله.

كانت قد وصلت إلى أبو سعيد الحطاب، دكانه ضيق، على بابه كومة من أخشاب مقطعة، وقطعٌ من أبواب، ونوافذ وأعمدة، وتماثيل.

- غاب صبيُّك عنا أسبوعا يا أبا سعيد، ولم يصلنا حطب، وليس عندنا زيت.

- لم يعد في المدينة حطب ولا زيت، ولن يستطيع أحد الخروج ليحتطب. لم يبق لنا إلا أخشاب البيوت والدكاكين التي هجرها أهلها، وأثاثها. وحتى هذه لن تكفي إلا أياما قليلة، ربما تكون دكاكين الوراقين هي مصدر الدفء في الشهور القادمة. ماذا تجدي الكتب، حين يشرف الناس على الموت من البرد.

برد أصفهان قاس، يجمد المياه في الآنية، والدم في العروق. لو شحّ وقود التدفئة من المدينة فهذه علامة نهايتها، والطريق لم يزل طويلا إلى الصيف.

تركت الحطاب وسارت إلى سوق الوراقين، مضت سنوات عديدة لم تدخل هذه السوق، منذ توفي سيدها قبل سنوات.

كانت تزور السوق بانتظام قبل ذلك، مع ورد أو وحدها، تحمل رسائل سيدها إلى بائعي الكتب والنُّساخ، أو تحمل منهم ما يرسلونه إليه من كتب يكون قد طلبها.

مات سيدها قبل أن ترى المدينة هذا الحصار الذي يهدد سوق الوراقين بأن تتحول إلى سوق للوقود.

السوق هادئة، كسائر المدينة ليست فيها حركة، أصوات طرق خفيفة لعمال التجليد، أو لبائع ينفض التراب عن كتبه.

- أنت شيرين؟!

- نعم.

- رحمة الله على أبي علي. لم ير ما يحدث في المدينة.

- ربما لم يكن ذلك ليسوؤه.

- لا أعرف.

- ربما لم يكن ليهتم بالأساس.

- سمعت أن الناس ستستعمل الكتب وقودا هذا الشتاء.

- لن يحدث ذلك، ستُسلّم المدينة خلال أيام. الأمير منصور لم تعد له طاقة للدفاع، ولم يعد معه من ينصره. والقصر مزقته المناوشات. غداً أو بعد غد يتسلم المدينة أمير الترك.

كان واثقا من حديثه، ولم يبد عليه شيء من القلق، كأنه هو من لا يعنيه الأمر.

- وماذا سيفعلون بنا؟

- لا شيء يا ابنتي، في كل المدن التي نزلها الأتراك كان نزولهم خيرا، لم يبيحوا المدن لجنودهم كما يفعل الغازون عادة. هذه همذان تحت أيديهم منذ أكثر من عشر سنوات. وهذا الأمير، كان بإمكانه أن تظل المدينة تحت يده، لو لم يثر غضب طغرل بك، فيخطب له على المنبر أحيانا ويعود يخطب للملك الرحيم أحيانا أخرى، كما يفعل المنافقون. ماذا يملك له الملك الرحيم الآن؟! تعبت أصفهان يا ابنتي من مثل هذه الممالك ومن هؤلاء الملوك، هذه المدينة مكتوب لها في التاريخ أن تكون سيدة مدن العالم، مزهوة فوقهن بسحرها ودلالها، وهؤلاء الملوك لا أعين لهم ولا قلوب ليدركوا ذلك. أما هي، فستظل طاوية أسرارها، تبحث عن ذلك

الفارس الذي يضع تاج المدن على جبينها، فتكشف له المكنون منها.

لم تطل شيرين البقاء في السوق، اشترت كراسات فارغة، ومحبرة من زجاج منقوش، وضعتها في السلة التي كانت معها، ومشت ناحية النهر.

مضت شهور لم تر فيها النهر، مع أنه قريب.

لم تتأخر عنه منذ نزلت أصفهان. تمر عليه في كل مرة تذهب فيها إلى السوق، تترك ما معها وتظل مبحرة على سطحه حتى يغسل قلقها الدائم، فتعود.

لقيت سليمان أول مرة عنده.

كانت تعرفه من قبل، تلميذ من تلاميذ أبي علي. وجدها تقف وحيدة على ضفة النهر فحدثها.

أنست له، حتى مر اليوم ولم تشعر.

حكى هو عن أبيه وأمه، وعن دروس الطب التي بدأها مع شيخه الرئيس ابن سينا.

أما هي فكانت تسمع، وعينها ترحل في وجهه الهادئ كوجه النهر أمامهما.

حمل لها أشياءها وسارا معا إلى بيت أبي علي.

سارت تكمل طريقها إلى النهر، تلقي أذنها للمدينة التي أضحت تتمنى نهاية الحصار على أية جهة، لا يهتم الناس بمن يكون صاحب المدينة الجديد، الشباب ينتظرون أن تخرج المدينة من ثوب إلى ثوب، ومن جهة إلى جهة، ينتظرون الجديد الذي لا يعرفونه. الشيوخ يرون أن ما يحدث فتنة ألمت ببلاد المسلمين.

تسمع دعاء شيخ كبير عند أول الجسر، يبيع الفستق والجوز، «اللهم انصر المسلمين».

- على من ينصرهم يا شيخ؟

- على أنفسهم يا ابنتي.

النهر، واسع، تحرسه الحقول الرحبة، والأشجار الباسقة، وتعرايش المراكب، واستراحات الشاي، وبيوت السمر، وجسر شهرستان الحجري القديم.

يشهد النهر على سنين المدينة، منذ بناها اليهود حين جاؤوا مع كورش الأكبر ملك الأخمينيين.

فتح كورش بابل وحرر اليهود، بعد خمسين سنة من تدمير بوختنصر لملكتهم، وهدم الهيكل وسبيهم وآخر ملوكهم صدقيا بن يوشيا.

سمح لهم كورش بالعودة، وإعادة بناء الهيكل. فعاد أكثرهم إلى فلسطين، وصحبه إلى بلاد فارس فريق لم يشأ العودة.

في طريقهم رأوا أرض أصفهان.

حجرها كُحْل وذبابها نَحْل، وحشيشها زعفران. يسقيها نهر زاينده رود، وترف حولها روح بيت المقدس.

سيصفها الحجاج بعد ذلك بعشرة قرون لواليه وهرام فيقول له: «إني استعملتك يا وهرام على أصفهان، أوسع المملكة رقعة وعملا، وأكثرها خراجاً بعد فارس والأهواز، وأزكاها أرضاً، حشيشها الزعفران والورد، وجبلها الفضة، وشجرها الجوز واللوز، والكروم الكريمة والفواكه العذبة ، وماؤها الفرات ، وخيلها الصافنات الجياد، أنظف بلاد الله طعامًا ، وألطفها شراباً، وأصحها تراباً، وأوفقها هواء، وأرخصها لحماً، وأطوعها أهلاً، وأكثرها صيداً.»

وسُمي في عهد وهرام هذا أقلّ أرض الله خراجا. فيدركه رسول الحجاج من جديد: «إمّا إنك تسرق المدينة أو لا تحسن إدارتها، فإن كانت الثانية فزد وتعلم، وإن كانت الأولى فأيم الله لتبعثن إليّ خراج أصفهان كله وإلا جعلتك طوابيق على أبواب مدينتها، فاختر لنفسك أوفق الأمرين أو رد، والسلام».

نزل بهذه الأرض اليهود، ألقوا فيها بذرة مدينة لم تزل تتسع، نزل بهذه الأرض اليهود، ألقوا فيها بذرة مدينة لم تزل تتسع، وتكبر، وتتزين كلما امتد بها العمر، عروسًا زفّها أبو موسى الأشعري لأمير المؤمنين عمر: «قد فتح الله علينا أصفهان».

هجرها اليهود حين جاءها المسلمون، لم يطردهم العرب، لكن أكثرهم نزح إلى الشمال، ناحية بحر الخزر.

روى نهرها كل الجيوش التي غزت بلاد فارس.

عسكر على شاطئه جنود الإسكندر، وشربت منه خيل طغرل بك وقَبْله وقف عليه فخر الدولة البويهي مع وزيره الصاحب بن عباد، يعيد تخطيط المدينة.

ينبع «النهر الولود»، من عين ديمة، ويسافر من الشرق إلى الغرب حتى ينتهي إلى بحيرة گاوخوني، غرب أصفهان. يعبر فوقه جسر قديم بناه ملوك الفرس الساسانيون، وجدده البويهيون، وهو الآن قائم على قواعد منبعجة من الحجارة المرصوفة في النهر، فوقها أقواس معقودة، كل قوسين مجموعان على قاعدة واحدة. وله بوابتان، في كل طرف واحدة.

يضاء الجسر بمصابيح الزيت، وتضاء الأقواس أيضا، فيبدو في مساء المدينة وأنواره معكوسة على الماء كأنه جسر متلألئ من الذهب.

منذ جاء الحصار لم يعد يضاء، يكتفي العمال بمصابيح متفرقة تبدد ظلمة الليل.

سارت شيرين بمحاذاته حتى وصلت إلى حجرة صغيرة، كأنها عش على غصن شجرة

من كثرة ما يحيطها من أغصان تحجبها عما حولها. قبر صديقتها التي اختارت أن تدفن هنا على ضفة النهر، في المكان الذي كانت تجلس فيه دائما، مع أبي علي.

«أريد أن أذوب في هذا النهر يا شيرين، أريد أن يسري جسدي في أوراق هذه الأشجار. وأريد أن أبعث مثل شجرة الحرير، التي تقف

هناك، تحمل أزهارها العطرة، غير عابئة بشيء».

ذابت ورد كما أرادت في النهر، حتى إن كل شجرة في هذه الناحية، هي من زهر روحها. وتظل تحمل عطرها نضرة طوال الشتاء.

ذابت ورد في النهر، وذاب معها قلب شيرين.

«اشتقت إليك يا ورد».

«دلم برات تن گ ميشه».

بالعربية والفارسية يا حبيبتي.

أعرف أني تأخرتُ عليك، لكنك حتما ستعذرينني حين أخبرك عما أخرني.

«ورد» الصغيرة تبلغك السلام.

نعم، عمرها الآن شهران.

تأخرَتْ في المجيء، لم أكن متلهفة على طفلة أكون سبب وجودها في هذه الدنيا الصاخبة. لم أتمنى طفلة إلا لتحمل اسمك. فأظل أناديها به في كل حين.

أنا لن أنسى اسمك أبدا، لكنني أريد من الدنيا ألا تنساه أيضا.

سأعلم ورد الصغيرة حياتك يوما يوما، ستحفظها منذ أن تبدأ الكلام. سأكتبها لها حتى تعرف أي اسم عظيم تحمله. وسأوصيها أن تعلمه لأبنائها.

سأقول لها هذه ورد التي علمتني ما هي الحياة، وكيف تكون.

ورد التي كشفت لي أسرار الأرض وأسرار السماء.

لست حزينة على ذهابك، لأني أعلم أنك الآن سعيدة معه هناك.

روحك وروحه، تحلقان في كل شيء هنا.

لن أتأخر عليك بعد الآن يا حبيبتي، سيزول الحصار قريبا، وستعود الحياة إلى شوارع المدينة، ويعود الأطفال يلعبون، والعمال والصاغة والنساخ والمزارعون، والمغنون.

ستعود للحياة روحها التي فارقتها. هذه المدينة لا تدين لأحد إلا للحياة ذاتها، لفتنتها ومباهجها.

مكثتْ شيرين، تناجي ورد حتى قارب اليوم على الانتصاف، حكت لها عن سارة وحياتها، وحكت لها عن زوجها سليمان، وعن عمله في البيمارستان. وعن السيدة ستارة مديرة البيت.

«قلت لي يوم تزوجتُ سليمان: «إن المرأة يوضع حُبّها في قلب زوجها يوم يعقد عليها، وكذلك هو يوضع حبّه في قلبها، ثم هما ينميانه بعد ذلك أو يبددانه. وتظل حياتهما طيبة ما حافظا على المودة والرحمة التي وضعها الله لهما».

سليمان رجل طيب، غير أنه منذ بدأ الحصار وهو سريع الغضب، كثير الوجوم. «ورد» أخرجته قليلا عما هو فيه. يقضي وقتا طويلا في اللعب معها.

ستارة تترك لي غرفة المكتبة، ولا تسمح لأحد آخر بدخولها. تساعدني فيها سارة، نرتبها كما كنت تفعلين، ونمسح التراب عنها وتسألني هي عن كل شيء بالتفصيل.

مؤخرا، بدأت أملي عليها وهي تكتب.

منذ أن تحركت ورد الصغيرة في داخلي، وطرقت بيدها جدار العالم من حولها، وأنا أتمنى أن أترك لها الحكايات مكتوبة.

ستارة هي التي عرضت عليّ ذلك، كانت أسرع مني في تعلم الكتابة العربية، رغم أنها جاءتنا متأخرة. أنت من علمها الكتابة يا ورد. علمتها لأمليها حياتك.

بدأت شيرين الكتابة في المحرم من عام ٤٣٢، تجلس لتملي على سارة بانتظام كل يوم بعد أن يخرج زوجها إلى عمله في بيمارستان المدينة.

بقي البيت بعد وفاة أبي علي بن سينا، يضم كل ساكنيه الذين كانوا فيه، لم يغادره منهم أحد. هكذا أوصى ووقف عليهم ضيعة له كانت تكفي ما يحتاجه البيت من تكاليف.

أصبحت ورد هي سيدة البيت، واحتفظت ستارة بعملها مدبرة له. وتناثرت الفتيات في الحياة، تزوجن جميعا بعد أن أعتقهن أبو علي قبل وفاته.

تغير شكل البيت فلم تعد تقام فيه الدروس ولم يعد يقصده أحد من طلبة الشيخ، سوى بعض أصدقائه المقربين، يطمئنون بين الحين والآخر على من فيه. ومع رحيل أكثر الفتيات عنه، كل من تتزوج ترحل، كانت الحياة تنسحب شيئا فشيئا من البيت، حتى جاء اليوم الذي رحلت فيه ورد هي أيضا، كأنها لا مكان لها في العالم بعد غياب ابن سينا.

توفيت في مساء أول أيام رمضان، نفس اليوم الذي توفي فيه ابن سينا، وبعده بعام كامل.

* * *

«بسم الله الرحمن الرحيم..

أما بعد فإن لكل مخلوق حاجة، ولكل حاجة غاية، ولكل غاية سبيلا، والله وقّت للأمور أقدارها وهيأ إلى الغايات سبلها، وعلم الناس إذا هموا بالخير أن يعزموا، وإذا عزموا أن يتوكلوا، وقد هممت أن أملي ما كان من حياتي أنا «شيرين بنت روزبيه»، منذ نزلت أصفهان، أحفّظه لابنتي التي أضاء وجهها أيامي بعد أن أظلمت منذ رحلت عني سميتها «ورد».

فباسم من خلقنا جميعا فتعارفنا على أرضه، وبعث إلينا أنبياءه ليجمعنا بهم حوله، فاجتمع من سمع وتفرق من طمع، أملي هذه الحكاية لسارة، الفتاة الرومية التي كانت آخر من انضم إلينا في حياة سيدي أبي علي الحسن بن سينا.

مات سيدي قبل أن يدخل السلاجقة أصفهان.

وقبل أن تحاصرها الرايات الزرقاء، والنسر ذو الرأسين عاما كاملا، خلعنا فيه أخشاب مسجد «جوميه» لتدفئنا في شتاء بدا ألن ينقضي.
صدتهم الجبال والسور الضخم، وفرق الأمير المنتشرة على أبراج السور.

لم يستطيعوا اقتحام أي من البوابات الاثني عشر في السور، حتى سلمها لهم الأمير منصور ابن علاء الدولة.

دام الحصار عاما كاملا، بدأ في المحرم وانتهى فيه.

لم يكن الأمير ببسالة السور الذي بناه أبوه. كان القصر قد أضعفته المكائد والدسائس والخيانات، وكانت المدينة قد أنهكها تسلط القصر على كل شيء فيها، ولم يجد الأمير من يسعف المدينة التي يتربص بها الأتراك، بعد أن سقطت لهم خوارزم كلها، والري وهمذان.

مكن السلاجقة لدولتهم في بلاد الغزنويين، وفي أكثر أراضي البويهيين، استولوا على الري وجعلوها عاصمتهم، ولم يبق لهم حتى تكتمل بلاد فارس تحت رايتهم إلا أصفهان، وإقليم الجبل.

وفي أصفهان، كان الأمر مختلطا، فتارة يُخطب على المنبر للملك الرحيم، ملك البويهيين في بغداد، وتارة يُخطب باسم ملك السلاجقة طغرل بك.

سئم الأتراك تردد الأمير وخطبائه، وساعدهم قبول الخليفة العباسي الضعيف لوجودهم، ومنحه مباركته في هذا العام. ضربوا حصارهم على المدينة، التي كان أكثر سكانها ينتظرون قدومهم، ويرحبون به.

ومع امتداد الحصار، وتشبث بن كاكويه بملكه المتهالك، عصف الخواء بأسواق المدينة، حتى لم يعد في مخازن الغلال ما يطعم الناس شهرا آخر، وقطعت كل الطرق، ومسالك الجبال التي كان يستعملها التجار في تهريب الطعام إلى المدينة.

لا يفسد القمح في أصفهان ولو خزّن عشرين سنة. ويظل اللحم فيها أياما لا يتغير، حتى قبورها لا تفسد الأجساد.

تفاحها لا تستتر رائحته ولو خبأ بين أمتعة كثيرة بعضها فوق بعض. وبطيخها لا يفوقه حلاوة إلا بطيخ خوارزم. هكذا كان الحال حتى في أحلك الظروف التي عصفت بالمدينة على عهد البويهيين.

لم يكن في المدينة إلا صاحب حرفة أو مزارع، أو تاجر..

لها سوقة مزدحمة في غير أيام الحصار.

هي في الحقيقة أسواق كثيرة لا سوقا واحدة، فالصرافون سوقهم منفصلة لها سور وأبواب، وفيها أكثر من مائتي صراف. وشارع كوطراز

فيه خمسين رباط جميل. وفيها سوق كبيرة للوراقين وسوق للفاكهة وللتوابل وللسجاد وللحرير.

لكل سوق سور له أبواب، تفتح في أول النهار وتغلق حين ينقضي اليوم ويحل المساء.

خلت الأسواق، وهجر أكثر السكان بيوتهم، منهم من تحصن بالقلاع، ومنهم من ترك المدينة إلى همذان، والري.

بحث الناس عما يَصلح في البيوت المهجورة من أهلها، أخشاب، وبسط للتدفئة. جرار زيت وعسل ونبيذ، أجولة دقيق وحبوب، قوالب من تمر مكبوس، وخضراوات مجففة.

حتى هذه الأشياء لم تكن لتكفي أصفهان، إن عصف بها الجوع.

غلت الأسعار، واقتصد الناس في كل شيء، وبدأت تظهر أمراض غريبة في المدينة من قلة الطعام، ومن قلة العقاقير.

كنا ندرك أن أيام البويهيين قد مضت، وعما قريب تغير أصفهان صاحبها من جديد، كل ما كنا نرجوه أن تمر هذه الأيام بسرعة، وبسلام.

تحركت الوفود بين القصر وبين معسكر طغرل بك حتى انتهوا إلى التسليم دون حرب على ألا يمس أحد من أهل أصفهان».

***

«كانت أصفهان مبهرة لشيرين، حيث نزلتها المرة الأولى منذ عشرين سنة. تعبر القافلة ببطء بوابة المدينة، وتحس هي أن أحدًا لا يشعر بهم، يتبدد رغاء الإبل فيما حولها من ضجيج، وتضيع القافلة بين الناس والدواب. يعلو ضجيج الحمالين والسائسين وهم يسارعون إلى الإبل، يتعلق كل اثنين منهم بواحدة، يرشدانها إلى موضعها التي ستنزل فيها. تتبعهم الإبل وهي سعيدة بانتهاء رحلتها الطويلة، وتخففها من أحمالها. تستسلم لهم دون جهد كبير».

الراوي

شيرين

«...... سرنا مع قيّم القافلة جميعا إلى منازل النوم.

قال إننا سنبيت الليلة، وحين يبزغ الفجر نسير إلى البيمارستان، نمكث فيه أياما سماها أيام الاستبراء، ليتأكدوا أننا لا نحمل أيا من الأمراض الوبائية الوافدة.

وزعونا على الحجرات المتتالية، خمسة في كل حجرة. نوافذ الحجرة التي نزلتها مفتوحة على الساحة، صوت نداءات الحمالين، وضحكات التجار والسائسين تملؤها، وتملأ رأسي معها، فلا أكاد أرى مما حولي شيئا.

كانت الحجرة واسعة ونظيفة، فيها خمسة أسرّة ومرآة، وصوان ومصباح زيت، وأرضها مفروشة ببساط بهت لونه، ورقت أطرافه، وتبعثرت خيوطها.

لم أكن أعرف أحدا ممن معي، خلال الرحلة لم أتكلم مع أحد، ولم يتكلم معي أحد. في خان الطعام سمعت فتاة تتكلم قريبا مني، ففهمتها. كانت تتكلم بلغة قريبة من لغتنا، لكن لهجتها مختلفة قليلا.

قالت إنها سمعت عن الكثيرات ممن نزلن أصفهان جوارٍ ثم صار لهن شأن كبير بعد ذلك.

آفسون الشاعرة التي غدت أميرة وأم أمير، حين تزوجها الأمير أبو مسعود. وبابوله التي وقع في غرامها وزير فانتهت إلى جذع شجرة كبيرة، تعيش فيها عيش البراري، عارية تستر على ذراعيها وساقيها، قد ذهب عقلها قبل أن تسكن روحها جسد غزالة برية.

الحكايات كثيرة هنا.

لا شيء سوى الحكايات يبدد خوف الغريب.

حكايات الجواري لا تنتهي، تنبه أحلامهن في هذه الأرض الغريبة. هل يملك الغريب إلا أن يتسلى بالأحلام؟

تنبهَتْ إلى أني أتابع حديثها فسألتني:

«وأنت بأي شيء تحلمين»؟

لا أحلم بشيء؟ أي حلم يمكنه أن يأتي حين لا يأمن المرء على حياته، وحين لا يملك شيئا من نفسه.

كان كل شيء حولي باهتا لا معنى له، حتى حديثها كان باهتا. كنت أسمعه ولا أعلق عليه، نسيت صوتي حيث لم أعد أسمعه منذ خرجنا من قريتي.

تركتهم يتحدثون، وعدت إلى حجرتي.

مددت جسدي على الفراش، فدارت الحجرة بي، وأحسست كأني لم أزل فوق ظهر البغل، والفراش يعلو ويهبط مثله. كنت أشفق على البغل أثناء سفرنا لأنه لا يئن عن ألمه، وكنت أشعر بمقدار ما يعانيه وهو يحملني.

من يشفق عليّ أنا؟

أغمضت عيني فلم أشعر بشيء حتى أيقظونا في الصباح.

سرنا صفين إلى البيمارستان. يتقدمنا القيّم، معه كراس ينظر فيه وينادي أسماءنا. نادى علينا حين خرجنا من الخان، وحين وصلنا إلى البيمارستان. على الباب وقف ينادي، من تسمع اسمها تدخل.

أول شيء في البيمارستان هو الحمام.

ليس في قريتنا حمام، نغتسل في إناء كبير من الخشب، أو نذهب إلى النهر، ماء النهر بارد حتى في الصيف، كنت أحب أن أصحب أمي حين تذهب إليه لتغسل ثيابنا في الصيف. ماء النهر يجعل الثياب زاهية.

تجلس أمي على حجر كبير، تشمر ساقيها، وتظل محنية الظهر، يداها وقدماها مغروستان في النهر كأنها شجرة دلّت أغصانها إلى الماء.

للحمام باب صغير منخفض، نزلنا بعده بضع درجات، ثم سرنا في ممر ضيق ينتهي في قاعة واسعة، دافئة، فيها دكك، عليها مناشف مطوية بعناية، وفي كل دكة تجويف صغير قرب الأرض، تقف إلى جوارها فتيات يلففن أنفسهن بملاءات بيضاء تكشف أكتافهن وأعالي صدورهن.

وزعونا ،كل واحدة عند دكة منها.

بتلقائية مدت الفتاة يدها بأغطية ثلاث، وأشارت لي أن أترك حذائي في التجويف الصغير وأخلع ثيابي.

لم أكن قد بدّلت ثيابي خلال الرحلة، كنت أكتفي بغسل وجهي إذا حاذينا نهرا، أو بحيرة أو كان معي فائض ماء.

جمعت الفتاة الثياب في سلة تركتها في القاعة، وسارت أمامي إلى قاعة أخرى كان صوت الماء يخرج منها مخلوطا بأصوات نساء متداخلة.

قاعة الحمام الأخيرة واسعة فيها أحواض كثيرة. كل حوض عليه أنبوبان على شكل رأس ثعبان، يصبان فيه الماء. النساء والفتيات يجلسن عاريات الصدور والبطون على حافة الأحواض أو يغطسن فيها.

لا أعرف أين هذه البلاد التي نحن فيها من بلادي؟

لماذا أتتني بلادي فجأة حين دخلت إلى هنا؟

بدت الوجوه من حولي مستأنِسة بما هي فيه، يضحكن، ويرشون الماء، ويسرقن قبلات بين الحين والحين.

ألفَتُهن جعلت غربة قوية تطبق على نفسي. لم أكن أشعر بها وأنا بين رفيقاتي في الخان.

الآن غَدَوْن «رفيقاتي»، مع أني لم أتحدث مع أي منهن.

هن يشبهنني، وحيدات، تطوي كل واحدة نفسها على ألَمٍ كالذي أحسه.

قادتني الفتاة إلى حوض صغير خال، سرت معها بخوف الغريب، أحاذر أن تنزلق قدمي على الأرض المبلولَة، وأحاذر عيون من حولي. فتياتٌ تدلك أجساد نساء بخرق صغيرة، تعلوها رغاوٍ كثيفة، وأصوات ضحك، وتأوهات خافتة.

نزلت في الماء ونزلت الفتاة معي، لم تتحدث أي كلمة، نظرتُ إليها مستفهمة فتكلمت بلغة لم أفهمها.

عرفت فيما بعد أن أول شيء في طقوس البيمارستان هو الحمام الدافئ، قبل فحص الطبيب. ومن هم مثلنا، يكون حمامهم في أحواض خاصة خالية لا يشاركهم فيها أحد غيرهم، ولا يختلط ماؤها بماء الحوض الكبير.

الماء الدافئ يفكك جسدي المتخشب.

شرب وشرب، وأحسست به كالأرض التي جفت حتى تشققت، فجاءها المطر فاهتزت، وربت.

أصبحت حركتي أخف وأنا في الماء.

أرفع ذراعي، فأجده خفيفا.

تخف روحي، حين يخف جسدي. ينزاح عني انقباض قلبي، وخوفي.

تبدأ الفتاة تدليك رقبتي، تحكها بخرقة ملفوفة على يدها، تخرج منها فتلا سوداء، يدها رقيقة، خفيفة وهي تدلك كتفي، وصدري.

يمنحني الماء شعورا رحبا.

لأول مرة أحس هذه الرحابة منذ سمعت أبي يخبر أمي أنه سيبيعني للتجار العرب، كان يخشى أن يقدمني الكاهن قربانا للنهر، والقرعة وقعت على بيتنا، لم يكن في البيت

فتاة سواي.

بكت أمي في ذلك اليوم، وكان أبي وجلا، لكنه لم يفعل شيئا. لم يكن يملك أي شيء ليفعله.

تعيش أمي في كل عام خوف فقدي، كما تعيش كل أم حول نهر الفولجا هذا الخوف في موسم القرابين.

فتاة عذراء لم تمس!! قربان لمعبد الإله، يلقى له في النهر.

هل يعيش الإله في النهر؟

الحظ وحده هو الذي يحمي من تنجو.

يُطَمئن أبي أمي، «إنها ستكون في قصر ملك، لا في بطن تمساح».

وما الفرق بينهما إن كان كلاهما بعيدين عني.

يقول أبي: نحن لا نملك أمرنا، لقد وقعت القرعة عليها، سيرسل الكهنة من يتسلمها خلال أيام. أين يمكننا أن نخفيها، ورجالهم يملأون الطرق. لن يفتش أحد قوافل العرب، ستكون بمأمن في بلادهم.

مرت الأيام ثقيلة حتى بدأت الرحلة.

ومنذ غابت عن عيني معالم المدينة، أغلقت نفسي عما حولها، وتوقف الزمن ولم أعد أشعر بشيء.

كانت الإبل تتحرك وتسكن، تقطع الصحراء، وتتركها إلى الجبل الوعر، ننزل في مدن كبيرة، وفي قرى صغيرة. نعبر أنهرا، وأراضي ملحة، تُغير علينا فرق صغيرة من قطاع الطرق يتصدى لهم جنود مصاحبين للقافلة. ورغم ذلك كانت كل الأيام يوما واحدا ثقيلا، وطويلا.

لم أمت من العطش، ولم تبتلعني الصحراء، ولا قتلني قطاع الطرق، ولا اختطفني عُقاب من السماء.

هاأنذا في حمام في أصفهان، تدلك شعري بالصابون فتاة صامتة. ثم تضع رأسي تحت الصنبور الصغير الذي ينزل منه الماء.

رائحة الصابون تشبه رائحة القرنفل، منعشة تنسل إلى صدري مع بخار الماء الساخن.

لم يعد الماء نظيفا كما كان، تعكر، وخالطته رغوة الصابون.

دلكت الفتاة ساقي، وأنا جالسة على حجر أملس مرتفع في الماء.

بحجر صغير فركت كعبي، ومرفقي وإصبع قدمي الأكبر. ثم أحضرت عجينة بيضاء، فردتها على ذراعي، وتحت إبطي، وعلى امتداد فخذي وساقي، تركتها قليلا، ثم عادت تأخذ الماء بكوز صغير، وتصبه فوقي.

أصبحت بشرتي نقية، ليس فيها زغب ولا شعر. كانت المادة البيضاء حين يزيلها الماء فكأنها تنزع عني جلدي وتعطيني جلدا جديدا مكانه تظهر منه الحياة، ويكاد يضيء وحده.

أنظر لساعدي، وفي نفسي سرور طفلة صغيرة. أرفع ساقي من الماء، فأجدها نقية، لامعة.

أي سحر يملكه هؤلاء القوم.

أتذكر التاجر النتن حين نزلنا سوق جيلان. يكوم الفتيات خلفه، ويفك ثيابه ويميل على واحدة منهن، صوت ألمها من ثقل جسده يضيع بين شخيره المرعب.

يضيق صدري، وتنقبض بطني، وأشعر برغبة في القيء.

أقوم فزعة لأخرج من الحوض. أجاهد ثقلي الذي أحسه فجأة وجذبَ الماء لي وأخرج، تلتوي قدمي على حافة الحوض فتنزلق، لا أجد ما أتشبث به، فتنجرف ساقي عن حافة الحوض، وأسقط في الماء.

يغمر الماء المندفع من الحوض الأرض حوله. وتنتبه الفتاة فتدركني قبل أن يصطدم رأسي بحافة الحوض.

تساعدني على الصعود من جديد. أحرك كاحلي، فيتحرك، ولا أشعر بألم فيه ولا في مرفقي.

نخـرج إلى القاعة التي تركـت فيها ثيابي فأجد ثيابا نظيفة تسـاعدني الفتاة على ارتدائها.

كان ثوبـا مبطنـا، ثوبـان في ثوب واحـد. بطانته لينة مريحة، وقماشـه ثقيل، أسبغته عليّ، فشعرت بدفء تغمر جسدي.

جففت شعري ولفته في المنشفة الأخيرة، ثم خرجنا إلى حجرة أخرى، لم يكـن فيها غير دكك متجاورة تصطف الفتيات جلوسـا فوقها. لم تكن الحجرة دافئة دفء الحمام، بل كان جوها معتدلا، كان في سـقفها فتحات يدخل منها ضوء الشمس، وفيها تيار هواء خفيف. عرفت بعد ذلك أننا ننتظر في هذه الحجرة قبل أن نخـرج إذا كان الجو باردا في الخارج، حتى لا يؤدي تبدل الحرارة المفاجئ إلى اعتلال صحتنا.

* * *

كان الهـواء بـاردا حين خرجتُ، أحكمت لف الملاءة على وجهي، فحمته من الهواء، وسرت مسرعة خلف طابور الفتيات اللاتي سبقنني.

وصلنـا إلى سـاحة واسـعة مبلطة، تغمرها الشـمس مـن فتحات في السـقف، فيها أبواب غرف عديدة. جلسـنا على مقاعـد متقابلة، قبل أن ينادونا اسما اسما. من تسمع اسمها تقوم إلى غرفة من الغرف.

في الغرفة طبيب، وترجمان، يسأل أسئلة كثيرة، مم تشكو، ماذا كنت تـأكل في بـلادك، عـلى أي سـن يموت النـاس عندكم، هـل جاءت على بلادكم أوقات مات فيها الناس كثيرا بوباء أو دون سبب؟

أسـئلة كثيرة لم أعرف كيف أجيب على أكثرها، يدونون أسماءنا، وما نجيب به، ثم يصرفونا إلى قسم الحجر.

كان القسـم هو آخر أقسـام البيمارسـتان، له طريق لا يمر على شيء، مبـاشرة مـن القاعة التـي كنا فيها حتى فنـاءه الصغير. منقـوش على بابه

كلام عربي عرفته بعد ذلك. عبارةٌ من كلام نبي المسلمين تقول: «لا يورد مريض على مصح، وليرد المصح على من شاء».

للبيمارستان قباب عديدة، واحدة كبيرة في آخره، وأمامها قباب صغيرة، فوق كل حجرة قبة. وله برج عال كأبراج المساجد التي شاهدتها في الطريق.

معابد المسلمين يسمونها المساجد. لها قباب وبرج يسمونه المئذنة. ينادى منها للصلاة كل يوم خمس مرات. وفي البيمارستان أيضا كنت أسمع نداءهم للصلاة، وأعرف به أين نحن من اليوم.

مكثت في البيمارستان أسبوعا كاملا، كان الطعام يأتي منتظما، دجاج مسلوق، أو لحم ماشية مطبوخ، وفواكه وعسل وخبز، يوزع الطعام ثلاث مرات. الأولى قبل أن يمر رئيس الأطباء ومعاونوه علينا، والثانية عند انتصاف النهار، والثالثة بعد أن يمر الطبيب الساهر ويدون ملاحظاته ويسمع شكوى المرضى الذين لهم شكاية.

في الصباح، كانت كتفي تؤلمني، ومرفقي قد تورم، ولم أقو على تحريكه، وحين تحسست قصبة ساقي، آلمتني هي أيضا.

كان حظي حسنا، فقد جاء مرور الأطباء من ساعات اليوم الأولى، بعد الشروق بقليل كانوا مجموعة من خمسة شباب متشابهي الثياب، بيد كل منهم كراس صغير، ومعهم طبيب بدا أنه أكبرهم سنا، يمرون على الأسرة بالتتابع، واحدا واحدا. وحين وصلوا إليَّ طلب أكبرهم من واحدٍ ممَّن معه أن يفحصني.

تقدم صبي قد اخضر شاربه، لكن وجهه لازال لينا كوجه فتاة لم تغادر حجر أمها. مد يده اليسرى إلى كتفي، وأمسك مرفقي باليمنى، حرك ذراعي إلى أعلى، كان الألم خفيفا في مفصل الكتف، دار معه كتفي حتى استقر ذراعي فوق رأسي. كان يمسك ذراعي بمهارة، فلم يتحرك مرفقي أبدا حتى أعاد ذراعي إلى موضعه.

ثم نقل يده اليسرى فأمسك عضدي، وأمسك باليمنى ساعدي، وحركه.

لم أستطع أن أتحمل الألم، فصرخت.

توقف، وقد بدا عليه التوتر والحرج، وتمتم بجملة قصيرة، ثم أعاد الحركة من جديد لكن بإدارة ساعدي حول نفسه، كان الألم أقوى من المرة الأولى، لكنه كان أكثر تنبها، وحين لحظ تغير وجهي توقف فورا.

مرت يده تتحسس بقية عظامي، ذراعي الآخر وساقي المتورمة. وحين انتهى دوَّن أشياء في لوح صغير معه، ثم عاد إلى الحلقة المجتمعة عند الباب.

بدأ الصبي الذي فحصني بقراءة ما دونه، ثم سمعت أصواتهم تتداخل وهو يمثل حركة ذراعي على صبي آخر يقف معهم. استمر حديثهم قليلا قبل أن يعود الصبي ويعلق اللوح على مسمار في الجدار. ويتحركوا إلى الحجرة التالية.

كانت كل حجرة تسع سريرا واحدا، فيها خزانة في الجدار فوق السرير، ومدفئة يوزع فيها الحطب كل يوم، ولها باب عليه ستار يظل مفتوحا خلال ساعات مرور الصباح، تفتح الحجرات كلها على باحة مسقوفة، في سقفها نوافذ واسعة يدخل منها النور والهواء، وفيها نافورة ظلّ صوت مائها أنيسي فترة بقائي في هذا المكان.

ينتهي المرور في جناحنا خلال ساعة، يبدأ بعدها الممرضون توزيع العلاجات التي دونت على اللوح، وينقلون منه تعديلات الغِذاء ليتمكنوا من إعدادها قبل موعد الغَداء.

كنا في آخر الشتاء، وكانت الشمس تغريني في ساعات الصباح بالخروج إلى النافورة في باحة القسم.

كل شيء حولي كان أنيقا ومهذبا.

للمرضى ثياب واحدة متشابهة، وكذلك ثياب الممرضين، لكل قسم لون متشابه؛ تستطيع التعرف عليهم به. لا يتكلمون كثيرا، لكني استطعت التعرف على ممرضة تفهم لغتي.

ربما هي حاسة الغريب، التي تهديه، أو هو حنين الدم؛ الذي يستشعر الأقربين، ولو كانوا من مدن مجاورة فقط.

كانت ممرضة قصيرة، أميل للسمن، حدثتها، فأجابتني.

«أنا هنا منذ خمس سنوات، تعلمت التمريض في سنة، وأصبحت أعمل بأجر بعد ذلك. أعمل لأكمل مكاتبتي، وأشتري نفسي من سيدي، لا يمانع هو لكنه فقير ويحتاج إلى المال.

سألتها ما هي المكاتبة؟

قالت: للعبيد هنا أن يطلبوا من مالكيهم حريتهم لقاء مبلغ من المال.

- وإذا لم يكن معهم مال؟

- يلزمهم وقت ذاك أن يعطوهم أجرا يسددون منه مكاتبتهم.

- وإذا لم يقبلوا؟

- ليس لهم ألا يقبلوا، لكنهم ربما يكونوا فقراء أحيانا، فعليهم أن يتركوهم ليعملوا، حتى يستوفوا الأجر.

- ومن يلزمهم بذلك؟

- القاضي.

- وهل يحكم لهم القاضي؟

- عادة ما يفعل. سيدي ليس مسلما، مسيحي يعمل نساخا في دكان وراق، والطبيب القائم على أمر هذا المارستان تربطه به صلة. حدثه عني، وأرسلني إلى هنا. بقي لي من قيمة المكاتبة شيء قليل.

خفف حديث «تَيْجن» قليلا من خوفي.

يمكنني أن أفعل مثلها، وأصبح حرة.

لكن من لي بسيد كسيدها. هل يفعل المسلمون مثل ما فعل سيدها المسيحي.

في قريتنا، نسمع أن المسلمين لا يعيشون إلا إذا ارتوت سيوفهم بدماء أقوام جدد، وأن نساءهم يتزين بحلي، في ثناياها دم معقود من دماء جنود الفرس والروم، والترك والكرد.

مضت أيام الاستشفاء سريعة، يخرجوننا إلى قاعة المطالعة في الصباح، أو إلى قاعة أخرى واسعة، فيها فرقة صغيرة تعزف ألحانا جميلة، لم أكن قد تعلمت القراءة فكنت أبقى في قاعة الموسيقى حتى يحين موعد طعام الغداء، فأعود إلى سريري.

أنام بعد الغداء، حتى يحين موعد مرور رئيس الأطباء في المساء، بعدها أخرج إلى بركة الماء، أراقب انعكاس النجوم عليها.

تحسنت حالي، وأصبحت يدي تتحرك بلا ألم، وكذلك ساقي. في هذا المكان عرفت شيئا من نفسي، كنت أشعر أن الحياة لا يمكن أن تكون تلك التي نحياها في بلادنا، رجال تنتهي أعمارهم وهم يضربون الأرض حرثاً، ونساء يحرقن أنفسهن بعد موت أزواجهن ليصحبوهن إلى العالم لآخر، أو يطمع فيهن أمير، أو تاجر أو جندي فيأخذ منهن من شاء ما شاء.

في آخر يوم، قال الطبيب إنه يمكنني الخروج لأنني تعافيت. أعطوني ثيابا جديدة،

وخمس قطع ذهبية تعينني على أيامي الأولى بعد الخروج. لم أكن لأستخدمهم في شيء لأن قيم الجواري هو من تسلمني وسار بي إلى السوق في حينه.

***

عبرنا سوق الحرير إلى درب الجواري، طريق واسع ممهد، على جانبيه دكاكين.

نساء يجادلن، وباعة يعرضون، وأطفال متعلقون بثياب أمهاتهم. رنات آلات عزف، وضحكات مبعثرة في كل جهة.

اسمه درب الجواري، درب طويل، فيه دكاكين تعرض فيهن الفتيات، وفيه بيوت الغناء.

بائع الجواري يدعى «النخاس»، كان لقبا لبائع الدواب، فصار لبائع البشر. يشرف على السوق «قيّم»، يراقب كل شيء، وبالأخص بيوت الغناء هذه.

كنا خمسة انتهى أمرنا مع تاجر أصفهاني، لم نكن جميعا من نفس القافلة، كانت معي فتاة هندية، وأخرى حبشية.

خلال النهار لا يكف النخاس عن عرض بضاعته:

«معي فتاة تركية بيضاء البشرة، لها عينان آسرتان، خذ التركية إن كنت تريد الولد، فهن الولودات، المربيات. وهن الطاهيات النظيفات».

«وهذه فتاة هندية، بكر منيرة، الهنديات معروفات بالوداعة ولين الجانب وهدوء الطبع وحسن رعايتهن للولد».

- لا.. الهنديات يذبلن سريعا.

- هي في أيام نضارها لك، وفي أيام ذبولها لولدك، تربيه وترعاه.

- أريد فتاة شاعرة، مغنية، أديبة، فاتنة. هذا طلبي، إن لم يكن عندك فأرشدني إليه.

- ستكلفك هذه كثيرًا جدًّا.

- أعرف.

- إذن ابحث عن مغربية، تركت بلادها طفلة، ونشأت بين المدينة ومكة وبغداد، فحازت جودة الأصل من المغربيات، ودلال المدنيات،

ورقة المكيات، وثقافة العراقيات. وليس عندي منهن الآن أحد، لكن أبا عامر النخاس، ربما تجد عنده ما تريد.

كان اليوم يمر على هذه الهيئة، وفي الليل، نأوي إلى بيت من بيوت الدرب، وهي بيوت الغناء. كانت بيوت الغناء بيوتا يجتمع فيها الناس لسماع الغناء، لكل بيت فتياته المشهورات، يأتي الناس لأجلهن، يغنين ويرقصن، وتدور عليهم الحلوى، والمسليات، وكؤوس الشراب.

لم يُسمح لنا بمخالطتهن، فهؤلاء الفتيات هذه صناعتهن، لا يبعن ولا يشترين، أما نحن فكنا نزلاء ننتظر أن ينتهي بنا الحال في بيت من البيوت. ننتظر الشاري أيا ما كان، تاجر أم أمير، أو صانع يريد من تساعده في صناعته في النهار، وتكون له سرية في فراشه في الليل.

ترددنا على السوق خمسة أيام، قبل أن يشتريني رجل كان يبحث عن فتاة بكر، صغيرة، ثمنها لا يزيد عن ثلاثمائة درهم.

هكذا طلب من البائع، وكنت أنا لا أتقن الفارسية، ولا أفهم العربية جيدا، ولا أغني ولا أقول الشعر فلم يجد التاجر فتاة يمكنه أن يتهاون في سعرها مثلي، فباعني له بمائتين وثمانين درهما.

***

«لولا تلك الفتاة الساكنة، الساكتة، الوضيئة، بين الفتيات في جناح الجواري ما تحملت أيامي. كنت أرى أبواب البيوت في شوارع أصفهان كأنها أبواب قبور كئيبة ستبتلعني، وأنا أسير مع الرجل إلى دار أبي علي. مستّ رأسي حين وصلت إلى الدار، فانفجرت باكية. كانت تلك أول مرة أبكي فيها منذ تركت قريتنا. بكيت، ويدها تضمني إلى صدرها، حتى نمت، ليصحو العالم في نفسي ملونا بقوس قزح كأنما صحا بعد مطر».

شيرين

ورد

«...... الانتظار يقتل كل شيء. الصبر، والأمل، وحتى الفرح.

بعد عام كامل، لم يبق في المدينة من يمكنه أن يصبر يوما آخر، تهاوى كل شيء فجأة، حتى الأمير نفسه. كأنه ملّ من نفخ الروح في جسد ميت لا يستجيب له، فسلم المدينة إلى طغرل بك.

لم أدهش حين مرت الأيام وادعة كأن شيئا لم يتغير.

أمّن طغرل بك الناس على أنفسهم وأعمالهم، ولم يمس جنوده أي أحد بسوء، وأصبحت أصفهان في يوم، وأسواقها مفتوحة، والناس غادية ورائحة، وكأنه ما رحل ملك ولا جاء ملك.

أيامنا الجديدة لا يعكرها شيء.

امتلأت الأسواق بالبضائع، وعادت الحياة إلى المساجد والخانات والحمامات.

عاد للصغار صخبهم في الشوارع. وعادت للطيور صيحاتها في أفنية البيوت، وعاد الماء يصدح في نوافير ساحاتها. وفي الجداول الصغيرة التي تروي أشجار أصفهان فرحا بعودة الحياة إليها.

لا تبكي المدن رحيل ملوكها عادة، ظالمين كانوا أو عدولا. مؤمنة بأنهم راحلون على الدوام وبأنها هي الباقية.

ما من مدينة إلا ومنقوش فيها أسماء القرون الطويلة. تحفظ الجميل للنقش الجميل، لكنها لا تعبده، فتجثو أمامه.

وحين يملكها عابدُ نقوش قديمة، ولا يزيد في نقوشها شيئا، تكسر أصابعه.

المدن لا تمنح نفسها إلا لمن يزيد حسنها. ويرفع قدرها. تهبه حين ذاك مفاتيح أسرارها، وترفع اسمه جوار اسمها.

هكذا طوت أصفهان أيامها سريعا، واستشرفت حياتها الجديدة، لا حزن ثَم، ولا انتظار.

يعود لسليمان انشغاله في فصول التدريس في المارستان، انتظمت الدراسة من جديد، وقدم الطلاب من مدن أصفهان القريبة. امتلأت جداول الجراحات، وتوافد الناس على العيادات، كأنما كانوا يجمعون أمراضهم ليوم يأمنون فيه على أنفسهم.

تغير سليمان بعد وفاة أبي علي، يظل ساهما حين يذكر أستاذه ويقول:

«من لأطباء أصفهان بعده»؟

لم يكن أبو علي كبير أطباء أصفهان وحدها، بل كان شيخ أطباء فارس وما وراء النهر. كان ذكره قد عم البلاد، كلما نزل مدينة ترك فيها من سحره ما يعلق به قلوب الأمراء وعامة الناس، ويوغر صدور حساد كثيرين أيضا.

وكانت ضريبة هذا الذكر ترحال لم ينقطع.

تذكر ورد دائما وهي تحكي أخباره، عبارة كان يكررها أمامها كثيرا:

«ويل لمن لا يتقي جحيمه بنعيمه»

- وإن لك يا سيدي جحيما.

- لكل شيء في الحياة جحيم يا ورد. منذ خلق الله الجنة، وجاورها بالنار، جاور الجحيم كل نعيم بعد ذلك. فيد تطرق باب النعيم، وكلما فتح منه جزء، مسّ الأخرى لهب يحرقها لتذكره أنه ما من نعيم كامل إلا حين تستقر الأرواح في الجنة. لا كمال في الدنيا.»

***

«..... كانت السيدة ستارة هي التي تسلمتني من ذلك التاجر.

صحبني أولا إلى البيمارستان، فلم يجد أبو علي هناك، قالوا له إنه قد ذهب إلى قصر الأمير، فسار بي إلى البيت.

سرت معه لا أشعر بشيء، تبدو أبواب البيوت في المدينة كأنها قبور تنتظرني. لم تثر هذه الفكرة في نفسي خوفا كبيرا، كنت مستسلمة تماما. أو كنت ميتة في الحقيقة. الأموات لا يتألمون.

في البيت سألتني السيدة ستارة عن اسمي، كانت تعرف لغات عديدة، من كثرة ما تعاملت مع الفتيات فلم أجد صعوبة في الحديث معها، سألتني عن عمري فلم أعرف، متى حضرت أول مرة؟ فلم أذكر. لا أعرف عدد الأيام ولا السنين. لا ميزان لشيء، أو ليس في حياتي شيء أزن به الأيام والسنين.

قالت للرجل إنها ستتولى الأمر، وستخبر أبو علي بالهدية، وشكرته عليها فانصرف.

كان البيت حين رأيته المرة الأولى كأنه حديقة صغيرة، في وسط الساحة نافورة، وفي زواياه أشجار، وعلى الساحة تفتح نوافذ الغرف، وأبوابها.

أشارت ستارة ناحية النوافذ في الطابق الثاني، وقالت: هنا ستجلسين، ستجدين صحبة طيبة، وستعلمين نظام البيت شيئا فشيئا. لا تخشي شيئا، حظك الجميل أرسلك إلى هنا. ستجدين في البيت إخوة طيبين.. كانت ودودة وحانية.

سرنا ناحية الدرج الخشبي، كان أعلاه مظلما لا أرى منه شيئا، لأن الشمس في الصحن كانت وافرة، صعَدت فأزّ الخشب من تحتها، اتكأتُ على الجدار لئلا أسقط، وحين وصلنا إلى الأعلى، احتجت وقتا قليلا حتى اعتادت عيني الضوء الخفيف فبدأت أرى ما حولي.

الفتيات جالسات، من تمشط شعر صاحبتها، ومن تصلح أوتار عود بيدها. نظرن إليّ ثم أكملن ما بأيديهن من عمل.

أما هي فكانت ساكتة، ابتسمت وأشارت إليّ أن أجلس إلى جوارها.

محت ابتسامتها طعنة إعراضهن التي شعرت بها. كان ألم إعراضهن هو أول ما أحسست به حين بدأ شعوري بالأشياء وانفعالي بها يعود إلي من جديد.

وحين جلست قرب ورد، بكيت.

دمعت عيني أولا، فمسّت كتفي تريد أن تطمئنني، سَرَت يدها في جسدي، فكأنما أزالت سدا كان يحبس نفسي وراءه، فاندفع الماء منه هادرا. وتفجرت نفسي عيونا، حين قربتني إلى صدرها.

لا أعرف كم بكيت، ظللت أبكي، وأنا أشعر أن البكاء يزيح جبلا ثقيلا عن صدري، وكلما انفرج الجبل قليلا، ملأني خدر حتى نمت على ذراعها.

رأيت أمي تقف في أفق بعيد، يحجبها عني وهج ساطع. ناديتها فلم تجبني، كنت حزينة لكنني لم أكن فزعة، أحسست في النوم بذلك الألم الخفيف الذي كنت أشعر به في صدري إذا بكيت وأنا طفلة، وكان لي كتلك الطفلة نشيج مكتوم، حتى مسدت يد لا أراها رأسي، فزال الألم من صدري، وتوقف نشيجي. وحين صحوت كنت أنام على فراش، يغطيني لحاف كبير، وعلى الأرض كانت تنام ورد.

بقيت أتقلب على الفراش وقتا لا أعرف مقداره، كنت أشعر بنشاط وخفة كأني لست تلك التي نامت باكية، تقلبت على فراشي، أستعيد ما مر علي من أحداث. جلست أطالع النافذة، خشيت أن أوقظ بحركتي تلك التي كنت سببا في نومها على الأرض. النائمة على الأرض، فقمت أتلمس طريقي في الظلام.

سرت على أطراف أصابعي خارج الغرفة، لم يكن أحد هناك سوى الصمت وظلال نباتات صغيرة على سور الممر المشرف على القاعة يلقيها ضوء القمر.

قطعت الممر حتى وصلت إلى الدرج. ونزلت متكئة على الجدار، أتحسس الخشب درجة درجة. يفرش القمر الصحن كله، ويجعل الأشجار فضية لامعة. كانت أبواب الحجرات كلها مظلمة إلا حجرة واحدة يخرج منها ضوء مصابيح الزيت مهتزا راسما على الأرض أشباحا متحركة.

سرْت نحوها، كان الصوت يعلو كلما اقتربت. خلف الباب رأيت أشخَاصا يجلسون متحلقين على طاولات مصفوفة في دوائر، كل واحدة أعلى من التي أمامها.

وفي وسط الدائرة منضدة طويلة خالية، وأمامهم جميعا يقف رجل على درجة من الخشب، جعلته يبدو طويلا، على رأسه عمامة، وخلف رأسه ينساب شعره أصفر كأشعة الشمس.

بقيت واقفة أسمع ما يصل إليّ من أصوات، يتكلم الرجل الواقف على الدرجة، ثم يتكلم أناس متفرقين ممن أمامه ثم يعود هو ويتكلم من جديد.»

* * *

قال أبو علي:

«واعلموا أن النفس إنما تلزم تزكيتها بمقدار ما وُهب لها من قوة. فتخرج من القوة إلى العمل. وتكون تزكيتها بإبلاغها الكمال في العلم والحكمة. فإن هي بلغت الكمال في ذلك، كان هذا حارسها من التلطيخ بما يشينها من تبعة النفس المادية».

قال أحد تلامذته: وهل تعد تبعة النفس المادية شائنة، وهي هذا الجسد الذي هو آلتها في الحياة.

قال:

«الإنسان ليس هو هذه الجملة المحسوسة وحدها، لأنه لو كان كذلك لكان اتّبَاعُه سر آلته هو طريق كماله. لكن الإنسان هو مجموع هذه

النفس ونفوس أخرى. إن بالغ في الانصراف إلى واحدة مات منه جزء، وإذا مات منه جزء كان كمن فقد ذراعا أو ساقا، عاجز عن إدراك ما تقوم عليه الحياة. وجماع سعادة الإنسان هو التوسط بين كل النفوس التي هو جملتها.

وتزكية النفس وبلوغها الكمال لا يكون إلا بالرياضة، فللنفس المادية سلطان لا تستقر به الأحوال، وهي الدافعة لك دوما، ما لم تقف لها وتهذبها».

«ثم اعلموا أن صفات الكمال التي على النفس بلوغها في سيرها هي كتمان السر والعلم والبيان والفطنة وجودة الحس وأصالة الرأي والحزم»

«واعلموا أن المعرفة مركزوة في قاع النفس كالبذور في الأرض وكالجوهر في قاع البحر، والنفس لا تدرك هذه المعرفة إلا بواسطة العقل الفعال الذي يشرق عليها وينير لها صور المعقولات... وهذا إنما يحدث على مرحلتين: الفعل والانفعال.

أما الفعل، فهي مرحلة ترقّي النفس، تقطع فيها ثلاث مراحل، أولها الإرادة وهي أول درجات العارفين، يتحرك فيها المريد إلى القدس لينال الاتصال.

ثم تأتي الرياضة، درجته الثانية ليبلغ الحد. فيجر نفسه بالتعْوِيد من جناب الغرور إلى جناب الحق.

وغايتها: تنحية ما دون الحق عن مُسْتن الإيثار، وتطويع النفس الأمارة للنفس المطمئنة، لتنجذب قوى التخيل والوهم إلى ما هو من التوهمات المناسبة للقوى القدسية، يعينه على ذلك: العبادة المشفوعة بالذكر، والألحان المستخدمة لقوى النفس، الموقّعة للكلام موقع القبول

في النفس، ثم عين الكلام من واعظ ذكي بعبارة بليغة ونغمة رخيمة، وسمت رشيد»

«فإذا تمت للنفس رياضتها، خرجت من الفعل إلى الانفعال، وعلت في درجات ثلاث، بغير إرادة منها. عند ذاك ترى الحق أولا ومضات خاطفة لا تستطيع أن تمسكها، لذيذة كأنها بروق تومض ثم تخفت. وهذا مقام الوقت، فإن داوم الرياضة وصل إلى مقام الوجد، حتى ينتهي إلى مقام السكينة.

فإذا بلغه انقلب له وقته سكينة وصار المخطوف مألوفا، والوميض شهابا بيّنا وحصلت له مُعارفة مستقرة كأنها صحبة مستمرة».

يشرح كل عبارة من عباراته، وتلاميذه يناقشونه ويعترضون عليه. يرفق حينًا ويشتد عليهم أحيانا حتى لم يبق على طلوع الفجر إلا ساعة، فأنهى حديثه، وانصرفوا.

***

اغتنمتُ الجلبة التي أحدثوها، وعدت مسرعة إلى الدرج، كان أزيز الخشب كأنه زئير أسد في سكون الليل، خفت أن يستيقظ منه أهل البيت. فصعدت كما نزلت درجة درجة، أضع قدمي وأرفعها برفق حتى وصلت إلى نهايته، وسرت إلى الحجرة.

كانت ورد جالسة تجمع شعرها بيدها، ظهرها إلى النافذة، قد أخفى ظلها وجهها وبدا ضوء القمر من حولها كأنه هالة من نور.

سألتني: هل نمتِ جيدا؟

قلت: نعم.

قالت: أنا سأصلي الصبح، ارتاحي أنت حتى يطلع النهار.

راقبتها وقد قامت إلى حوض صغير في الغرفة عند النافذة، كان الحوض موصولا بأحواض النباتات المعلقة على النوافذ من الخارج. تملأ

كفهـا من ماء إبريق إلى جواره، تـمضـمض. ثـم تضـع كفها المملوءة بالماء على أنفها، ثم تغسل وجهها.

صبـت الماء على سـاعدها الأيمن، ومـسـحته بكفها، وفعلت ذلك في الأيسر، ثم بللت كفيها، ومسحت بهما رأسها، وأذنيها. انحنت بعد ذلك حتى مست بيدها قدمها، فمسحتهما أيضا.

جففت وجهها وذراعيها، ووقفت في وسـط الحجرة، ووجهها ناحية النافذة، يملؤه القمر، أنفها صغير، وشـفتاها دقيقتان، وجبينها عريض. رفعت كفيها قرب رأسها، ثم طوتهما على صدرها.

لـف الحجرة سكينة، حين بدأت صلاتها. أسـمع همسا خفيفا من فمهـا، كزقزقـة العصافير. تركع وتسـجد، وأنا معلقة بها، كأن خيطا لا أراه، يقوى بيني وبين هذه الفتاة.

ظلت رافعة كفيها، تنظر نحو النافذة، وشـفتاها تتمتمان بكلام، وأنا ساكنة، أخفي أنفاسي حتى لا تفسد عليها صلاتها، حتى انتهت.

قلت لها: «أنا أحبكِ»

- وأنا أيضا. ثم ابتسمت لي وقالت: ما اسمك؟

- شيرين.

- حلوى.

- نعم.. وأنت؟

- ورد.

***

«لم تحـــك من قبل لأحد شيئا. وهي صغيرة، كانت تحب حكايـــات أخيها. وحين كـــبرت، وصارت لهـــا حكاياتها، لم يسألها أحد عنها.

ولم تكن هي ممـــن يلقون حياتهم لـــكل أذن عابرة، في الســـوق أو في الحمام أو في سهرات الثرثرة التي تقطع بها الجواري ليل الشتاء الطويل. حتى جاءتها شيرين، فأيقظت بفضولها وبأنس صحبتها حكاياتها النائمة.. ».

الراوي

همذان

تُقلِّم «ورد» أغصان الأشجار حول البركة الصغيرة، وتمسح أوراقها، وشيرين جالسة تحمل صحنا كبيرا فيه فَستق تقشره وتجمع القشر في صحن آخر أصغر منه.

كانت قد بدأت تألف البيت، تساعد «ستارة» في المطبخ وفي ترتيب الحجرات، وتقضي أكثر اليوم مع ورد. تحكي لها عن الإله الساكن في النهر، يأخذ قربانا كل عام، وعن أمها وأبيها. وعن ملك البلغار الذي أسلم ليحميه المسلمون من غارات جيرانه اليهود. وتحكي لها عن رجل عظيم وجدوه يسبح في النهر، فظنوه تمساحا.

- كان رجلا رُكبَته عند كتف الرجُل متوسط الطول كما قال أبي، أبي رآه، لم يكن يفهم حديثهم ولا فهموا حديثه. حملوه إلى قصر القيصر، وكان الناس يذهبون إلى هناك ليشاهدوه في فناء القصر. كانت الأطفال تخشاه، والنساء الحوامل اللاتي يمرون أمام القصر ويرونه يسقط حملهن.

أمر به القيصر فربط في شجرة في الغابة حتى مات. رأيت عظامه وأنا صغيرة حين ذهبت إلى الغابة. كانت كبيرة جدا. يقولون إنه من قوم كانوا يسكنون في بلادنا منذ سنين بعيدة، ماتوا جميعا وبقي هو.

قالت ورد:

«كنت مجوسية، تعلمت من أبي وأخي أن المجوسية هي أقدم دين في العالم، وأول طريق لمعرفة الآلهة.

المجوسية ديانة النار والنور، ديانة الحقيقة والصفاء. دين أهورا الإله الذي نادى النبي زرادشت ليُعْلِم الناس عنه:

«بأذنيك استمع إلى هذه الحقيقة وبعقلك افهمها وبقلبك يجب أن تحبها. انهض أيها النائم، أيها الغافل، أيها الكسول. وانشر كلمات الإله في كل مكان نمت فيه أو صحوت أو أكلت أو شربت.

انهض وقل كلمة الإله ولاتكن أخرس في الحق ولاتكن متهاونا في الخير.. هذه أوامري أنا الحافظ، البديع، العليم الخير، مانح الصحة، أهورا مازدا، القدوس، الجليل، الملك الذي لا رادّ لقضائه، الأحد الذي لا يخيب مؤمله، الذي لا يُمكر به، القاهر لكلّ شيء، العظيم، النور، الحكيم، خير الحاكمين».

أبي كان مزارعا، يعمل في بستان من بساتين الأمير، حين جاء المسلمون أقروا الناس على أراضيهم يزرعونها على أن يدفعوا الجزية والخراج إلى بيت المال، وبقي الفلاحون على ما هم فيه من أرض، وأعيد تعريف قيم الإيجار ونسب المزارعة التي كانت قد ارتفعت قبل مجيئهم. أما الأراضي التي كانت مملوكة للأكاسرة فآلت كاملة إلى بيت المال، وترك الفلاحون فيها، يورثونها لأبنائهم على أن يؤدوا كذلك خراجها وجبايتها.

بقي الناس على هذا الأمر سنين طويلة، يجمع الخراج جابي بيت المال، ثم يرسله إلى الخليفة في دمشق ثم في بغداد، حتى جاءت الممالك الجديدة فاقتسمت أرض فارس، في ضعف من العباسيين، وفرضت ضرائب جديدة لم تكن موجودة.

أدركت الدنيا، ولي فيها أخ كبير يساعد أبي في عمله، يخرج معه في الصباح قاصدا الحقل ويعود معه عند المغرب، يتناولان طعامهما، ثم يبقى أخي معي يحكي لي حكايات يومه الطويل.

كنت أصغر منه بعشر سنين. طفلة لاهية حين كان ساعده يقوى ويتعلم حمل الفأس مع أبي.

وعندما بدأت أعي ما حولي، صحبتُ زوجة أبي إلى بيت النار لأسمع عظات الكهان وحكاياتهم. يقرؤون علينا جزءا من تاريخ بلادنا القديم قبل أن يأتيها العرب. ويعلمونا القراءة والكتابة بلغة الفرس.

حكايات أخي كانت أجمل من حكايات الكاهن.

لا يحكي عن الحرب ولا عن الأرض المسلوبة، بل عن عمله في البستان، عن شجرة الجوز الكبيرة التي تعلق النساء على أغصانها أمانيهن، وعن البئر المسحور، وعن الفراشات البيضاء التي تكثر عند البحيرة، وتضيء في المساء.. يزعمون أن هذه الفراشات هي أرواح الطيبين ممن ماتوا، تتجمع معا.

يحكي عن رحلات الصيد، وعن موكب الأمير الذي يلف أصفهان يوم الجمعة، ثم قبل أن ينتهي إلى جامع المدينة الكبير.

يحكي عن أحلامه في امتلاك بستان كبير، يكون فيه فلاحون ويستريح هو ويستريح أبي من العمل.

كنا نقضي الليل متقاربين على بساط واحد من الصوف، لم يكن بيتنا سوى حجرة واحدة، ولم يكن لنا فراش سوى هذا البساط، وحشايا من القش يضع أبي عليها رأسه وهو نائم.

أظل أسمع أخي، حتى يغلبنا النوم، فأنام وأنا متعلقة برقبته. أبقى ملتصقة بصدره أطرد بدقات قلبه خوفا لا أعرف لها سببا، وأستعين بدفئه على برودة الليالي الطويلة.

مرت الأيام، وكبرت.

تغير جسدي.

وتغير أخي معي أيضا.

أصبحت أشعر بتهدج صوته حين يكون قريبا مني، لم يعد يحكي باسترسال كما كان يفعل. يسكت كثيرا، كمن يجف حلقه، وتكون يده باردة حين ألمسها، فيسحبها سريعا.

لم أفهم أي شيء غيرّني ولا أي شيء غيرّ أخي، كنت أجري إليه أتعلق بعنقه إذا أقبل مع أبي، فيضغطني بذراعيه القويتين حتى كأني سأذوب في صدره، ثم يبعدني عنه فجأة، كأنما ينزعني من الحياة نزعا.

لم يعـد قلبـه يطرد خوفي كل ليلة، أنام متكـورة على نفسي، أحاول أن أدفـئ نفـسي بفخذيّ، ولا أفلح. أسـتعيد مـن حكاياته مـا يقطع صـمت الليل حتى أنام. لم يعد النوم يأتي ناعماً كما كان، أمْسـى يشـبـه السقوط من حافة جبل مرتفع، إن لم يقتلني الفزع يقتلني الارتطام.

بعد أيام سـمعته يحدث أبي في أمر الزواج.

كنـا معزولـين في طـرف المدينة ولا صـلات لنا بأي أحـد، لم تكن لي صديقـات أعرف منهن شـيئـاً من حكايات النـسـاء. لم أكـن أعرف ما هو الـزواج الذي يتحدثنا عنـه، بعد وفاة أمي تزوج أبي امـرأة أخرى. زوجة أبي تقـوم بنفـس أعمال أمي، تكنس الدار، وتطعـم الدجاج وتمخض اللبن وتطبخ الغداء لأبي ولأخي، أسـاعدها في كل هذه الأعمال. يسـكن أخي في نفس الدار، فما حاجته لزوجة تكنس وتطعم وتمخض وتطبخ.

غضـب أبي، وأحـسـست من اضطرابه وتغيره أن أخي قد حدثه في أمر سيء.

سـمعت أخي يقول له:

«ألم يأمرنـا نبينـا بهذا الزواج، ألا تسـمح شريعـة المجوس بأن أتزوج أختي. وأنا أحبها».

- لكن المسلمين لا يسـمحون بذلك!

- وما دخلنا نحن بذلك، هم لا يطبقون شريعتهم على غيرهم.

لم يجبـه أبي، سـكت. ظل أخي يتحدث كثيراً، كان متوتراً، وغاضباً، وأبي ينظر إليه، ولا يتكلم.

ثـم انقطـع الـكلام فجـأة، ولم يعـد يـدور في البيـت حديـث بين أبي وأخي.

أيامٌ قليلة وسافر أبي وأخذ معه أخي، وتركاني مع زوجة أبي.

قال أبي إنهما سيغيبان في بلاد الشمال الباردة شهورا، لكنه عاد بعد أسبوعين وحده.. تاركا أخي هناك.

لم يجبني حين سألته لم رحل أخي. قال إنه وجد عملا أفضل هناك، يعينه على شئون الحياة القاسية.

ظن أبي أنه قادر على تحمل العمل وحده، لكنه اكتشف عجزه عن ذلك حين أصبح وحيدا.

يقضي اليوم كله في الحقل ولا ينجز إلا القليل من العمل. وحين جاء موعد دفع أجرة الحقل لم يكن معه ما يكفي، حاول أن يماطل الجابي لكنه لم يستجب. هدده بنزع الأرض منه، إن لم يدفع ما عليه.

لم يكن القانون يسمح بذلك، رفض أبي الأمر في البداية، وهدده أن يشكوه للقاضي. سيراعي القاضي عسره ويمهله، كما يفعل مع المعسرين دائما.

لكن الجابي أعاد تهديده إما أن يدفع أو يسجن.

عاش أبي حياته مزارعا لا يعرف طريق دار القضاء ولم ير في حقله شرطيا واحدا. خاف إن هو اشتكى ألا يسمعه أحد.

من ذا الذي يسمع شكوى مزارع مجوسي فقير لا يعرفه أحد، أمام جابي بيت المال الذي يخاف منه كل أهل همذان.

باعتك أمك لئلا تراك قربانا لنهر فولجا. وباعني أبي ليقطع الطريق على أخي فيما يفكر فيه.. كلاهما أرادا حمايتنا!

أفكر أحيانا أنه ربما كانت أمامه حلول أخرى كثيرة يتخلص بها من إلحاح الجابي، لكنه رآها فرصة مناسبة ليعدني أكثر عن أخي، ولأكون قريبة منه في نفس الوقت فيمكنه رؤيتي حين يريد.

باعني أبي للجابي، وباعني الجابي إلى القصر.

في القصر، كان كبير الخصيان قيّم الحريم، أسمر مشدود الجسد، له لحية بيضاء، وشارب كث، وعلى رأسه عمامة كبيرة.

أدخلني إلى حجرة واسعة فيها أرائك وفرش، وبسطٌ معلقة على الجدران فيها نقوش فارسية تحكي حياة بلاد فارس القديمة.

فحصني من أصابع قدمي، إصبعا إصبعا، إلى مفرق شعري. يجس أصابعي، وذراعي، ويطلب مني أن أمشي أمامه، وأقعد وأقوم.

فتح فمي وشمه، ونظر في أذني، ثم مد يده يخلع ثيابي.

تشبثت بها، فزعة لا أعرف ماذا يريد أن يصنع. حاولت دفع يده لكنها كانت قوية.

تحدث وكان صوته ناعما حادا، لا يشبه هيئته القاسية، قال: لا تخشي شيئا، لابد أن أتأكد أن قصر سيدي لن يضم فيه إلا نوادر الدر، ولا مكان لشيء لا يعجب مولاي فيه. أنا المسئول عن خزانة جواهره، وأنت منذ اليوم من جواهره.

تمنيت أن تنشق الأرض فتبلعني، أغمضت عيني وأنا أشعر بجسدي ينكشف له، وشعرت برأسي كأنها سينفجر مما فيه من غليان، لم تمسني يده أبدا، كان يعرف كيف ينجز عمله دون أن تدنس يده جوهرة سيده التي آلت إلى القصر.

***

«أصالة الرأي هي أن تجود ملاحظته لعواقب الأمور، والرحمةُ هي التي تلحقها الرّقة على من يحل به مكروه أو ينزل به ألم، والحياءُ هو أن يحسن ارتداع النفس عن الأمور التي يقبح تعاطيها والإقدام عليها، وعظمُ الهمة ألا تقتصر على بلوغ غاية من الأمور التي تزداد بها فضيلة وشرفا حتى تسمو إلى ما وراءها مما هو أعظم قدرا وأجل خطرا، وحسنُ العهد والمحافظةُ هو أن تكون أحوال القرابات والصداقات التي جرت المعرفة بينهم وبينه محفوظة عنده واقعة تحت الذّكر متمكنة من العناية.»

ابن سينا

الملك

« .... أصبحت أختي جارية من جواري الأمير.

ولم يكن أسوأ عليّ من هذا الخبر، فما من أحد يدخل القصر إلا ويغير دينه جبرا، ليصبح مسلما.

كنت ثائرا وغاضبا وأنا أعاتب أبي الذي أغضب الله، والنار المقدسة حين حرمنا من الزواج، ليرضي خوفه.

عاقبه الله على ذلك بكفر ابنته.

كانت نفسي تختلط بأشياء كثيرة، غضب عارم من أبي، وسعادة خفية بألمه الذي لم يكن يستطيع أن يداريه، وبشفقة عليه أن ينتهي عمره بهذه الحسرة وهو الذي قضى حياته لا يريد شيئا سوى أن يحافظ عليّ أنا وأختي.

هكذا حين نستهين بشريعتنا، يستهين الله بنا.

لكن..

ما ذنبي أنا.

ما ذنبه هو أيضا؟

ماذا يفعل الإنسان حين يبتلى بالخوف والعجز سوى ما فعل هو، كيف كان سيتحمل حياته في ظل خوف كبير يسجنه. لم تكن له عزوة أو سند، كنا بيوتا مجوسية قليلة في مدينة غلب في أهلها المسلمون.

رغم ذلك لم أملك المقدرة على مواساته، ربما لم أملك الرغبة في ذلك.

كنت أخرج أبحث عنها. أختي، وحبيبتي التي حرمني منها أبي وقانون المسلمين، أدور كل يوم حول قصر الحريم، معرضا نفسي لغضب حرس الأمير وخصيانه القساة.

كانت حكايات قسوتهم مشهورة يتداولها الناس.

أنصاف الرجال، الذين لا يدركون من النساء إلا أنهن جواهر الأمير، كأنهم حرس على خزانة لا قيمين على بيت يسكنه بشر أحياء.

ليس لأحد أن يمد إلى جواهر الأمير عينا ولا يدا، ومن قاده حظه العثر، فرأى منهم شيئا ولو بالخطأ، حين يعبر موكبهن أو يجتزن النهر، فإنهم يسلبونه حياته عقابا على ذلك.

أقضي النهار قريبا من القصر أراقب الداخلين والخارجين. لا تخرج النساء إلا في مواكب مستورة، يحيط بهن الحراس والعبيد. كانت لهن نزهة ثابتة في كل شهر، يخرجن إلى البحيرة، ينصب لهن الخصيان خياما، ويمدون لهن بسطا. ويظللن في لهو حتى تقارب الشمس المغيب فيعودن.

فحصت المكان قبل مجيئهن، حتى عثرت على جذع شجرة قد تجوّف، فسكنته، حتى وصلوا.

راقبت العبيد وهم يعدون الأرض، ويمدون المفارش والبسط، ثم نزلت النساء، ودارت أطباق الفاكهة وكؤوس الشراب.

كان صوت ضحكهن، وعبثهن يصلني واضحا وأنا أحاول من فرجة الجذع الصغيرة أن أكتشف أختي من بينهن.

توزع المغنون، وحضرت الفاكهة، وسمعت رنين الأوتار وقرع الدفوف.

كانت أكثر الألحان عربية، يغنيها جوار جئن من بغداد ومن أقصى بلاد المغرب، ومن الحجاز. وبين الألحان العربية، عرفت ألحانا فارسية قديمة أيضا.

كنت مشوش الفكر فلم أشعر بشيء مما يحدث. رنّة أصوات الغناء كأنها مطارق في رأسي، تزيد قلقي.

طال المجلس حتى انتهى، وانتحى بعض العبيد بالجواري. عند ذاك رأيتها، كانت متمددة بين يدي عبد، رأسه على صدرها، وأصابعه في شعرها.

غلى رأسي، وكدت أفضح نفسي وأصرخ خارجا من الشجرة، فأقتله. لكن عيني رصدت الحرس فجبنت عن ذلك.

من هذا العبد الذي تبدو في يده آثار القيود، ما علاقته بأختي؟

إحدى زوجات الأمير التي اشترت برستو غارت منها حين رأت جمالها، وخافت إن رآها زوجها أن تصرفه عن نسائه، فزوجتها لهذا العبد، لما رأته من ميله لها. كان عبدا أرمينيا. دبرت له بيتا يسكن فيه خارج القصر، وزفتها أمام مرأى من العبيد والجواري ونشرت الخبر في القصر، علّ ذلك يفلح في قتل قلقها.

أخبرني بذلك أحد الجنود الذين استطعت أن أتحدث إليهم بعد ذلك.

مضت سنة منذ هذا اليوم حتى استطعت أن ألتقي بها. عرفتها في السوق وهي تشتري حبوبا وخُضر.

لقيتني لقاء فاتراً، كأني ما قطعت هذه الشهور دامي القلب لكي أراها، وأمحو بعناقها جراح طول السير وأرد بها روحي الهاربة.

بدا صوتي خارجا من قبر بعيد وأنا أتحدث إليها.

- أحقا تركت دينك يا برستو.

- لم يعد اسمي برستو، أنا الآن ورد.

- تركت دينك واسمك لأجل هذا البائس الذي لم يشف معصمه من أثر القيد بعد.

- أنـت تعرف أن ذلك لم يحـدث، إنها أقدار السـماء علينا. هذا الذي تتحـدث عنـه هـو الآن زوجـي، وحق عـليّ أن أحترمـه، في حضـوره وفي غيابه. وإن أهنته فأنا البائسـة لا هو. أليس هذا في تعاليم المجوسـية.

- المجوسية أقدم من هذا الدين الذي دخل علينا، فأفسد حياتنا.

كنـت أعرف أنها ربما كانت مراقبة، تخشـى أن تتحـدث بشيء ينقل عنهـا. لا أصـدق أنهـا نسـيت كل شيء فجـأة. أردت أن أحـرك فيها أي عاطفة تجعلها تعيد التفكير في كل شيء.

قلت:

- وأي دين هذا الذي يسلب الناس حريتهم؟..

لم أتركها لتجيب، أكملت:

«شـتان يا برسـتو بين اعتناق الدين وبين الإيمان به، شـتان بين الإيمان وبين الاطمئنان. هل أنت مطمئنة لهذا الدين الذي اعتنقته. هل تشـعرين بالصفاء وأنت تقفين تدعين إلههم. بأي لسـان تدعين، بلسـانك أم بلسـانهم، هل يفهم إلههم لسـاننا، هل يجيب دعاءنا.

لو تعلمين أيّ تضحية ضحيت لأجل أن ألقاك، وكم صرفت من ليال لأجل هذا اليوم. هل تكون السـماء قاسـية لتتركني أعذب نفـي كل هذا العـذاب حتى أصل إليك، ثـم تقولين قد فرقنا ديننا، أيّ شريعة هذه التي تقف دون حياة الناس وسعادتهم. كيف أصدق شريعة تعد الناس بسـعادة في العالم الآخر وهي تحرمهم السـعادة في عالمهم الذي يعيشون فيه».

لم تجبنـي، رحلت وتركتني، وحيدا.. قالت أنت أخي وسـتظل أيامنا التـي قضيناهـا معا هي أثمـن شيء لك عندي، لكنـني لن أسـتطيع لقاءك بعد اليوم.

كانت قاسية وهي تردني. كانت قاسية جدا.

لو كان أحد مكاني ماذا كان سيفعل يا سيدي سوى أن يقتل هذا العبد الذي دنس روح أخته قبل أن يدنس جسدها.

لم تعد برستو تلك الفتاة العذبة، التي كان قربها مني يمنحني الحياة والعافية. كنت كمن قطع الصحراء بحثا عن الماء، فانتهى إلى صحراء أكبر وأقسى.

قتله، وأنا أعلم أني لن أعيد برستو الطاهرة بقتله، قتله لأني لم أستطع أن أقتلها هي».

كنت أبكي في القاعة وأنا أسمع حديث أخي، جاثية عند قدمي القاضي أطلب العفو له:

«إنه أخي وليس لي سواه».

«ما كان لامرأة مسلمة أن تشفع لكافر في حد من حدود الله».

وددت لو استطعت أن أسب هذا القاضي قاسي القلب، تمنيت أن أصرخ فيه «أنا لست مسلمة لو كان الإسلام دينا قاسيا هكذا».

كانت الغصة تملكني، وأنا أتشبث بثياب أخي، عاجزة عن دفع الموت عنه.

«لقد قتل زوجي، لكنه أخي. لن أفقدهما سويا».

كان صوت القاضي قويا يشق قلبي وهو يملي على كاتبه حكمه:

«من قتل يقتل».

***

«حيث كانت الرحمة تكون الشريعة».

دوى صوته كأنما هو حبل ألقي إليّ في لجة البحر، وقد شارفت على الغرق.

كأن الله قد سمع ابتهالات قلبي، فأرسل إليّ ملاكا من عنده. لم أرفع رأسي ناحية الصوت. سمعت القاضي يجيبه:

- لكنه حد، ولا رحمة في الحد ولا شفاعة.

- «المقتول عبد، والقاتل حر، ولا قصاص في غير مساواة».

- تكون عليه الدية، وأنىّ لهذا المعدم أن يدفع شيئا.

حبوت مسرعة حتى قبلت قدميه، وتعلقت بعباءته:

«أنا أبيع نفسي لك يا سيدي بديته».

لم يكن القاضي مقتنعا، لكن هيبة الرجل وصوته الواثق القوي منحاني اطمئنانا جعلني أدرك أن الأمر قد حسم وأن أخي قد نجا.

لم أكن أعلم من يكون، ولم أستطع أن أسأله، كان مهيبا وحين رفعت عيني إلى وجهه خفت أن يخطف بصري فأنزلتها سريعا.

كأنه لم يكن إلا مَلَك أرسله الله إلي وإلى أخي.

خرج أخي لا يصدق أنه نجا، وعدت أنا إلى القصر أفكر فيمن يكون هذا الرجل، وهل اشتراني حقا، هل سأنتقل إليه، وأكون عنده، كنت سعيدة لأن أخي أصبح حرا، وسعيدة بخاطري أني سأكون عند هذا الرجل.

عدت إلى القصر أنتظر.. لكن شيئا لم يحدث.

مضت الأيام التالية برتابة أيام القصر المعهودة، لا أحد يلتفت فيها لأحد، تجري الحكايات عابرة لا أصل لها ولا مستقر حتى مرضت سيدتي فانشغلنا بها. أصابتها حمى بعد عودتها من رحلة إلى الريف القريب. كنا نسهر إلى جوارها، نمسح وجهها بقطع مبلولة من القماش، وحالها يسوء، زاد عليها مع الحمى قيء مدمم، فأبلغنا الأمير، قال إنه سيرسل إليها طبيبه أبو علي.

جاء الطبيب، ولم أكن حاضرة معها، أعطى من كانوا قريبين منها كيسا فيه أعشاب طلب أن تغلى مع الماء، ثم تعاد إليه.

كنت في المطبخ حين جاءت الأعشاب، قالت الفتاة التي أحضرتها: سيدتي تريدها بسرعة، أحضري معك إناءً فارغا أيضا. ثم انصرفت.

حملتُ الأعشاب المغلية في إناء، وضعته في آخر أوسع منه، صعدت بها إلى سيدتي.

ظهره إلى الباب، لكنني عرفته.

كان هو الملاك الذي أنقذ أخي.

شعرت بقربه قبل أن أدخل إلى الغرفة، دق قلبي بسرعة عندما حاذيت الباب، وحين لمحته ارتجفت يدي، خفت إن هو نظر ناحيتي ألا تحملني قدمي، فيسقط الإناء.

أردت أن أجري إليه، أعانقه وأقبل يديه وقدميه. لكنني وقفت ساكنة لا أتحرك.

نادتني وصيفة الأميرة المقربة إليها:

«لِمَ تقفين مكانك هكذا، ضعي ما بيدك أمام الطبيب وانصرفي».

تقدمت ناحيته ببطء، أشعر بنبض قلبي في رأسي طرقا قويا، حتى حاذيته.

رفع وجهه ناحيتي، فرأيت عينيه؛ زرقاوين بلون السماء، وشعره المنثور من عمامته على كتفيه كأنه أشعة الشمس.

منحني وجهه اطمئنانا، وسكينة، هدأ الطرق من رأسي، ودب الدفء في أطرافي الباردة.

ناولته الإناء، وجلست على الأرض قرب قدميه، كأنني قطة قرب نار في ليل شتاء عاصف.

حاولت أن أتكلم فلم أجد صوتي، أردت أن أسأله إن كان يأمرنا بشيء آخر لسيدتي. رتبت الجملة أكثر من مرة وفي كل مرة أحاول أن أنطق بها، أسكت.

راقبته وهو يأخذ من الأعشاب، ويخلطه بعجين معه، ثم يقسمه في زجاجات صغيرة. يقول: «تشرب من هذا الدواء في الصباح والمساء،

ومن هذا قبل الغداء، سأكتب لكم طعامها خلال الأيام القادمة في وصفة العلاج، لا تخالفها حتى تشفى، وسأمر عليها بعد خمسة أيام».

ثم جمع أدواته، وانصرف، لا ينظر لشيء مما حوله.

* * *

«من هذا الطبيب»؟

«هذا أبو علي بن سينا، وزير مولاي الأمير، وأشهر أطباء الري وهمذان بل أشهر أطباء بلاد فارس وما رواء النهر. يثق فيه الأمير كثيرا، ولا يقطع أمرا حتى يسمع منه».

هو إذن طبيب الأمير ووزيره.

- يزور القصر كثيرا!

- بل يقيم في القصر أوقاتا طويلة.

اتسع القصر فجأة، حتى أصبح أرحب مكان إليّ، وقد كان منذ نزلته مكانا ضيقا يطبق على نفسي، ولا أشعر بصلة بيني وبينه.

رغم أن قصر الحريم مستقل في مبناه عن قصر الإمارة، وبينهما حديقة واسعة، إلا أن معرفتي بوجود أبي علي داخل أسوار القصر ساعات من النهار كل يوم كانت كافية لتجعلني فرحة.

لأي شيء أفرح؟

لا أعرف.

إذا أويت إلى فراشي، محت صورته كل ضجيج اليوم الذي كان، ورن في أذني صوت لحن جميل:

لي حبيب خياله نصب عيني واسمه في جوارحي مكنون

إن تذكرته فكلي قلوب أو تأملته فكلي عيون

وإذا صحوت، أسرعت إلى غرفة سيدتي، أطمئن عليها، وأنا أرجو أن يكون أبو علي قد حضر فأراه هناك، وأجلس قريبة منه أنتظر ما يأمر به.

لكن سيدتي شفيت سريعا، بعد خمسة أيام من العلاج، ولم يعد هناك

سبب لمجيء أبي علي.

في المرة الأخيرة أخبرها أنها لم تعد بحاجة إليه، ولا لأي علاج سوى أن ينتظم طعامها على جدول بينه لها لمدة أسبوع.

ناديته وفي نفسي أمل أن يذكرني، فلم يتذكر.

التفت إلي وسألني: هل أستطيع خدمتك؟

شعرت ببرودة تنتشر في أطرافي، وبروحي تنسحب من صدري. وانعقد لساني ولم أستطع أن أتكلم بشيء، فمضى.

***

عادت سيدتي تحضر مجالس الأمير في مقصورة النساء، تصحبها الوصيفة الأولى وحدها. كانت تلك كاتمة أسرارها، ومن تستعين بها في كل أمر من أمورها. لم يحدث من قبل أن صحبت سيدتي أيا من فتياتها معها، كانت دائمة الغيرة على زوجها الأمير، تخشى إن هو تعلق بجارية من جواريها، فلن تستطيع رده، وتكون هي التي فتحت هذا الباب بنفسها.

تلمست العلل لأكون معها إذا ذهبت إلى هناك فلم أفلح.

حتى كان يومٌ حمل البريد رسالة طلب إيصالها إليها على وجه السرعة، وكانت قد ذهبت إلى القصر.

أدركت أن الله يريد أن يفتح لي هذا الطريق، وإلا فلِمَ أتى البريد وأنا حاضرة. أسرعت أحمل الرسالة، وأنا أتعثر في ثيابي، حتى دخلت عليها لاهثة مِن عجلتي، فوقع في نفسها أن في الأمر خطرا.

قرأت الرسالة ثم سألتْ عن حاملها.

قلت: هو في جناحك لم يغادر بعد.

قامت مسرعة ولحقتها وصيفتها وبقيت وحدي في القاعة.

خفت أن أبقى وحدي، فتغضب، ولم تطاوعني قدمي على اللحاق بها فبقيت.

كان الغنـاء يأتي من القاعة، رنـة عود، وصوت جارية، وترديد جوار مجتمعات:

ألا حبّذا الوجهُ الذي جمع الحُسْنا كأن سناه الشّمسُ لكنّه أسنى
ويـا من هواه في ضميري مخلّد وأدنى إذا فكّرْت من ثوبي الأدنى
طلبت سلوّاً من هواكَ فلم أجد وألزَمْتُ نفسي الصبرَ عنك فما أغنى
هواكَ إلى قلبي ألذّ من المُنى وأعذب من ماء السّحائب بل أهنا

أزحت طرف الستائر أبحث عنه بين الحاضرين.

كانت القاعة مضيئة كأنه نور الشمس، والأمير شمس الدولة على سريره، والعازفون في طرف من أطراف القاعة، على رابية من الأرض، والجارية التي تغني تجلس على بساط ممدود، متكئة إلى حشية مطرزة أمام تخت الأمير.

أدرت عيني أبحث عن أبي علي بين الجالسين فلم أجده.

ضُرب العود من جديد، وجاء صوت المغني يدندن:

يا غـزالاً إذا نظـرْ وقضـيبا إذا خطـرْ
أنت علّمت مقلتي رعيـة النجم والسهرْ
طاف بالكأس أغيـدٌ وجهه كاسمه قمر
كيف لي بالسلوّ عنه ما عنـه مصطبر

لما انتهوا من الغناء، لم يكن الحديث سوى حكايات فكاهة وسمر، عن أخبار الأمراء، والكتاب ورجال الدولة.

لم يظهر ابن سينا بينهم حتى تأخر الوقت، فعدت لا أحمل في نفسي إلا لحن تلك الجارية، «ألا حبذا الوجه الذي جمع الحسنا». وخذلانا لا أعرف كيف أصف حده.

مضى أسبوع حتى استطعتُ أن أعود مرة أخرى إلى هناك. جلست قرب الشرفة، وأزحت الستار وتعلق بصري به، حين وجدته جالسا قرب الأمير.

أردد الغناء الذي أسمعه كله، وهو حاضر معي، حتى انتهى الغناء وانصرف المغنون.

قال الأمير: قد وعدتنا أن تفصل لنا الحديث في بناء المدينة يا أبا علي، ونحن ننتظر وفاءك.

- إن أذن الأمير أخرناه إلى الغد.

- ولِمَ؟

- إنّ عقل السامع بعد جلسة طرب، لا يضع الجد من الحديث موضعه الذي يستحقه.

- أنت من يقول هذا، ومجالس الطرب لا تنقطع من بيتك، حتى مطلع الفجر.

- الفرق يا سيدي في موضع الجد من الطرب، فهو حين يأتي بعده، يكون استراحة من عنائه، وتقويا عليه بعد ذلك، أما حين يكون قبله، فالنفس تظل متعلقة بخفته، ويصعب عليها إتيان ما يلزم الجد من جد. فيقع في العقل على السطح لا في العمق، وسرعان ما يضيع في غير مكان.

- أخشى أنك تهرب منا يا أبا علي.

- لأي شيء أهرب؟

- اسأل نفسك..

جاءت عبارة شمس الدولة غاضبة في غير سياق غضب، فبدا على وجوه الحاضرين اضطراب وقلق.

قال أبو علي:

- لم أعتد أن يحدثني الأمير بهذه الطريقة، هل ساءه منّا شيء؟

- ولا اعتدنا أن تتأخر علينا حين نطلب منك شيئا. أم ترى ما بلغنا عنك صحيح؟

- وما بلغك؟

- بلغنا مما بلغنا... أن أبا علي، طبيبنا ووزيرنا الذي أمناه على أجسادنا، وأسرار دولتنا يراسل الأمير علاء الدولة في أصفهان.

- وصدّق الأمير ما بلغه؟

- وهل تخرج رائحة المرق ما لم يكن في القِدر لحم؟

- ليس الأمر كما بلغك، فلم يكن الأمير علاء إلا طالب طبٍّ من طبيب، لا طالب سياسة من وزير، وليس الطب مما يُملك، فيمنعه من مَلَكه على من طلبه محتاجًا.

قال شمس الدولة متهكما: أنت طبيب مجتهد يا أبا علي!

- شرف للمرء أن يتقن فن صحة الأبدان، ويعلمه لغيره. وهل تتحقق العبادة لله في الأرض إلا من أجساد صحيحة، وعقول سوية.

- ودول قوية أيضا.

- الدول القوية لا تحتاج إلى أطباء، بل إلى مربين.

- مربين لمن يا أبا علي؟

- لكل من فيها. للملك، وللعامة، وللوزراء بينهما.

- الدولة تنظم شئون الناس وتقوم على مصالحهم.

- وكيف تعرف الدولة مصالح الناس بغير تربية، وكيف يعرف الناس أن هذه مصالحهم فيقفوا عندها ولا يتجاوزونها بغير تربية، وكيف يتقن الوزراء الوساطة بين الملك ورعيته بغير تربية.

- انظر ما يحدث الآن في همذان. عمّت الفوضى كل شيء، امتنع المزارعون عن دفع خراجهم، ومنع التجار ضرائبهم، وهاجت العوام في الشوارع وفي المساجد. وأمسى وضع بيت المال حرجا، ولن يستطيع تحمل أي معركة ندافع بها عن همذان إن أرادها أحد بسوء، وهم كثير، وأقربهم الترك الذين تجول جيوشهم في أرض فارس لا يمنعها أحد.

- الناس إذا تذمروا أو ثاروا يا سيدي، فإنهم لا يثورون إلا بحق لهم يدركون غيابه ويحتاجون إليه، لأن ميل كل شيء بالأساس إلى السكون

لا إلى الحركة، فانظر ما لهم من حق حرّكهم فاقضه إليهم. فهذا كفيل بأن يجمعهم عليك، ولا يفرقهم عنك.

- وكيف أتابع شئون هؤلاء العوام، وهذه الأخطار تحيق بنا من كل جهة. ألم ترَ ما كان في الري بين أمنا، وأخينا، ألم تستعن ببدر بن حسنويه لتعزل مجد، ولولا أننا تداركنا الأمر، لخرجت الري من يدي ويد أخي بحيلة بن حسنويه هذا.

- وماذا يفيد تأمين حدود مدينة تأكل الفتن قلبها. إلا أن تنطبق جدرانها من ثقل الحرس عليها. المدن كالعالم، لولا أن له قلبا يشد أطرافه إليه لانهار منذ زمن.

- وماذا نفعل والحال كما ترى؟

- كن أنت قلب هذه المدينة.. رتبها، يستقم أمرها.

- لن يجدي ذلك الآن. يحتاج إلى وقت طويل!

- ومع ذلك فليس أمامنا سواه. فحين يُعرض للطبيب مرضان أحدهما سبب للآخر، يكون علاج السبب هو الأولى، وصرف الوقت في علاج المسبب حمق يقتل المريض.

- فإن لم يكن له صبر على الثاني، هل نترك الألم يقتله حتى نداوي سبب هذا الألم.

- نحتال ليخفف الألم، ونحن نعلم أنه لن يتحقق له العلاج التام أبدا.

امتد الحديث بينهما، يسأله فيجيب. وبدا أن شمس الدولة قد هدأ وأن أبا علي قد استطاب الحديث، ينتقلان من مشكلة إلى أخرى، حتى سأله عن ترتيب المدينة كيف يكون فقال:

- الإنسان يا مولاي منذ وجد في الدنيا، فارق سائر المخلوقات بأنه لا يحسن معيشته لو انفرد بحياته من دون شريك يعاونه على ضروريات حاجاته، فبحث دائما عمن يعينه، ويكفيه.. واحد يُقِل له، وآخر يخيط وثالث يداوي.

ثم احتاج مع ذلك إلى شريك يسكن إليه، تهدأ معه نفسه، وتتجدد في حضرته روحه، فكانت الزوجة، سكنٌ وحرث تزيد له في قوته ولدا، يؤمنه وحدة الدهر وغوائل الأيام.

ومن الأسرة ،كانت المجتمعات ،ثم كانت المدن.

المدينةُ يا سيدي ليست سوى اجتماع أشخاص على هيئة صالحة، لقضاء مصالح مشتركة بتمام شروطها. وأول هذه الشروط وجود الملك.

الملك هو منظم كل ذلك، عنده تنتهي مصالح الناس، فإما أن يكون نهرا، يحسن الجمع من الروافد، والتوزيع في القنوات، أو بركة تتجمع فيها المياه، حتى تأسن. وهذا لقاء ما للملك من فضل وهيبة، وعلوٍّ وسلطان.

ولعل سؤالا يُطرح هنا، وهو سؤال قديم عند الفلاسفة.

ألا يكون من الظلم أن يكون في الناس ملوك وعوام؟

وجواب ذلك سهل، فالله منَّ على الناس بفضل رأفته منّا مستأنفا بأن جعلهم في عقولهم وأفهامهم متفاوتين كما جعلهم في أملاكهم ومنازلهم متفاضلين، لما علم مِن أن تساويهم وتقاربهم باب للفساد وللتفاني، فلو كان الناس كلهم ملوكا لتفانوا حسدا، ولو كانوا كلهم سوقة لهلكوا سريعا، ولو استووا في الغنى لما مهن أحد لأحد، ولا رفد حميم حميما، ولو استووا في الفقر، لماتوا ضرا وهلكوا بؤسا. فكان اختلاف أقدارهم وتفاوت منازلهم سببا لوجودهم جميعا وكل ذلك من شواهد الحكمة وعلامات لطف التدبير.

- فإن لم يكن لهم ملك؟
- فإن لم يكن لهم ملك كان اجتماعا لا مدينة.
- وما الفرق بينهما؟

- لا مشاركة بغير معاملة، ولابد في المعاملة من سنة وعدل، ولابد للعدل والسنة من سانّ وعادل. في الاجتماعات غير المدنية تكون السنن هي الأعراف التي تعارف عليها الناس، ويكون العدل هو ما يحكم به كبير يختارونه أو تفرضه الظروف لوجاهته أو قوته، أما في المدينة فالملك هو السّانّ وهو العادل وفق شريعة مقررة، وهو الذي يضمن للناس استقامة أحوالهم، وراحة معاشهم.

- كأن الملك خادم ومخدوم؟

- الناس كلهم خدم ومخدومين.

- والأرزاق؟

- لو تساوى الناس في الأرزاق كانوا كلهم شيئا واحدا، فيتنافسوا على الشيء الواحد تنافس الأكفاء، ثم يتفق لهم بذلك طبع واحد، فيستحسنوا شيئا واحدا، ويطلبون شيئا واحدا، وليس من شيء واحد في الأرض يكفي الناس جميعا. فيكون تساويهم باب فنائهم لا باب بقائهم.

- فكيف يكون العدل إذن، ومن يسنّه، والناس تفهم العدل فهما متفاوتا. فمن قضيت له بمصلحته، سماه عدلا، ومن قضيت له بعكسها رآه ظلما.

- لأجل ذلك لم يجُز أن يترك الناس لأهوائهم، بل كانت الحاجة لسنة عادلة، من سانّ أعلى، لا يكون كالناس يرى ما له ولا يرى ما عليه.

- ومن هذا السانّ؟.

- الشريعة التي أوحى بها الله للنبي هي هذه السُّنّة، تنظم حياة الناس، وغاية الشريعة أن يفعل كل واحد الخير مع نفسه ومع شركائه حتى يتم الخير في الدنيا كلها.

الشريعة من الله، والقائم عليها النبي، ثم يكون الملوك وهم خلفاء النبي حراسا على مصالح الناس بما هي عليه في الشريعة. وكل أمير على اجتماع، هو خليفة النبي على مصالح الناس في هذا الاجتماع.

- النبي كان ينظم شئون الناس بالشريعة التي هي وحي السماء، وليس للملوك هذا الوحي. والناس تقرأ نصوص الشريعة المكتوبة وغير المكتوبة بأفهام عديدة. فكيف يستوي العدل والأفهام متعددة؟

- يعمدون إلى الحكمة العملية، في أبوابها الثلاثة، الحكمة المدنية والحكمة المنزلية والحكمة الخلقية، ومبدأ هذه الثلاثة هو جهة الشريعة الإلهية، وكمالات حدودها لا تستبين إلا بالشريعة الإلهية، ثم يتصرفون فيها بعد ذلك بالقوة النظرية من البشر فيعرفوا قوانينها الكلية، ويجتهدون لبناء الجزئية على الكلية. فللأوقات أحكام لا يمكن أن تنضبط بقانون واحد. ولو نظمت الشريعة كل شيء حتى أصغر جزء، لتعذرت على الناس حياتهم. وهذه الشريعة، التي سُنت لتنظم حياة الناس على الخير، حملت في جوهرها ما يربي الناس على هذا الخير، فسنت لهم رياضات بدنية تهذب نفوسهم لتستقيم مع ما ستأمرهم به من عمل. إذ الناس ينفرون من كل دعوة إلى الخير كأنه مخالف لطبيعتهم التي خلقوا منها. وهذه الرياضات هي في أبواب العبادة، والخوف والرجاء، ثم في أبواب العقل والمعرفة. وهذان القيدان لازمان لخيرية الحياة، ألا ترى أن المحلول من أحدهما أو كليهما لا يطاق حمل ما يرتكبه من فساد، فيختل ميزان العالم.

- نعم.

- لذا توجب أن يكون في السُنّة عقاب له، فليس كل إنسان بمنزجر عما يخشاه في الآخرة. وهل تميز الإنسان فيما تميز عن البهائم إلا بالثواب والعقاب، البهائم متروكة لا تُسأل ولا تعاقب. وأمر المدينة لا يترك إلى أخلاق الناس وضمائرهم، بل إلى الحفظة الذين يضبطون كل ذلك.

***

«ثـــم بويع علي بـــن شمس الدولة علـــى همذان، وطلب استيزار الشيخ فأبى، بعد ما رآه من فعل الجند أيام أبيه، وأقام متواريا في دار أبي غالب العطار أربعة شهور، تمم فيها كتاب الشفاء، كان يكتب في كل يوم خمسين ورقة من غير كتاب معه، بدأها بكتابة رؤوس المسائل حتى أكملها في عشرين جزءا ثم ابتدأ في شرحهـا حتى أكمل الطبيعيات والإلهيات، وابتدأ بالمنطق.

ثم اتهمه تاج الملك من جديد، بمكاتبة علاء الدولة حاكم أصفهـان، فأرسل مـن يبحث عنه حتى دلـه عليه بعض أصدقائه، فقبضوا عليه وسُجن في قلعة فردجان».

أبو عبيد بن الجوزجاني

فردجان

الثلج يسقط رذاذا خفيفا لا يكاد يرى، تشعر به «ورد» على وجهها وهي تواجه الرياح التي بدأت تهب في تلك الساعة المبكرة من الليل. ستزيد سرعتها، وستكون عاصفة إذا انتصف الليل، وعليها أن تصل قبل أن يحدث ذلك وإلا باتت في الطريق حتى يطلع الصبح وقد تجمدت.

مشت متعثرة في ثيابها، والثلج الناعم يكسو الأرض غير الممهدة، فيبتلع نصف ساقيها، وهي تتحرك بثقل، تساعدها عصا طويلة تغرسها في الأرض مع كل خطوة. تلثم وجهها، وهي تسلك الطريق الذي اتفقت مع مهرام عليه.

كانت قد وصلت إلى فردجان في الصباح، خرجت من همذان قبل يوم كامل، قطعت خمسة عشر فرسخا قبل أن تلوح لها القلعة في الأفق باهتة كأنها قمة جبل بعيد، لم يكن الجو يسمح برؤية أكثر من أميال قليلة، بعد ذلك يذوب كل شيء في الضباب الكثيف.

كان عليها أن تنتظر حتى يحل الليل قبل أن تكمل سيرها إلى القلعة كما اتفقا. انتظرت في خان على أطراف المدينة.

ما بقي لها في الطريق، يقطعه السائر في ساعة والأرض ممهدة والجو معتدل، سارت هي ثلاث ساعات كاملة قبل أن يملأ الأفق ضوء مشاعل القلعة.

لم يكن أمامها حين تصل إلا الانتظار حتى يراها مهرام ويفتح لها. لم تكن بينهما وسيلة تواصل أخرى، لن تستطيع أن تطرق الباب حتى لا ينكشف أمرهما، وقفت في الجهة التي حددها لها، كانت هناك أشجار مصفوفة في خط واحد، عدّت خمسا من جهة الشرق، واتكأت على السادسة. يمكنه رؤيتها بوضوح عند هذه الشجرة من حراسه، وتكون

بمأمن من عيون بقية الحرس. اختبر عدة مواضع أخرى قبل أن يستقر على هذا الموضع.

خلفها بخطوات، بيت قديم، فيه مدخل سرداب ينتهي إلى القلعة. سيخرج منه ليصحبها عبره إلى الداخل.

فتح الباب ونزلا سلما من عشرين درجة.. بعده ممر طويل ضيق.

احتضنها الدفء حين انتهوا إلى الممر.

على جانبيه تتابع مشاعل متوهجة تمنحه الدفء، ووشيشا يضاعفه تقب السقف، يرن صوت أقدامهما على حجارة الممر حتى يبلغا سلما آخرا، فيصعدانه، ويغلق الباب خلفهما.

لم يتبادلا أيّ كلمة، سارا صامتيْن، يقطعان مسارب القلعة، يصعدان درجا وينزلان آخر. يفتح مهرام أبوابا ثم يعود يغلقها، يضاعف الخوف أصوات الأبواب فتحول إلى زئير قوي يرن في نفسها كلما أمعنا في عمق القلعة.

بدت القلعة خالية إلا منهما، خرجت حاميتها تؤمن القصر بعد أن بلغتها أخبار هزيمة الأمير عليّ بن شمس الدولة وتاج الملك أمام علاء الدولة أمير أصفهان.

خاف قائد الشرطة من تمرد جنود القصر الذي ظهرت بوادره. فحرك الحامية إليهم، رأى أن حماية قصر الإمارة أهم من حراسة قلعة خالية إلا من سجناء لا قيمة لهم.

وصلا إلى حجرة صغيرة باردة من الحجر، لها كوة مظلمة في السقف، ومصباح زيت صغير معلق بالجدار، لم يكن فيها سوى فراش صغير، ومخلاة قد جعلها الشيخ النائم طاولة صغيرة، نشر عليها أوراقه.

مالت ورد على الشيخ المتكور في غطائه، تهزه.

«سيدي.. أبو علي»

كانت لاتزال تخفي وجهها بلثامها حين فتح عينيه ببطء فالتقت عيناهما.

«هيا يا سيدي لتخرج من هنا، ليس أمامنا وقت كثير، رتبنا لك بيتا تجلس فيه يومين حتى تهدأ العاصفة، ثم ترحل بعيدا عن هنا».

نظر أبو علي إلى الحارس الواقف عند الباب بريبة، وهو يعتدل في جلسته.

«لا تقلق إنه مهرام، تلميذ لك لا تعرفه، لن يشي بنا، هو الذي ساعدني لنرتب الأمر، ولولاه ما وصلت إلى هنا».

«من أنتِ»؟

«أنا عملكَ الحسن».

ساعدته في ترتيب أوراقه ووضعتها في المخلاة الصغيرة، وأسرع مهرام يحملها ويفتح لهما الباب.

في نفسه شك منهما؛ ربما كانا مرسلين من قائد الشرطة، أو من تاج الملك، حيلة يدبرانها لقتله بعد أن هاجموا بيته وسرقوا متاعه وكتبه. لقد أغروا الأمير شمس الدولة من قبل بذلك فاكتفي بإبعاده، ولولا أن علته التي كان يعالجه منها أبو علي عاودته لربما كان تصرفه غير ذلك. الآن وقد توفي شمس الدولة، فابنه علي يتبع قادة جنده فيما يشيرون عليه به.

ومما زاد شكه صمت القلعة التي لم تكن تهدأ أبدا قبل ذلك، أين ذهب الحرس؟.

سار صامتا يدور عقله يبحث عن أسباب لما يحدث حوله، ويستغرب اطمئنانه رغم ذلك.

ربما هو صوتها الحنون الذي تسرب في نفسه وهي توقظه. لأول مرة يصحو أبو علي منذ فارق أمه في بخارى على صوت حانٍ ينادي باسمه.

أسماؤنا، مفاتيح قلوبنا، منشورة للجميع، لكن القليلين من يحسنون استعمالها.

ظل وجهها مستورا، عيناها البنيتان، تشعره أنه يعرفها. أين رأى هاتين العينين من قبل.

ربما هي العيون تتشابه حين تستر الوجوه.

من قال هذا؟

من قال إن العيون تتشابه حين تستر الوجوه. وهل في الدنيا عينان متشابهتان؟

لم يكن صافي الذهن وهو يفكر، قلقه يقطع عليه دوائر تفكيره، فلا تكتمل. ربما كان يقطع قلقه بهذا التفكير أيضا. كيف لمثله وهو يعلم ما يحاك له أن يقوم مع اثنين لا يعرفهما، جندي وفتاة ملثمة، لا يتحدثان.

يحاول أن يتفرس من وجهيهما أي شيء فلا يجد.

لو أنه اطلع إلى عقلها الآن لسمعها تحدث نفسها: «هل عرفها»؟.

ودت لو تخبره أنها تلك الفتاة التي جثت عند قدميه في ذلك اليوم، سيعرفها بالتأكيد وحده، هو رجل ذكي، لولا ذكاؤه لما كان في هذا المكان الآن.

رجل لا يشبهه أي أحد، فريد كأنه نبي يحمل دعوة صافية، لم يدنسها البشر بعد، ودت في كل ليلة سمعته في مقصورة النساء لو أنها تبعته.

الملك الذي رد روح أخيها من القتل، ورد للأمير روحه حين مرض فلم يمت.

يتهامسون في القصر أن ابن سينا يملك فن دفع الموت. أما هي فكانت تؤمن أنه يملك سر بناء الحياة.

سمعَتْه يقول للأمير يوما وهي في المقصورة:

«أيها الأمير، تعددت الأقوال في بناء المدينة وإدارتها، وما تقوم به

أحوالها، والذي أراه من نظام هذا الدين الذي تقوم عليه حياتنا أن المدينة إنما تقوم على ثلاثة أجزاء، المدبّرون، والصناع، والحفظة.

ويكون لكل جنس من هذه الأجناس رئيس مرتّب تحته رؤساء يلونه، وهكذا تحت كل واحد من يليه حتى ينتهي العمل إلى أفناء الناس. درجٌ مرتب، لا يقوم أعلاه إلا بأسفله، ولا يصلح أسفله إن فسد أعلاه.

ولا يصح أن يكون في المدينة بطال ولا عاطل. والبطالون المدينة لا يخرجون إما من ذوي العاهات، أو متكاسلين وأرباب صناعات فاسدة تغني عن تعلم صنعة ذات فائدة، كالسرقة والقوادة.

أما العطالون من ذوي العاهات، ففريق رأى أن تتخلص منهم المدن بالنفي أو بالقتل، ونحن لا نرى ذلك، فكفايتهم وقوتهم لا تجحف بالمدينة؛ بل إن نبذهم يجحف بأخلاق أهل المدينة ودينهم. فإن كان لهم قرابة رجع بهم إلى قرابتهم وكفايتهم على «المدبرين» في المدينة، وإلا أقيم لهم مأوى، تكون فيه كفايتهم.

أما العطالون من غير أصحاب العاهات، ومن أصحاب الصناعات التي لا تحتاج منها، أو تلك الصناعات التي تنتقل بها الأملاك من دون مصلحة متحققة كالقمار والربا، فلابد لهم من العقوبات والغرامات.

ولا يصح أن يسمح بصناعة ما لم يكن فيها عوض. والعوض منه ما هو جوهر مادي أو منفعة أو هو ذكر جميل أو غير ذلك مما هو معدود في الخيرات البشرية.

ولابد للمدينة من وجه مال مشترك، يكون بعضه من حقوق تفرض على الأرباح والمكاسب الطبيعة، وبعضه من الغرامات والعقوبات، وجزء يكون من أموال المنابذين للسنة، بعقوبات تفرض عليهم. ثم يكون هذا المال مصروفا في المصالح المشتركة لأهل المدينة، ورزق من لا يستطيعون العمل.

- الوزراء مثلك يحيون المهالك يا أبا علي.

- الوزراء مثلي، يحال بينهم وبين المعرفة، ونورها بأستار السياسية السميكة حين يجلسون على أسرة الملوك.

- فمن ينير للحاكم الذي تلفه هذه الأستار، وبطانته تغشيها الطنافس وثياب الملك.

- ينير له طريقه، عالم مخلص، لا يغريه ببريق الملك فيفسده، ولا يخيفه بسطوته فيسكته.

- العلماء يخشون القصور يا أبا علي.

- العلماء يخشون الجحيم يا سيدي.

- وقد يكون في الجحيم باب إلى الجنة.

- ليست كل الطبائع قادرة على تلمس باب الجنة من الجحيم. أولى بطالب السلامة ألا يورد نفسه مثل هذا الاختبار الصعب.

- وأنت يا ابن سينا؟

- وأنا أيضا.. تلك مشقة لا أقوى على حملها.

- كأنك تريد أن نعفيك.

- لو وافق الأمر فسأكون شاكرا له.

كان الأمير وقتها واقعا تحت تأثير صاحب الشرطة، فوجد في طلب ابن سينا ما يعفيه من حرج قربه، وحرج إبعاده، فوافقه دون جهد..

- ليكن، ولك أجر المدبرين، عطاء وزير لا ينقطع.

هكذا تكون الحياة مع الملوك، لا شيء ثابت فيها، كوجه البحر، ناعم حتى إذا عصف أغرق أقرب الناس إليه. مات أمير وجاء أمير، سمعته في آخرة مرة تدخل فيها إلى المقصورة يصدر قراره بحبس أبي علي حسين بن سينا في قلعة فردجان.

***

عند الباب الذي دخلت منه ورد، كسّر مهرام الصمت وهو يقول: لن أستطيع أن أصحبكما، هذه الغابة ستحميكما من الرياح، وستجدان فيها جوادين قويين ودليلا يعرف الطريق، سيرشدكما إلى حيث يمكث الشيخ حتى ندبر له الرحيل. ستكون كلمة التعارف بينكما وبين الدليل هي «أين موضع الصقر النازل»؟. سيكون جوابه: «الباحثون عن النجوم، هم النجوم».

ساراا صامتين قد جمّد البرد أطرافهما وأفكارهما، لم يكن أحد منهما يفكر في شيء، سوى بلوغ حد الغابة.

سألته تكسر الصمت بينهما:

- كيف كان سجنك؟
- ما كل متقلب في سبب مؤلم يحس بالألم.
- كنت سعيدا؟!
- السعادة في العقل.
- وألم الجسد وآلام الروح؟!
- ليست سوى صور.. والعقل الذي يعرف الفرق بين الأشياء وصورها، لا تشغله الأوهام عن الحقائق. هل يشعر المخدَّر بالألم؟
- لا يشعر.
- لأن عقله محجوب عنه.
- وعقلك؟
- يبحث عن المعرفة وينشغل بها، سجنه كان في حضرة السلطان، ومن ذا الذي صحب السلطان فدامت له السلامة. إنهم كالنار تحرق ما حولها. السجن لم يحرق سوى قيد السلطان الذي قيدت نفسي به.
- أنت من فعل؟
- نعم. لي مع نفسي الراغبة في عالم الملكوت نفسا تحب مباهج الدنيا،

كلما ارتفعت تعلقت بها رغباتها فقيدتها. كنت فرحا بالوزارة، أعرف أن ثقلها فوق ما أطيق، كيف يرى المحجوب بالمواكب الفارهة نور الحق. كيف يسمع من تدوي حوله صلصلة أجراس العربات صوت أي شيء حتى صوت نفسه.

كان سجنا أنا الذي طلبه، كسجون كثيرة نضع أنفسنا فيها بأيدينا. ولولا رحابة حلم الله، لما نلت من المعرفة شيئا، ولأعتمت نفوسي حتى لا تعرف السعادة أبدا، وما السعادة إلا في إدراك الكمال، وهل تدرك النفس المعتمة كمالا أو نقصانا. إني لأشكر الله كل لحظة، أنه لم يُخل حياتي من وميض يحيي به قلبي، ويثبت قدمي.

كان حديثه إليها حديثا إلى نفسه، كأنها أجرى الله على لسانها ما كان يتحرك داخله، يكتشف أشياء كان يتهرب منها.

كان بإمكانه أن ينصرف لطبه وفلسفته، ولا يحرق نفسه بهذا المنصب، لكنه لم يستطع أن يقاوم، وأنى له المقاومة والمحتمي بالعلم في هذا الزمان ضعيف.

يسيران بين الأشجار، لا ينظر أحدهما للآخر.

يقلب حياته في خاطره.

هل كنت سأعرف ما عرفت لو بقيت في مستشفاي مع المرضى، والممرورين فقط.

الوزير لا هو ملك كامل، ولا هو رجل حر.

هو حلقة الوصل بينهما. بين الملك وبين رعيته، بين المدبرين وبين الصنّاع والحفظة.

الملك لا يَرى.

الوزير عينه.. وكنت عينا صحيحة مبصرة، ماذا يبقى للناس لو أحجم أهل البصر عن وزارة الملوك.

خسرتُ!

ربما..

لكنني فزت بأشياء لم أكن لأفوز بها لو لم أخض هذا الغمار.

***

بقيا في دار العلوي شهرًا منعزلين عن كل شيء، يأتيهم خواص تلاميذ الشيخ بالطعام والشراب، ولا حيلة لهم في الخروج. قالوا إن الجند يرصدونه في كل الطرق الخارجة من همذان، والخير في أن يظل مختفيا، حتى تهدأ الأمور.

خلال هذه المدة كتب الشيخ «المنطق» من «الشفاء»، وأعاد تحرير «كتاب الهداية»، ورسالة «حي بن يقظان». ثم رأى أن يتحرك إلى أصفهان بعد أن جدد أميرها الدعوة لاستقباله.

قالت ورد: سأصحبك إلى أصفهان. لم يبق لي أحد هنا، سافر أخي، وليس لي مكان في القصر بعد أن تركته.

لم تكن ورد قد تحدثت معه خلال تلك الفترة. كان يقضي وقته في لقاء من يأتيه من تلاميذه سرا، أو في التدوين ومراجعة ما بين يديه من أوراق.

أما هي فكانت تقوم بترتيب البيت، الذي لم يكن سوى كوخ صغير في طرف بستان العلوي. حتى جاء موعد رحيلهم، فعلمت أنه يرتب ليصحبه في رحلته تلميذه الجوزجاني فقط.

تنبه فجأة إلى أنه قد نسي أمرها تماما، نسي حتى انشغاله بمعرفة من هي، تعاقبت الأيام مزدحمة منذ وصل إلى بيت العلوي، أخبار من همذان، وأخبار من الطريق، وأخبار من أصفهان، ولقاءات تبدأ أول اليوم ولا تنتهي حين ينتهي.

قال : أنت تلك الفتاة عند القاضي...؟

- نعم يا سيدي، أنا تلك الفتاة التي رددت إليها حياتها، حين رددت إلى الحياة أخاها. وأنا تلك الفتاة التي كانت تقف إلى جوارك حين مرضت زوجة الأمير شمس. جاريتك التي اشتريتها في ذلك اليوم بدية أخي. أما عرفتني.

- عرفتك.

- لو عرفتني لأذنت لي بصحبتك.

- صحبتي لا تورث إلا المشقة والتعب.

- وأي مكان في الحياة ليس فيه مشقة ولا تعب، وإن مشقة في جوارك لهي الراحة، التي لا راحة غيرها.

- إننا مقدمون على أمر لا نعلمه يا ورد.

- أكون معك فيه.

تدخل أبو عبيد في الحديث وقال: مكان الورد حدائق أصفهان يا سيدي، لا خرائب همذان.

- الطريق غير آمنة.

- ربما أمِنّا بصحبتها.. وجود امرأة سيكف عنا عيونا وأيد كثيرة.

- وربما يفتح عيونا أخرى لم تكن لتفتح.

- عيون قطاع الطرق، غير عيون راصدي الأمير.

- وهل من الفضل أن يحتمي الرجال بصحبة امرأة؟!

ثم بدا له الأمر مقنعا، أو هكذا تمنى.

كان في انتظار حجة يقنع بها نفسه لتصحبهم هذه الفتاة التي اقتحمت حياته فجأة من دون تحرٍّ ولا انتظار.

من قال إنها جاءت بلا انتظار.

إذن فأي شيء كانت تلك السنين التي مرت عليه، كلما حلّ فيها ارتحل، لا حظ له من شيء إلا حظ المسافر الذي يبيت في الخان الغريب، لا أنس ولا سكن ولا مستقر.

تتغير البلاد، وتتغير النساء، وهو القلق، الذي لا يزيده تغير البلاد والنساء إلا قلقا، وضيقا. لم يتزوج. وأنى له أن يفعل ولم تُنَخ له راحلة منذ أربعين سنة. كلما نزل بلدا استأجر بيتا واشترى جارية واثنتين وثلاث، ولم تكن تغن الواحدة ولا الاثنتين ولا الثلاث.

آن له أن يسكن.

ولعل في ورد السكن.

ألم يكن صوتها الذي روى روحه في ليل القلعة البارد، هو الذي أمنه من خوف، وفتح له هذا الطريق الذي هم فيه يسيرون؟!

ألا يكون اسمها إشارة وفألا حسنا؟!

لكنه لم يعتد أن يحمل همَّ أحد في تقلباته.

خرج من بخارى وحيدا، وسار إلى كركانج وحيدا، ثم سار إلى قزوين وحيدا، اختطفه قطاع الطرق وحيدا، وكان يسيراً أن يقنعهم أنه بائع كتب جوال فتركوه لأنه لم يكن معه سوى الكتب.

ومنذ لقي أبو عبيد في جرجان، وهو صاحبه الوحيد؛ شيخ ومريد، أو والد وولد، لم يتركه في حل ولا ترحال، يعلمه، ويؤدبه، ويأنس بصحبته.

قبل الفجر بساعتين، كانت الرواحل تعد، والأمتعة تشد، وأبو علي واقف يرقب الأفق من ناحية همذان، ويودع ثمان سنوات من عمره قضاها فيها.

أمـا ورد فكانـت مشـغولة بإعـداد صندوق الطعام، قد لبسـت ثوب سفر، لا يعوقها في ركوب جوادها، لفت رأسها بغطاء طويل، يمكنها أن تستر به وجهها إذا هاجت الرياح، وذرت الرمل في العيون.

ومع الشروق، وعلى مسيرة ساعة من همذان بدت ظلال أربعة جياد وناقة تقطع الصحراء ناحيـة الجنوب، تقصر الظلال ومعه يطول الأمل، وفي نفسه يتردد صوت يقول: آن لك أن تسكن يا أبا علي.



«وذلــك أنّ الناس كلهم مشتركــون في أصل القدرة على القبــح والحسن، والفجور والعفــة، إلا أن فيهم من تكون الصفــة عليه أسهل، وطبعه لها أميــل، فتلك السهولة عبارة عن "الصفــة" المسمّاة بالخُلق، فمن كان سعيدا طاهرا نقيا تقيا كانت نفسه موسومة بخلــق العفة والطهارة، ومن كان شقيا والعياذ بالله كان بالضّد. ونيسّرك لليسرى إشارة إلى هذه الحالــة. وهي دليل على تكميل نفس النبي في القوة العملية بعد أن كمّلته في القوة النظرية أيضا.»

تفسير سورة الأعلى – ابن سينا

العهد

غربت الشّعرى، ومضى أكثر الليل، وخيمتهم منصوبة في بطن تل صغير يحميها من رياح الليل الباردة، وجيادهم مربوطة إلى أوتاد الخيمة، والنار مشتعلة تخيف الحيوانات، وتؤنس الساهر للحراسة، وتدفئ النائمين، حين جاءت نوبة أبو علي في الحراسة، فأيقظه أبو عبيد ونام.

صحا ابن سينا، والليل ضاف، والسماء واسعة، تتلألأ فيها النجوم موزعة على نظام لم يكتشفه بعد، والقمر هلال صغير ابن ثلاث ليال.

رحل بعقله في كل جهة، الليل يمنحه سكينة وسكونا، النار تسكب دفئها وأمانها في نفسه، حتى إذا لم يبق على الفجر إلا ساعة، توضأ ويمم وجهه جهة جنوب الغرب يصلي.

صلى ما شاء الله له أن يصلي، يتلو القرآن إذا وقف، بهمس يسمعه من يكون إلى جواره.

قرأ ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون﴾.

وقرأ ﴿الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح﴾.

وقرأ ﴿وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾.

ولما انتهى من الصلاة رفع يديه إلى السماء يدعو:

«أعوذ بك اللهم من شر فتنة تطوق من حلت به حياته ضنكا، رجعت إليك فاقبل رجوعي، وقلب قلبا طال إعراضه عنكا

اللهم يا أول كل شيء، وغايته، جعلت السعادة إدراك الكمال والخير، وأنت غاية الكمال، ومبدع الخير. ونحن لسنا سوى سائرين إليك، نلحظ نورك على مرآة نفوسنا، خلسات لذيذة تومض، ثم تخمد.

تخمدها سرابيل أجسادنا التي لا طاقة لنا بها، ومهما حاولنا يخونا سلطاننا عليها.

اللهم إني أسألك يا واجب الوجود يا علة العلل، يا قديما لم يزل، أن تعصمني من الزلل، وتفسح لي في الأجل، وتجعل أملي فيما ترضاه لي من عمل.. يا الله.

سبحانك، جعلت الطريق إليك رياضة كله، لا راحة فيه ولا قرار.

خلقت الإنسان في كبد، حتى لا يحيد عقله عنك، فيظل يرجو منك العون والعلو، سعيا حتى يرى الحق في كل شيء، وتصير خلسة الوميض نورا صافيا، وينطبع الكون كله، من موجده إلى أصغر ما فيه، نقشا في نفسه.

وكلما زاد استبصارا.. ازداد استعدادا للسعادة وكأنه ليس يتبرأ الإنسان عن هذا العالم وعلائقه إلا حين يكون قد أكد العلائق معك فصار له شوق إليك وعشق يصده عن الالتفات إلى ما سواك.

نحاذي بمرآتنا شطر الحق، وغايتنا أن ينالها من نوره قبس، فمن تم له قرب المقدس سعد وسكن.

اللهم، وقد حجبتُ مرآتي عنك بلهو، هذا عهدي ألا أتركها بغير رياضة، وتزكية، إيمانا بك وتمسكا بسنة نبيك، وعملا بالحق وأكلا للحلال وتجنبا للمعاصي.

إلهي.. لن أدع فكري يرحل إلا في جلال الملكوت، وجناب الجبروت، أقصره عليه، لا أتعداه. سأظل بالخيال حتى يصير تخيل

الواجب والصواب هيئة نفسيه راسخة، ويكون هواي تبعا لما شرعت، فأتحرك إليك، من دون إحجام، كما يصعد البخار إلى السماء خفيفا، لا أثر لجذب الأرض عليه.

اللهم أعني لأترك الكذب، قولا وتخيلا، فتصير في نفسي هيئة صدوقة تحبها، وتسعدني. هبني حب الأخيار وحب تقويم الأشرار. واجعل نفسي الناطقة فوق نفسي الشهوانية، فبالأولى أسير إليك، وبالثانية أخلد إلى الأرض.

اللهم ليس لك شريك فأرجوه ولا وزير فأرشوه، أطعتك بمتك وإني مقر بحرمة هذه الخمرة. سأترك شربها تلهيا، لا أقربها. سأستعين بكل رغبة في نفسي على السير إليك، وما لا طاقة لي في الفكاك عنه طوعته لك.

اللهم وقد منحتني الوقوف بين يديك، لا شيء حولي سوى جليل صنعك، سماؤك المزينة، وصحراؤك الساكنة، وأنا عبدك الضعيف، خذ بيدي في طريق معرفتك، لا يصرفني عنك شيء، فما أذنت لي بمعرفته عرفته، وما لم تأذن لي به، صُرف عني، ولو طرقت له كل طريق، ومشيت له كل سبيل.

يا معشوقا لذاته، وإليه ينتهي كل كمال، وعنه يصدر كل جمال.

بك فاض العقل على الكون كله، حتى انتهى إلينا.

أرسلت إلينا رسلك..

كل من كشفت لنا بهم جمال خلقك هم رسلك.

بداخلهم سكن العالم..

يسمعون همسه إليهم في كل حين..

قلقون حين لا يدركون ما هم فيه..

تنازعهم نفوسهم إلى السمو..

غرباء أغيار عمن حولهم..

حتى إذا طاف بهم النداء:

«قم إلى الدنيا فاكشف أسرارها.. »

ولم يعلموا أي سر سيكشفون، قالوا: «من نحن حتى نكشف أسرار العالم؟.. لسنا سوى طلاب معرفة دميت أظافرهم بحثا عنها»؟

«قم إلى الدنيا.. واكشف للناس جمالها »!!

قَلِقٌ مَن سمع النداء، وأحس العجز.

ولا عون على ذلك لمن لم تعنه.

إذ ليست كل طباع الخلق قابلة لذلك، القليل هم الذين أعددتَ نفوسهم لقبول صور العالم كما خلقتها.

من صفت نفوسهم حتى يتلقوا الأمر منك وحيا، كانوا أنبياء يوحى إليهم، وقد ختمتهم بمصطفاك محمد عليه الصلاة والسلام.

ومن كانوا دونهم، خبأت لأجلهم كتاب الكون من حولنا، ليقرؤوه.

فهم يربون أنفسهم لتكشف لهم منه أسرارا تقربهم بها إليك.

فلكيّون رحلوا في السماء يسمعون نغم أجرامها.

وأطباء أناملهم تتحسس طينة الخلق الأول، يستنطقون أخبارها.

ورياضيون، يكشفون لغة العالم، ميزانه وسر أسراره.

حركة الكون نغم..

والنغم يارب رقم..

والرقم.. نقش الجمال في جبين العالم.

وأنت.. مبدع الكل.

خالقُ العقل.

محيطٌ بسر الوَجود.

هبني عقلا نقيا، يرى نورك فيسعى إليه ولا ينكره. وحسا يجس الأبدان، والنفوس، ويعرف مكمن المرض فيها، فتصلح بي أبدان الناس وعقولهم.

أقمني حيث تعلم مني نبوغا وبراعة، وأخرج من نفسي أجمل ما فيها لك، واستعمله في إعمار هذه الأرض، ورقني بذلك في درج الكمال، اللهم إنك سجنت نفسي في سجن من العناصر الأربع، ووكلت بافتراسها سباعا من الشهوات جائعة، وأوجبت عليها رضاها والانقياد معها إلى هواها وقربتها بالعالم المغضوب عليه، اللهم مجد لها بالعصمة، وتعطف عليها بالرحمة التي هي أليق بك، وبالكرم الفائض الذي هو منك أجدر وأخلق، وامنن عليها بالتوبة العائدة بها إلى عالمها السماوي، وعجل لها بالأوبة إلى مقامها القدسي، وأطلع على ظلماتها شمسا من العقل الفعال، وأمط عنها ظلمات الجهل والضلال .. الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور.

اللهم ألهمني الهدى، وثبت إيماني بالفنا، وبغض إليّ حب الدنيا.. وصل اللهم على سيد المرسلين، محمد المصطفى، وآله ينابيع الهدى، الدالين على الطريقة المثلى، وعلى صحبه الكرام، السادة الأعلام، واجمعني بهم يوم الجمع يا أرحم الراحمين».

***

«فلما علم الأمير بوصـــولي، جاءني خاصته وندماؤه بثياب ومراكـــب، وأنزلوني في دار بمحلة «كون كبيد»، فيها من الآلات والفرشـــ ما لا أحتاج لغيره. وبلغـــوني رسالة الأمير ألا أقدم عليه حتـــى أستريح من السفر. واتفق بعد ذلك أن كلـــف الأمير مهندسه فأنشأ بالـــدار قاعة خاصة للدرس، استعمل فيها علمه ليحفظ الصوت وينميه داخلها، فيسمعه واضحا آخر الواقفين كما يسمعه أولهم».

ابن سـينا

الحركة

«كل متحركٍ فلابد له من قوة تحركه، وكل حركة ففي زمان لا محالة، والقوة الأشدّ تُحرِّك أسرع وفي زمن أقصر.. وإذا لم تتناه الشدة لم تتناه السرعة، وفي ذلك تصير الحركة في غير زمان أشد؛ لأن سلب الزمان في السرعة نهاية ما للشدة.

والأشياء المقذوفة لأعلى، تتباطأ حتى تصل إلى أقصى ارتفاع لها، ثم تبدأ في السقوط، وتزيد سرعتها كلما اقتربت من الأرض، حتى تكون أكبر قوة لها حال اصطدامها بها، وهذا ما يفعله رامي النبال، حين يرمي سهمه إلى السماء، فتكون إصابته لهدفه أقوى منها حين يرمى موازيا إلى الأرض».

كانوا واقفين في أرض طينية جافة، وأمامهم صناديق من الخشب على أشكال مختلفة، مكعبات ومخاريط، ومنزلقات، ومعهم قوس صغير مثبت على نصف قوس عليه تدريج زوايا مختلفة، وسهام ملونة، وعربات صغيرة.

أمسك ابن سينا سهما عليه علامات مدرجة، وشد وتر القوس إلى آخره، ثم أماله إلى أعلى قليلا، وعند زاوية محددة أملى درجتها لطالب قريب دوّنها، ترك الوتر فانطلق السهم يقطع الجو مسافة قبل أن يسقط على الأرض في مجال البصر.

ألقوا السهام متابعة بزوايا مختلفة، تزيد كل مرة على سابقتها، ولما توقف الرمي، انطلق اثنان يقيسان المسافات التي قطعتها السهام، ويسجلان الحد الذي انغرست به في الأرض، من التدريج المثبت على السهام.

قال ابن سينا: «سجل كل واحد منكم لون السهم وزاوية إطلاقه، والآن معكم المسافة التي قطعها كل سهم، والقوة التي اخترق بها

الأرض، في الغد إن شاء الله أسمع تحليلكم لما بين أيديكم من قيم، وما وصلتم إليه من استنتاج».

الآن أريد أن أتحدث إليكم في جهة أخرى من هذا القانون، فعليه اعتمد أقوام في عملهم لإثبات وجود الله. ولم تكن هذه حجة صالحة.

سنرى أن أرسطو حين انطلق لإثبات وجود الله، من حركة الكون، وحاجته إلى محرك أول، انتهى إلى محرك أول معزول عن العالم.

إله أرسطو لا تربطه بالعالم إلا المحبة. أما إله المسلمين فهو فاعل، وهو مبدأ كل جوهر، وهو محركه. وهو الذي أعطى كل شيء خلقه، ثم هدى.

وعلى هذه الطريق سار المعتزلة فانطلقوا لإثبات وجود الله من إثبات أن الكون محدث، ولابد للمحدَث من محدِث. وهذه حجج مع فسادها واعتلال مقدماتها غير مرتضاة لمعرفة الحقيقة كما سنرى.

لقد كان أعظم ما تركه القدماء لنا هو المنطق والبرهان.

وهذا البرهان هو عمل العقل الصحيح، كما أن قوة الحركة هي عمل اليد الصحيحة، فلو فقدت اليد حركتها، مع احتفاظها بقدرتها على الحس والإدراك، كان عجزها أكبر مما لو بقيت لها الحركة، وفقدت الحس. ولا حركة بغير رياضة دائمة.

نحن أمام طريقين إذن؛ أن نلحظ عالم الخلق ونتلمس دلائل الصنعة فيه، وهذه طريق العوام في المعرفة والاستدلال، يبدؤون بالنتيجة ليصلوا إلى السبب، أو أن ننظر إلى عالم الوجود المحض فننزل منه إلى الآفاق وإلى أطراف العالم.

ولو أننا قسمنا الوجود المحض إلى واجب الوجود وغير واجب ثم قسمنا الواجب إلى واجب بذاته، وواجب بغيره، ثم قسمنا غير الواجب إلى ممتنع «غير واجب بذاته»، وغير واجب لعلة تمنعه. ألا نكون قد صنعنا

عالما موازيا للوجود بالعقل؟

فكأننا نحاكي خلق العالم، بالعقل في خيالنا.

إننا حين نفعل ذلك، لا نثبت وجود الله فحسب، بل نسير في طريق الخلق نفسه، فنرى قوانينه من حيث نحن نتوقعها. وهذا التوقع ليس إلا إيقاظا لطاقة العقل فينا، الذي هو جزء من روح الله التي نفخها في خلقه.

هكذا نحن نعرف الله، بأشرف الطرق إليه، لأننا نعرفه بروحه التي فينا. والله لا يُعرف إلا من ذاته، لا برهان عليه لأنه هو برهان كل شيء. وهو القائل «أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد».

أنهى ابن سينا كلامه وهو يقول لهم: «هل لدى أحد أسئلة»؟

لم يسمع إلا صوت جلبتهم وهم يجمعون أوراقهم وأدواتهم استعدادا للانصراف، فعاد يقول:

«أول ما ينبغي أن يتعلمه طالب العلم هو أن يعرف كيف يسأل. السؤال يعني أن شيئا ما شغلك، أنك تفتش فيما حولك، المعرفة لا تأتي إلا لمن يفتش عنها. هيا انصرفوا»!!

انصرف الطلبة، وبقي معه أبو عبيد، وبمهمنيار، وثلاثة آخرون. جمعوا الأدوات في صندوقين كبيرين، ربطوهما على عربة انطلقت عائدة إلى البيت. أما هم فساروا معا يتوسطهم ابن سينا يتنقلون من حديث إلى حديث. يسألونه أو يسألهم.

قال أبو عبيد: وهل يحتاج كل مسلم لهذا المنطق حتى يؤمن بالله، إذن لا يؤمن إلا القليل.

«لا يا جوزجاني، الإنسان لا يحتاج إلى المنطق ليؤمن به، لكنه يحتاج إليه ليصقل عقله ويضبط تفكيره، ثم يحسن الاستدلال حين يؤمن، فيعرف بذلك العدل من الظلم. وإلا فكيف يعدل من لا يحسن الفهم.

للكون نظام محكم... لا يمكننا أن نتخيله غير ذلك، كل شيء فيه بقدر، ونحن لا نعرف الكثير عن هذا النظام. لا نعرف لماذا يسقط المطر في مناطق ولا يسقط في غيرها، لا نعرف على التحقيق لماذا تظهر كواكب في أوقات وتختفي في أوقات أخرى، لا نعرف لماذا تسقط الأشياء على الأرض بينما تحلق الطيور في السماء. لا نستطيع أن نحيط بأي شيء من هذا كله.

وللعقل نظام أيضا، وكلا النظامين متطابقان بالضرورة، لأنهما خرجا من مبدأ واحد هو الله، فإذا لم يتطابقا فلأننا عاجزون عن إيجاد التوفيق بينهما.

ومن هذا التطابق، يمكننا محاكاة العالم من حولنا، فنعرف بالمحاكاة ما غاب عنا بالمشاهدة والمعاينة.

المنطق هو الآلة التي سنقيس عليها محاكاتنا، إن كانت توافق أسس العقل أم هي إبحار في الهوى على غير هدى.

قال سليمان: لكنه ومع افتراض صحة ذلك، فليست قواعد المنطق كافية لتفسير أصول العالم. إننا بقواعد المنطق لا نستطيع أن نحل «أيّ عملية حسابية أعطتنا رقما كواحد وثمانين مثلا». يمكن أن يكون نتيجة لإضافة أربعين إلى واحد وأربعين، وهي صحيحة، ويمكن أن يكون مجموع ما يأخذه تسعة رجال إذا أعطينا كل رجل تسعة دنانير. إنها نتيجة واحدة، يمكنها أن تخرج من مبادئ مختلفة.

- هذا صحيح.. سيظل باب الخطأ مفتوحا دائما، لأن أدوات قياسنا محدودة، ولأننا لا نعرف كل أجزاء المعادلة. ما يغيب عنا أكثر مما نعرفه. والله يكشف من المعرفة للناس كل حين بقدر، حتى يظل في هذا الكون ما يغري بالبحث، ويظل يحمل في تفاصيله الدهشة التي هي من أبواب الإيمان بالله.

***

قال أبو عبيد:

«ثم رسم علاء الدولة في ليالي الجمعات مجلس النظر بين يديه، بحضور سائر العلماء على اختلاف طبقاتهم والشيخ من جملتهم فما كان أحد منهم على قدره في شيء من العلوم، واختص به علاء الدولة وجعله من خاصته.

وجرى ليلة في مجلس علاء الدولة ذكر خلل حاصل في التقاويم المعمولة بحسب الأرصاد القديمة، فأمر الأمير الشيخ بالاشتغال برصد الكواكب وأطلق له من الأموال ما يحتاج إليه، وبدأ الشيخ بالعمل، وساعدته في ذلك، فاتخذت له الآلات استخداما وصناعة حتى ظهر له الكثير من المسائل، وكان يقع الخلل في أمر الرصد لكثرة الأسفار وعوائقها، وصنف الشيخ بأصفهان الكتاب العلائي وأهداه للأمير علاء.

وكان الشيخ جالسا يوما بين يدي الأمير وأبو منصور الجبان حاضر فجرى بينهما في اللغة مسألة تكلم الشيخ فيها بما حضره، فالتفت أبو منصور إلى الشيخ وقال له: أنت فيلسوف وحكيم، ولكنك لم تقرأ في اللغة ما يرضي كلامك فيها.

فاستنكف الشيخ هذا الكلام وداوم على قراءة كتب اللغة ثلاث سنين، وطلب كتاب تهذيب اللغة من خراسان من تصنيف أبي من صور الأزهري. حتى بلغ الشيخ مرتبة عالية وكتب ثلاث رسائل أحدها على طريقة ابن العميد، والثانية على طريقة الصابي، والثالثة على طريقة الصاحب بن عباد، وأمر بتجليدها تجليدا خلقا، تبدو الرسائل منه قديمة كأنها وجدت صدفة، والتمس من الأمير أن يعرضها على أبي منصور الجبان، فعرضهم عليه، فأشكل الأمر على أبي منصور، فقال له الشيخ

أمـا مـا تجهله من أمر كذا فهو في كتاب كذا، وما تجهله من أمر كذا فهو في كتاب كذا، حتى فطن أبو منصور إلى ما حدث فاعتذر من الشيخ.

ثم صنف الشيخ كتابا في اللغة سماه لسان العرب، لم يصنف مثله، اطلعت على مسودته التي لم يكتب لها أن ينقلها الشيخ إلى البياض، فظلت كذلك حتى توفي، ولم يهتد إليها أحد.

واشتغل في أصفهان بتميم كتاب الشفاء وفرغ من المنطق، والمجسطي، وكان قد صنف مختصرا في أوقليدس والموسيقى، وأورد في كل كتاب من الرياضات زيادات رأى الحاجة داعية إليها. ولم يبق له في الشفاء إلا النبات والحيوان، فتممهما في السنة التي توجه فيها علاء الدولة إلى سابور خواست».

* * *

«إن النفس الناطقة، كمالها الخاص بها أن تصير عالَما عقليا مرتسمًا فيه صورة الكل، والنظام المعقول في الكل، والخير الفائض في الكل، مبتدئا من مبدأ الكل إلى الجواهر الشريفة، فالروحانية المطلقة، ثم الروحانية المعلقة نوعا ما من التعلق بالأبدان، ثم الأجسام العلوية بهيئاتها وقواها، ثم تستمر كذلك حتى تستوفي في نفسها حركة الوجود كله، فتنقلب عالما معقولا موازيا للعالم الموجود، مشاهدا لما هو الحسن المطلق، والخير المطلق زمتحدا به، ومنتقشا بمثاله وهيئته ومنخرطا في سلكه، وصائرا في جوهره.»

النجاة – ابن سينا

معارج

«تفتّح جسدي بين يدي أبي علي، هنا في حجرة كتبه العبقة ببخور الهند وعطور أصفهان، وعلى بساط الحرير الذي يأتيه وحيه عليه. يحملني على غمامة خفيفة تحلق في السماء، يجلو عني صدأ السنين الطويلة.

يسري نوره فيّ، فأرى نفسي.

همسُه بابٌ إلى السماء.

يهمسُ فنعرج.

ثم يهمسُ، فنعرج.

ولا منتهى..

«الآن نحن يا ورد، الآن نحن».

النفس هي ما يمكننا قول «أنا» عنها.

ولا «أنا» تامةً نعرفها ونحن مثقلون بهذا الجسد.

«هذا الجسد ليس هو الإنسان كله، ولذة الإنسان في اتزان كل جزء فيه، من أطراف أصابعه إلى أعماق روحه».

هو قيد المحبين، لولاه لامتزجت أرواحهم، ولحلّقت في السماء على الحقيقة لا على الخيال، ولذابوا حتى يعود الضلع إلى أصله. فمنذ فارقه وهو يحن إليه، حتى جعل الله لحنينه فرَجًا، وفتح له بهذا الجسد بابا يرقى فيه، كما فتح له بالسجود في الأرض بابًا يرقى به إلى السماء وطنه الأول.. كلما سجد ارتقى».

كلامُ وردٍ جميلٌ، أتابعه ولا أفهم أكثره.

أحسُّ سعادتها وهي تسير فيه. تكون منيرة كالبدر، صافية كالنسيم. لا أقاطعها أو أسألها عن أي شيء. أتركها تبحر وحدها كما تشاء.

تُبحر فرحة، خفيفة كأنها طيف، وكلما أدركتُ علوّها أشفقت عليها فما كانت الدنيا يوما أمينة على أفراح البشر، لتكون أمينة على فرحها.

تُكمل مسترسلة وأنا أسمع: «أجسادنا كثيابنا التي ألفناها، حتى ظننا أنها هي نحن. أمر الله المسلمين أن يزينوا أجسادهم لنسائهم ويزينوها إذا سجدوا. النفس تتجدد في هذين الموضعين، والزينة احتفال بالنفس الجديدة، حتى تأنس صاحبها.»

«أعْلَمَنَا مرة بمجيئه إلى جناح الجواري، فاستعدت الفتيات، زينتهن ستارة جميعا، وأعدت له آلات الغناء، وكؤوس الشراب. لم يكن يأتي كثيرا.

لم أضع أي شيء من الزينة، صففت شعري، وارتديت ثوبا من حرير الصين بأكمام واسعة. راقبت الفتيات وهن يراجعن الأصوات الجديدة التي تعلمنها.

حين وصل أبو علي، كان متعبا، مشغول الخاطر. لم يكن يصعد في الحقيقة إلا حين تنغلق أمامه المسائل ولا يجد لها انفتاحا. يريح عقله السابح في القياس والمفاضلة، والتحليل والتحقيق.

استَمَعَ إليهن من دون أن يبدو عليه أي شيء. فخافت ستارة ألا يكون اللحن الجديد قد أعجبه. سألته أي شيء يحب أن تغني الفتيات.

قال: مريهن فليغسلن وجوههن، ويأتين بلا زينة.

سألتُه بعد ذلك مرة ونحن معا: لم فعلت ذلك؟

قال: نظرت في وجهك فوجدت فيه صفاء الخلق الأول، كان نقيا لا يحجب الروح التي نفخها الله فيه، ونظرت في وجوههن فرأيت حجبا كثيرة، ولم أكن أطيق الحجب يومها. كنت مثقلا بما يكفي، جئتكن حينها لأكسر حجابا أحاط بقلبي، حين عُدن ووجوههن مغسولة، وقد أسدلن شعورهن، أحسست أني اقتربت من السماء.

وجهك يا ورد هو ما منحني هذه الفكرة، وفتح لي هذا الباب. أن أدرك جمال العالم كما خلقه الله، هو أول الطريق إليه.

يومها كنت أتابع نظراته نحوهن.

يومهـا أدركـت كم أنا معلقة به، كـم أتمنى لو أكون أنا بوابته الوحيدة التي يعرج منها.

مستني عينه، فتركت له عيني، لم أستطع أن أصرفها، ولا صرفها هو.. حولنا نغم الفتيات لكنني لا أراهن، لم أر سـواه، ولم أشعر إلا ويده تقيمني من مجلسي، سرت كأنني أسير على سحاب خفيف حتى تركنا القاعة إلى غرفة أخرى، بقي اللحن لم ينقطع.. لم يكن لحن الفتيات هو الذي يصلنا، بل كان لحنا يبعث من نفسينا.»

***

سكن الكونُ وغاضَ كل شيء فيه.

لا أرض ولا سماء ولا أصوات ولا ألون.

لا شيء.. كأنما لم تخلق فيه من قبل حياة.

لم يبق حولهما سوى الزمان، يشهد بداية الخلق من جديد..

رأى الحياة وهي تكسو الجسد الذي سوّاه الله بيديه.

تسرب فيه فيهتز كما تهتز الأرض ويربو..

ثم رآه يسمو بالكلمات وهي تلقى عليه.

رأى الإنسان يوم خلقه الأول..

يوم لم يكن يدرك من الحياة إلا جمالَ الجنة ورضا القربِ وسكينةَ الشكر..

ورأى العالم وهو يسجد بين يديه..

رأى بعينيه حاضرا ما سمع عنه في حكايات الأولين.

فسجد مع الساجدين..

.

.

بقي الكون ساهرا حتى ناما.

وتثاقلت السماء وهي تجمع نجومها، تاركة صباحًا نقيًا يفرش ضوءه على العالم وعلى جسديهما.

***

«صحوتُ قبله، كانت رأسي على صدره..
قبّلت جبينه فصحا..
قال: «أسعد الله صباح الورد».
قلت: «وساقي الورد».

***

«.... أحببت ورد، ولم أعد أتركها إلا قليلا. وحين كان يسافر ابن سينا مع الأمير علاء في سفراته، كانت جلسة ورد الدائمة في خزانة الكتب، على وسادته التي يكتب عليها، ترتب له أوراقه وكتبه وأساعدها في ذلك، أو تنسخ ما يكون قد تركه للنسخ، فأجلس أراقبها وهي ترسم الحروف العربية منمقة صغيرة.

كانت قد تعلمت القراءة والكتابة بالعربية.

أبو علي هو الذي علمها الكتابة. أبو علي هو الذي علم ورد الحياة كلها لا الكتابة فقط. كانت هي مستعدة لأن تتعلم فتعلمت. سواها هنا كثيرون لا يتعلمون شيئا.

طلبتُ منها أن تعلمني الكتابة، فلم تمانع.

أصبحنا نقضي جزءا من وقتنا في رسم الحروف العربية. مرهق تعلم الكتابة، وخصوصا حين تكون ورد المعلمة. تقول لي: «قواعد الخط في اللغة العربية كقواعد اللحن في الموسيقى، لا يجوز كسرها، وإلا كان الصوت نشازا. هكذا كل شيء في كلام العرب بميزان، حتى وهم يرسمون حروفهم».

سينا باللسان الفارسي هو ثاقب الحجر، أو هو دقيق النظر. لا تعرف ورد إن كان هذا هو لقب أبيه أم جد بعيد له. هو ابن سينا أيا يكن من تلقب باللقب أولا. وهو الدقيق النظر، الذي يرى ما لا يراه الناس.

قلت لها مرة ونحن في درس الكتابة:

- لكنك أمة يا ورد. نحن جواري نباع ونشرى، وحين يموت سيدنا

نوزع مع ميراثه. مع هذه الكتب! أمةٌ تحب سيدها كل هذا الحب، وتعلق حياتها بحياته! لم لا تكونين زوجته إذن؟ لم لم يتزوج أبو علي حتى الآن؟

تنبهت إلى كلامي بعد أن قلته، وخشيت أن أكون قد أغضبتها.

- أمَة كريمةٌ، خير من زوجة مهانة.

- الأمة لا تكون كريمة يا ورد، لا تكون!

سكتت ولم تجب.

لا أعرف لم سألتها هذا السؤال. هل أضن عليها بما هي فيه من رضا، فأريد أن أبدده بشكي وقلقي. أنا قلقة دائما، لست حرة، ليس لي اختيار أي شيء في حياتي، ليس لي أن أحب وأنا آمنة أني سأصل إلى شيء، ليس لي أن أمنح جسدي عن رضا لأحد، هل من العدل أن أكون جزءا من أملاك رجل، كلما شعر بالضيق اختار واحدة تسري عنه ضيقه.

أحسست بالغضب يملؤني فجأة، حاولت أن أضبط نفسي لئلا يخرج كلامي ثائرا:

«نحن لسنا أحرارا يا ورد، الحرية هي القدرة على الاختيار، ربما اخترت أنت أبو علي، حتى وأنت أمَة. اخترته فعلا. لكنني لم أختر أن أكون هنا».

- الحرية حرية الروح، وحرية النفس.

- حرية الروح لا تكون إلا في الجسد الحر يا ورد، أولى بهذا الدين الذي تقولين إنه يحرر الأرواح أن يحرر قبل ذلك أوعيتها.. هذه الأجساد.

- ومن قال لك إنه يقيدها، إنها حرة أيضا.

لم أسألها كيف لم يقيدها.

كان غضبي قد بلغ منتهاه، ولا أريد أن أسمع شرحا معقدا لشيء. الحرية هي ما أشعر به أنا، وإذا لم أشعر بها فلست حرة. هناك شيء ما يقيدني، إذا لم يكن هو هذا البيت، وإذا لم يكن هو كوني أمة، وإذا لم يكن هو هذا الدين الذي يحيطني من كل جهة ولا أشعر نحوه بأيّ عاطفة، فأي شيء يكون؟

أي شيء يسلبني حريتي؟
تقول ورد إن الحرية حرية الروح.
روحي أنا مقيدة.
«روحي سجينة يا ورد».
كنت أصرخ، وبدا كل شيء لي غريبا. لا أعرف لم ثرت بهذه السرعة. كنت كحجر سقط من أعلى جبل، كلما انحدر زادت سرعته، وكلما اصطدم بشيء تفتت منه جزء حتى يتلاشى.
الغضب في حضرة ورد يطهرني، كانت تملك حنانا يسع كل الغاضبين في العالم، وكنت أشعر أني في أمان مهما قلت وأنا معها. كأني طفلة تفتش في غرفة مظلمة لا تعلم أي شيء يمكن أن يخرج لها، ولابد لها مع ذلك أن تبحث، كانت هذه الغرفة هي نفسي، وكان قرب ورد هو الأمان مما سأجد فيها.
أصرخ ثم تضع كفها على كتفي، وتقربني إلى صدرها كأني فتاتها الصغيرة، فأهدأ.
قلت لها: لولا الأديان يا ورد، لعاش الناس سعداء.
قالت: لولا الأديان لفسدت الأرض.
قلت وهل أصلحت الأديان الأرض. الأديان التي لولاها لما تقاتل الناس، لما طمع بعضهم في بعض، ولما وجدوا أسبابا يملكون بها بلادًا ليست لهم.
- الناس تتقاتل من قبل أن تكون الأديان. الدين جاء ليهذب أطماعهم.
- بل ليزيدها، ويمنحها السلطة ودعوى الشرف. وإلا لِمَ خرج العرب من بلادهم وطرقوا بلادنا زاعمين أنهم يحملون إلينا نبراس السماء، ألَمْ تجد السماء سوى بدو مهلهلين ليحملوا نبراسها؟!.
- النور هو النور، حمله بدو مهلهلون أم سادة مبجلون.

- وهـل كان النـاس بغير دين حتـى يبلغوهم دينا جديـدا.. إننا أهل دين أقـدم من دينهـم، وأنتم كنتم أهل ديـن أقدم من ديننـا ومن دينهم، فلأي شيء يرهقون أنفسهم، ويتركون صحراءهم ليطرقوا أبوابنا.

- لأجـل أن يخبروا الناس بما عاينوه من حـلاوة دينهم، لم يطلبوا إلا أن يفسح لهم في البلاد فيعلموا الناس ما جاؤوا به، ليخرجوهم من عبادة العبـاد إلى عبـادة رب العباد، وحين لم يُسمح لهم قاتلوا مـن أجل ذلك. هكذا الأديان تثور على كل باطل وزيف، وتعتبر العالم كلها ميدانها.

- ومن ذا الذي كان سيـسمح لديـن جديد أن يتسرب في ملكه حتى ينتزعـه منه، ألم تكن المجوسـية ديانة الدولة الفارسـية، هل كان ملوككم يسمحون لهم بما أرادوا، ثم يراقبونهم وهو يغيرون الناس عليهم. أليس القتال من أجـل دين نعتقده هو الصواب، هل نفتح الباب لكل صاحب دعوة يرى صحتها، ويريد أن ينشرها.

- ليـس لأحـد أن يفـرض على النـاس شيئا، المسلمون حاربوا من أجل أن يحرروا النـاس من هذا الفرض. لقد كانت المجوسـية قد تزوجت قصـور الأكاسرة، وغدا الأمر بلا حد بين مـا يريده الله وما يريده كسرى وكهنته. جاء المسلمون ليعيدوا للناس حرية اختيارهم.

- أليـس كذلـك؟!! ألم يختر النـاس أن يتبعوا ماني حين جـاء مبدلاً شريعة زرادشت، ألم يختار آخرون أن يتبعوا مزدك حين جاء بدين يخالف مـا عليه الكهنة. النـاس تتبع كل دعوة تلبي هواها. منحهم الدين الجديد انعتاقـا من تاريخ طويل وجدوا أنفسهم داخله. الجديد غض دائما، حي فياض.

- النـاس لا تبحـث عن دين جديد إلا حين يتحـول دينها إلى قيـد لا حريـة فيه، وحين يقسر النـاس عليه بالقـوة، يغيب جماله، وحريته، الدين كما يقول أبو علي هو تنقيـة النفوس من الكـدورات، وتصفية الهواجس البشريـة من الأغراض الدنيوية. وحين يخرج الدين من القصر، لا يصبح

تنقية للنفوس، ولا تصفية للهواجس البشرية، لأجل ذلك تبع الناس ماني، ومزدك لأنهم جاءا بدين حر قريب من الناس.

- ولم تبع الناس الإسلام؟

- تبعوه لأنهم وجدوه دين مساواة وعدل!

- وهل وجدوا فيه هذه المساواة التي نشدوها، ألم يثوروا بعد ذلك على خليفة المسلمين حين لم يعدل في العطايا، فأعطى أهل المدينة الذين لا يفارقونها ولا يتعرضون للمخاطر أضعاف ما منح الجنود النائمين في العراء، يقتلهم الحر والبرد قبل أن تقتلهم سهام الأعداء، وكانت دعواه أن العطايا بالسبق إلى الإسلام.

- لو لم يفعلوا ذلك لما كانوا أهلًا لهذا الدين الذي دانوا به، إن ثورتهم تعني أنهم فهموا دينهم الذي لا يرضى بغير العدل، ويمنح أصغر فرد فيه أن يثور على أكبر فرد فيه حين يمنعه حقه. هل كان دين آخر يسمح بذلك.

انتهى حديثنا عند هذا الحد، سكتُّ، فسكت ولم تزد.

لم أفكر في شيء بقية ذلك اليوم، ولم يكن لدي عمل فخرجت إلى الحمّام، تركت الماء الدافئ يذيب كل ما في نفسي، أترك ذراعاي خفيفتين على سطحه، أغلق عيني وصوت انسكابه الناعم من الصنابير الصغيرة يرتّبني، كما فعل أول مرة.

أدرك الآن أن هذه الأحاديث كانت تغيرني من دون أن أشعر بذلك. ربما لأنني كنت أحب ورد فأصدقها فيما تقول وإن عاندته، وربما لأنها كانت تعرف كيف تلقي ببذور الأشياء في نفسي، وكيف ترويها من دون أن يصرفها عنادي».

***

«إن مبدأ البرهان لا يُكتسب بالبرهان، وكذلك مبدأ العلم لا يُنـــال بقـــوة العلم، بل بقوة أخرى أكـــثر صلاحية له هي العقل، والمقصود به هو العقل النظري المجبول فينا أي هو الاستعداد الفطري الصحيح.»

كتاب البرهان – ابن سينا

صورةُ العالم

كان القدحُ واسعًا من الأعلى، وله ساقٌ رفيعةٌ وقاعدةٌ واسعةٌ تحمله. وعلى حافته الواسعةُ رسومٌ لغزلانٍ متابعة.

جعلَتْ وردُ الساق بين راحتيها، وأدارتْ الكأس، فظهرت الغزالة المرسومة عليه كأنها تثِبُ، استمرت تديره والغزال يتابع في القفز، واحدة وراء الأخرى.

على القدح كانت الغزالة مرسومة بأوضاع الوثب كلها، متأهبة، ثم رافعة ساقيها الأماميتين، ثم وهي عالية في الهواء ثم على الأرض، فظهر حين دار بسرعة كأن الغزال يقفز.

ضحكتْ شيرين عاليا وهي ترى هذه اللعبة المدهشة، كانت في الخزانة أقداحٌ أخرى مختلفة الأحجام عليها صور كثيرة. لِرحلة صيد؛ يمْرُق السهم في الفضاء حتى يسقط الوعل صريعا، ولِطيورِ محلقة في الغابة.. لكن أكثرها إدهاشا كانت اسطوانة واسعة، حين تدَور تظهر عليها فتاة بارعة الحسن ترقص، تماوج يديها، ويهتز خصرها، ويثني جذعها برقة، وحرية، وأثناء دوران الاسطوانة، تصدح أنغام كأنها العزف الذي ترقص على إيقاعه الجارية.

قالت ورد:

«هذه الألعاب تُباع في السوق، المصوِّر الذي يحضر إلى ابن سينا، ليرسم له صور كتبه هو من صنعها، يمكننا أن نطلب منه أن يصنع لنا الحكاية التي نريدها».

- صحيح؟

- نعم. إنه بارعٌ في الرسم. انظري.

فتحتْ ورد كتابًا أمامها. كانت صفحاته مشغولةً برسوم ملونة. حيوانات وأشجار، وملك على تخت، وعبد قائم بين يدي سيده، وحَمَامٌ يطير، وأسد نائم.

قالت:

«هذه نسخة من «الفصول الخمسة» التي ترجمها ابن المقفع. رسمها برويز المصور. وهو الذي رسم ذلك الفارس على قبة قصر الأمير»

- الفارس الذي ترفرف رايته ويتبدل لون ثيابه حين تهب الرياح، ويتغير موضع الشمس في السماء؟

- نعم.

- وهذا الذي معك يا ورد، ما هو؟

- هذه صورة العالم.

- صورة العالم!!

- نعم.

- الله الذي رسمها!

- بل رسمها الجغرافي!

- الجغرافي!! وكيف رأى «الجغرافي» هذا، العالم حتى يرسمه.. العالم واسع جدا لا تحيط به عين المصور.

- أنظري معي، ما شكل هذه الغرفة؟

- مربعة.

- لو رسمنا مربعا، وجعلنا علامة الباب في هذه الجهة، ماذا نرسم بعد الباب.

- باحة الدار.

- وما شكلها؟

- دائرة كبيرة!

- ها هي الدائرة.

- وفيها بركة ماء في الوسط.

- وها هي البركة.

- ودرج يصعد إلى جناح الخدم.

- والدرج.
- وآخر إلى حجرات سيدي.
- وهذا هنا.
- الآن أين دار عبد الله الطراز.
- نطل عليها من نوافذ جناحنا. تكون هنا!
- آفَرين.
- الآن، هل يمكننا رسم دار عبد الله الطراز.
- لا..
- لِمَ؟
- لأننا لم نرها.
- ولو سألنا أم إبراهيم..
- تدلنا ، لأنها دخلتها قبل ذلك.
- هكذا ترسم صور العالم. كل من رأى جزءا فيه يدل الآخرين عليه. وهؤلاء الذي يرسمون العالم، هم الجغرافيون.
- أين بلادي يا ورد.
- هنا، هذه الدائرة هي بحر الخزر، وهنا ينتهي النهر الذي حدثتني عنه، وعلى ضفته تكون مدينتك، تقريبا هنا..
وأشارت بإصبعها إلى نقطة أعلى رسم البحر.
كان البحر دائرة ملونة بالأزرق، ويخرج منه ثلاثة خطوط متعرجة وملونة أيضا، واحد إلى جهة اليمين، واثنان إلى جهة الشِّمال، ومكتوب على كل رسم اسمه الذي يدل عليه.
أكملت ورد وهي تحرك إصبعها: وهذه أذربيجان، ثم بلاد الجيل، ثم طبرستان. وتكون هذه هي أرض الديلم حكام أصفهان، وهم قبائل جبلية، معروفة بالصلابة، وكانوا أكثر القبائل التي قاومت غزوات العرب، ولم تترك فرصة للتمرد إلا واستغلها. ثاروا منذ غزاهم العرب

أول مرة في عهد الخليفة عمر، إلى عهد الخليفة المأمون سبع عشرة مرة. ظلت هذه البلاد على هذه الهيئة، حتى دخلت الإسلام على يد رجل من الداعين للعلويين، اسمه الأطروش، نزلها هاربا من بطش الأمويين، ومكث فيها يُعلِّم الناس الإسلام. فكان إسلامهم على مذهب الزيدية.

- نعم. وماذا أفعل أنا بمعرفة موطن الدَّيلم، بقي أن تخبرني عن عاداتهم في الزواج، وإحراق الموتى... أين نحن الآن من هذا العالم؟

- هنا. هذه أصفهان.

«..... كانت المسافة بين النقطة التي هي بلادي، وأصفهان أصغر من كف يدي. هذه هي المسافة التي قطعناها في ثلاثة شهور!!

أنظر إلى كفي وأنا أقيس الأرض المرسومة، أتكون هذه الخطوط فيها هي طريق سفري الذي قطعته. لو أن الطرق تطوى كما تطوى هذه الخطوط في يدي حين أقبضها، لجمعت أول العالم إلى آخره.

لو أنني أستطيع أن أرى بلادي على الحقيقة كما أراها الآن.

القمر يراها، والطيور العالية في السماء أيضا.

لم لا أكون طائرا يشرف على العالم الواسع من السماء. يرى حدوده، ولا تَبعد عنه المسافات. لا تقف في طريقه الغابات الكثيفة ولا الجبال العالية، ولا الصحراء الجافة، ولا أراضي الملح التي تغرق من يعبرها. ولا يبقى عمره محبوسا في حفرة واحدة، إن تركها ليعرف قتله الحنين، وإن بقي فيها مات ولم يعرف من العالم أي شيء.

لم خلق الله العالم كبيرا، وواسعا، هكذا.

أعُدُّ المدن على الطريق المرسوم بين بلادي، وأصفهان. أود لو أرسم أيام الرحلة على هذه الرقعة. لا أذكر من أيام الرحلة أي شيء، كانت كلها يوما واحدا طويلا، مغلقا.

يومٌ أوله صك البيع الذي وقعته أمي خلسة مع التاجر، وآخرها، ماء حمام الباحة الدافئ.

قلت: كم أنت جميلة يا ورد، أنت ملَكٌ لا ريب، الملائكة هي التي تحمل لنا الأشياء الجميلة. هل آخذها، أريد أن تكون بلادي معي.

- لا.. إنها لسيدي.

- لن يتنبه لغيابها بين هذه الأوراق الكثيرة.

- يمكننا أن ننسخها معا.

- حقا..

- نعم.

في الصباح، اشترينا من سوق الوراقين أوراقا، ووضعت ورد خُطّة نسخ الصورة. «سنقسمها إلى أجزاء صغيرة ثم نرسمها جزءا جزءا، حتى لا تختلط الأجزاء».

قضينا في نسخ حدود الأشكال أياما، علمتني خلالها ورد أسماء الأقاليم، والمدن. رأيت بغداد مدينة الخليفة، والشام ومصر والحجاز. كنا كلما رسمنا جزءا حكت لي ما تعرفه من حكاياته. الحكايات أرواح الأماكن، لولاها لتشابهت الأرض كلها، ولما كان لجزء منها على جزء فضلٌ، ولا حنينٌ.

لو لم يخرج النبي من أرض الحجاز، ما كان الجغرافي ليذكرها وهو يرسم تفاصيل العالم، ويجعلها كبيرة في أعلى اللوحة، ثم يحدد أماكن العالم قياسا إليها.

ولو لم تكن المدينة المدورة، بغداد، عاصمة الخلافة ومحط عيون العالم، لما كتبها كبيرة هكذا.

لم يكتب الجغرافي اسم مدينتي، رسم النهر، ولم يذكر المدينة. لعلّه لا يعرفها، ربما لا يعرفها أحد غير أولئك المنسيّين فيها، والتجار العابرين عليها.

حدود هذه الأرض البعيدة هل يصل إليها أحد؟

ماذا تفعل في هذا الوجود أرضا لا نعرفها، ولن تطأها أقدامنا؟

سألتُ ورد:

- لِمَ خلق الله العالم كبيرا واسعا هكذا.

قالت: لأن الله عظيم، فلا يخلق إلا شيئا عظيما.

- والناس، لم هم كثيرون، ومختلفون؟

- ليتسنى لهم تحصيل كل أنواع السعادة، الخبرات الإنسانية وملكات النفس كثيرة وليست من طاقة أي إنسان واحد أن يقوم بها جميعا. لذا وجب أن يقوم بها جماعة كثيرة من البشر، فيكمل كل شخص سعادته بمعاونة بقية الأشخاص من حوله، ويكتمل الخير في الأرض بتعاون كل من فيها من البشر.

- لا أفهم!

- العالم واسع لتكون فرص سعادتك فيه أكبر.

- حقا!! وأي سعادة في الرحيل؟!

- لو بقيتي لكنت الآن في النهر، لا سعادة ولا حياة.. أما ما دمت قد بقيت إلى اليوم، فهل ترين الله يعبث بالناس من دون منفعة لهم؟

- ولم لا يفعل؟!

- لأنه لا يحتاج لذلك.

- ربما.. »

***

سكتتْ ورد لحظة، ثم قالت: لم تكن لي صديقة أحكي معها قبل أن تأتي، أليس ذلك كافيا لك؟

كانت تعرف كيف تطفئ غضبها إذا لاح.

دمعت عين شيرين وهي تقول: بل أنت هدية السماء لي. أنت نور حياتي يا ورد، لا أعرف كيف كانت أيامي تمر هنا، لو لم أعرفك.

- أرأيتِ.. لا يفترق اثنان، إلا ليلتقي كل منهما بمن يعينه، ويجمُلُ به حياته فيما بعد، ولو بقي كل واحد مكانه ما التقيا.

- سأصدقك..

قالتها وابتسمت.

أكملت ورد: فإذا أدرك الناس ذلك، وجب على بعضهم أن يُحبّ بعضَهم؛ لأن كل واحد يرى كماله عند الآخر، حتى تتم للمرء سعادته.

انتهى حديثهما ،وطوت شيرين خريطتها ،وحملتها إلى حجرتها.

وضعتها في صندوق صغير من الخشب ،تنظر فيها كلما غلبها الحنين إلى أمها .تقبّل الخريطة كأنها تقبّلها ،ثم تعيدها إلى الصندوق مع سلامها..

نظرت في باطن كفها حين أوت للنوم ،تدقق النظر في الخطوط المرسومة فيها ،تجرب أن تطوي يدها لتقرب أطراف تلك الخطوط ،هناك جهات لا يمكن أن يجمعها ضمّ الكف.

بقيت ضامة كفيها حتى نامت ..تستحضر قريتها في منامها.

***

«القولنـــج: انعقال الطبيعـــة لانسداد المعـــي المسمى قولون».

مفتاح الطب أبو الفرج البغدادي

«يجـــب أن لا يدافع بتدبـــير القولنج، فإنـــه إذا ظهرت علامات ابتدائه وجب أن يهجر المريض الامتلاء، ويبادر إلى التنقية التي بحسبه، وإن كان عقيب طعام أكله قذفه في الحال، وقذف معه ما يجب من الأخلاط حتى يستنقي. ومما هو جيد في ذلك أن يجعل في شراب النعناع المتخذ من ماء الرمان شي من كمون وسماق».

القانون – ابن سـينا

أوّلُ المسير

خرج أبو علي من القصر منهكا.

كانت آلامه قد عاودته من جديد؛ تتقلص أمعاؤه كأن شيئا في داخله يثقبها، يشعر بامتلاء بطنه وبثقل يجعل تنفسه صعبا، وتُلحُّ عليه الرغبة في إفراغ أمعائه، لكنه لا يستطيع.

ينحبس الطعام فيه أياما، حتى يظن أنه هالك. جرب العلاج بالأدوية شُربًا فلم تجد معه شيئا هذه المرة. كان المرض قد تمكن منه. فمنذ أكثر من عشرين سنة، حين كان في جرجان جاءته نوبته الأولى. عكوفه على الشراب، وليالي السجون ضاعفا سرعة المرض في بدنه، حتى بلغ هذه المرحلة التي لم تعد تسعفه فيها الأدوية. عمد إلى الكرفس، يحقن به نفسه، ومعه زيت الزيتون، وأعشاب تأتيه من الهند، فأراحه ذلك.

أصبح لا يقف إلا منحنيا إلى الأمام، يخفف الانحناء الألم إذا جاءه. لم يعد يطيل مجلس الدرس، ولا مجلس الأمير، ويخشى في نفس الوقت إن غاب عن الأمير أن يدع فرصة لأحد يملأ أذنيه بما يفسده عليه. لم تعد به طاقة لمثل هذه المؤامرات، تعب من السجون، وتعب من الرحيل، وتعب من الشرح ومن التبرير.

إذا كانت صحبة صديق لوّام تستهلك حياة المرء، فكيف بصحبة الملوك. وهم يمنحون بكلمة، ويقطعون بأخرى، ولا يسمعون إلا أنصاف الجمَل، ثم يكملونها بأهوائهم.

خرج مبكرا.. قبل العصر.

ترك موكبه، وأسرعت عربته وحدها عائدة به إلى البيت. أرسل من يُعلِم الجوزجاني بعدم قدومه، ويكلفه بمتابعة المرور على الأقسام وحده.

حـين وصـل أسـرعـت إليـه ورد متلهفة إذ لم يكـن من عادته العودة في هذا الوقت إلى
البيـت.
- ما بك يا سيدي؟
- لا تقلقي، تعب خفيف، سريعا ما يزول.
- عاودك الألم من جديد؟
- نعم.
- أنت ترهق نفسك كثيرا في العمل.
- لا راحة في دنيا، المستريح فيها شقي.
كان العرق يغمر وجهه من الألم، فمدت طرف ثوبها تمسحه.
سألته:
«هل أعدُّ لك شيئا»؟
- نعـم، شراب النعناع بماء الرمان، وضعي عليه شيئا يسيرا من الكمون والسماق، سيكون ذلك كافيا بمشيئة الله.
قبلت جبينه، وأسرعت تحضر له ما طلبه، فشرب قليلا من الدواء، وهي إلى جواره.
وضعت يدها على رأسه وتمتمت بأدعية هامسة، وهي تنظر إلى وجهه الذي بدأت ملامحه في الانبساط، وأصبح قادرا على الابتسام وهو يقول لها: ماذا تفعلين؟
- أرقيك يا سيدي.
- ابتسم وجهه وهو يقول: الحمد لله الذي أزال الألم برقياك.
- إن ألما مهما كان خفيفا، يسلب حياة المرء معانيها. أنتم الأطباء من يعيد لحياة الناس معانيها..
- نحن الأطباء لا نملك شيئا من الحياة ولا من معانيها.
- بل تملك الكثير يا سيدي.. تملك نفسا تحب الكمال.

ابتسم ولم يجب.

تمدد على فراشه، وظل ينظر إلى السقف، وهي إلى جواره.

قال:

- سيسافر علاء الدولة إلى همذان بعد أسبوع.

- ساءت حالتك حين خرجت معه المرة الماضية إلى الكرخ، وأنت لست رجل حرب، وعملك يمكن أن يقوم به تلامذتك. أنت مريض، لو اعتذرت منه، قبِل منك.

- لا أستطيع.

- لِمَ؟

سكت ولم يجب. قالت:

- إذن سآتي معك، لن أتركك تسافر وحدك، لن يمكنني البقاء هنا حتى تعود.

مرت لحظة صمت، كان ينظر فيها إلى عينيها، أشاحت بوجهها حين غلبتها دموعها.

«لا طعم للحياة حين تكون بعيدا يا أبا علي. يصبح مرور الشمس في السماء عبثا، لا معنى له».

- سيصبح معناه اقتراب عودتي.

- لن أبقى هنا وأنت مسافر.

قالتها بحسم، فابتسم لها بوهن: «حسنا.. سنرتب هذا الأمر فيما بعد. الآن أريد أن أرتاح قليلا. أخبري الجوزجاني حين يأتي أن يلقي هو الدرس على الطلبة اليوم. ولا يوقظني

أحد».

***

في حُلمه بدت له بخارى من بعيد يحجبها ضباب كثيف، لم يلبث أن انقشع حتى أصبحت المدينة واضحة تأتيه أصواتها، وروائحها، ورأى

الطفل الصغير حسين، معلقا فوق أغصان شجرة، وصوت أخيه محمود يبحث عنه.

- حسين. أين أنت؟

- أنا هنا، ارفع رأسك للسماء تجدني.

يرفع محمود عينيه، فيجده جالسا على غصن شجرة كبيرة، قد أراح ظهره إليها، وبيده أوراقه ينظر فيها.

- ماذا تفعل عندك؟

- أطالع هذه الأوراق من كتاب ايساغوجي، في المنطق. اليوم سيأتيني الناتلي في المساء، وأريد أن أتحقق من بعض الأمور، قبل أن أناقشه فيها. تعال اصعد إلى هنا.

خلع محمود حذاءه، وتعلق بالشجرة. يرفع قدميه إلى أعلى، ثم يدفع جسده وينقل يديه التي تحتضن ساقها بقوة خطوة إلى أعلى، حتى استقر إلى جوار أخيه فوق الغصن وهو يقول لاهثا: وهل ضاقت عليك الأرض حتى تتعلق بالأشجار لتقرأ؟

- الحكمة يا محمود، إنما يرتقى إليها.

- فوق الأشجار!

- نحو السماء يا أخي. ألا ترى الطيور تعيش حياتها هانئة، سعيدة، تعرف لكل شيء موعده. الطيور لا ترى سيئات العالم، لأنها تعيش في السماء. في السماء، يبدو العالم كله لوحة ملونة جميلة، حتى تلك الأشياء التي تظهر لنا ونحن على الأرض سيئة وقبيحة، تصبح جزءا من جمال العالم، حين تراها الطيور من السماء.

- مم.. طيب. هيا الآن لأن أمي تريدك، ولا أريد أن نتأخر، سيهبط المساء الآن،

وهذه الغابة ليست آمنة في الظلام.

- هيا..

استعدا للنزول، فلمح حسين على غصن شجرة قريبة غرابين، واقفين ينظران نحوهما، فأشار لأخيه وقال: انظر، هذا معلم البشرية الأول.

- معلم البشر غراب يا أخي!!.

- نعم، ألم يقل قابيل: «أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي».

- علمه كيف يخفي جريمته.

- بل علّم الإنسان كيف يواري جسد أخيه الإنسان حين يموت. وعلم الإنسان أيضا أن أي شيء يحدث حوله في الحياة هو رسالة له، يقرؤها من يحسن النظر. حتى تلك التي تبدو عديمة القيمة في ظاهرها.

كانا قد نزلا من الشجرة، وسارا عائدين إلى الدار.

محمود أصغر من حسين، أقصر منه، وأنحف. يجري أمامه، ثم يستعجله ليدركه.

كانت أمهما تنتظر عند بوابة الدار.

- مرحبا يا أمي، هذا ابنك كان يبحث عن الحكمة فوق أغصان الشجر، كالطيور.

- يبرُد الهواء في الغابة مبكرا يابني، وجسدك ضعيف لا يحتمل البرد.

- لم يكن هناك برد يا أم، لا تقلقي.

قبّلا يدها، ورأسها وأسرعا إلى غرفتهما يستعدان للطعام.

كانت دارهما من أكبر الدور في بخارى، فهي دار وزير من وزراء الأمير نوح بن منصور، وزير تصريف الأموال، وفوق ذلك، هو داع من دعاة الإسماعيليين، يجتمع في بيته المريدون، يتناقشون في كثير من الأمور ويقرؤون في رسائل إخوان الصفا، وحسين يحضر مع أبيه كل هذه الجلسات، وإن كانت نفسه تضيق أحيانا بأحاديثهم فينكر منها ما لا يوافق عقله، وكثيرا ما كان يحرج أبيه بأسئلته الدائمة.

لم تكـن كل جلسـات أبيه تحمل له هذا الاسـتياء، فجلسـات أخرى كانت تلاقي سـعادة ورضا في نفســه، تلك التي كان يحضر فيها المغنون، وتعمل آلات الطرب حتى يطلع الفجر.

ينتظرها بشـغف ويجلس في مكان واحد، اختـاره بعد تجارب كثيرة. حيـث يكون الصوت أكثر وضوحًا، وصفاءً.

يجلـس العـازف أمـام صنـدوق، عـلى هيئـة نصـف مثلـث بســاقين متــاويين، قد شُدت عليه أوتارٌ مختلفة الأطوال، وأمسك بيديه عصـاتين صغيرتـين، يهتـز كفـاه دون أن يتحرك سـاعداه، وتمر العصـا خفيفة على الأوتار كأنها تـسبح فوقها، فيخرج صوتٌ ناعمٌ، يغلظ شـيئا فشيئا حتى يكاد يرتج من دويه البيت.

تمـر لحظة صمت، قبل أن تعـاود كفّا الرجل الرفرفـة من جديد على الأوتـار، فتمتزج النغمات الناعمة، بالغليظة، ثم لا تـسـتطيع عين الطفل أن تدرك يد الرجل المتسارعة فوق الأوتار بعد ذلك.

يحسُّ حسين بخدر ينتشر داخله، لم يعد يشعر بالغضب الذي كان يفور في نفســه بعد إجابة الداعي على سؤاله وسخريته منه أمام الحاضرين.

أغمـض عينـيه، وأحـس كأن الفضـاء قبة فيها ألـوان كثيرة متداخلة، أبيض وأحمر وأصفر وأزق، بقع واسعة على سطح الماء، تتلوى وتتداخل، وكلما دارت، كانـت تـسـحب من نفســه كدرها الذي يعكرها خيطا رفيعا يذوب.. فيصفو.

وكلـما رق عـزف الرجل، كانــت الألوان تختلط وتـتلاشــى حدودها أكثر.

تزيد سرعتها، وهي تمتزج، وتتحول معا إلى لون واحد.

أبيضَ عميقا، يسحب إليه روحه فلا يقاومه.

لا وزن ثَمَّ ولا خوف، ولا قلق.

أبيضٌ رحبٌ، ونفسٌ مغسولة، وذهنٌ صاف.

ميلادٌ جديد.

وحين انتهى الرجل هتف الصبي جذلا:

«أيّ نبي أنت»؟!

ابتسم العازف، وهو يقول: بل أنت النبي يا بني لا أنا.

- أنا!!

- نعم.. من رام العلوم، ودرس المنطق فإن تمام عقله في حب النغم والألحان. إذ النغم ليس إلا فضلا بقي من المنطق لم يقدر اللسان على استخراجه فاستخرجته الطبيعة بهذه الألحان على الترجيع لا على التقطيع، وحين ظهر عشقته النفس وحنّت إليه الروح؛ ولذلك قال أفلاطون: لا ينبغي أن تمنع النفس من معاشقة بعضها بعضا؛ ألا ترى أن أهل الصناعات كلها إذا خافوا الملالة والفتور على أبدانهم، ترنّموا بالألحان، فاستراحت لها نفوسهم.

- ما اسم هذه الآلة يا سيدي؟

- سنطور.

- هل يمكن أن أجربها.

انزاح الرجل إلى مكان خال جواره، يفسح له، فهب حسين من مكانه يتخطى الرجال إلى أن وصل إليه. مسها بيده، وحرك كفه الصغيرة على الأوتار مجتمعة، كأنه يريد

أن يمتص سحرها إلى نفسه.

طرق طرقة خفيفة بيده، وسمع الصوت الذي خرج منها. ثم حرك بإصبعه وترا واحدا، ثم الذي يليه، كانت الأصوات تختلف من وتر إلى آخر، الأقصر أغلظ من الأطول.

ظلت يده تتنقل بين الأوتار وترا وترا، ثم يعيد الكرة وهو يضع إصبعا على أحد أطراف الوتر، ويراقب اهتزازه، ثم يوقفه بيده، فيسكت الصوت كأنما انقطع فجأة. كانت أسئلة جديدة تأخذ مكانها في نفسه،

بعيدا عن أسئلته في النفس والعقل وحق الداعي، وسلطان المدعو له.

ما الصّوت؟ ما سره، وما مكْمَن السحر فيه؟

حين أوى لفراشه تذكّر ما يعرفه من أصوات. خرير النهر، نقر المطر، نقيق ضفادع الحقل، حفيف الرياح، وخشخشة الأوراق وهي تتكسر تحت قدميه.

وصوت نسرين بنت العروضي الذي كان فعله في نفسه يوم سمعه أول مرة كفعل آلة هذا الرجل.

أي شيء يجمع بين هذه الأشياء معا.

شاهد الوتر المشدود إذا أوقفه بيده انقطع الصوت، وإذا ارتخى الوتر واهتز لا يسمع من شيء.

هل يكون في الإنسان أوتار كأوتار السنطور.

ولو كان فيه، فما صوت الرياح ولا وتر فيها.

من أين يأتي صوت الرياح.

من أين؟!

رأى نفسه وهو يبحث في رسائل إخوان الصفا، عما ورد عن الصوت فوجد:

«وكل هذه الأصوات مفهومها وغير مفهومها، حيوانها وغير حيوانها، إنما هي قرع يحدث في الهواء من تصادم الأجرام وعصر حلقوم الحيوان. وذلك أن الهواء، لشدة لطافته وصفاء جوهره وسرعة حركة أجزائه، يتخلل الأجسام كلها ويسري فيها ويصل إليها ويحرك بعضها إلى بعض. فإذا صدم جسما، انسل ذلك الهواء من بينهما، وتدافع وتموج إلى جميع الجهات، وحدث من حركته شكل كروي يتسع كما تتسع القارورة من نفخ الزجاج. وكلما اتسع الشكل، ضعفت قوة ذلك الصوت إلى أن يسكن. ومثل ذلك إذا رميت في الماء الهادئ الواقف في مكان واسع حجرا، فيحدث في ذلك الماء دائرة من موضع وقع الحجر، فلا تزال

تتسع فوق سطح الماء وتتموج إلى سائر الجهات. وكلما اتسعت ضعفت حركتها حتى تتلاشى وتذهب. فمن كان حاضرا في ذلك الموضع أو بالقرب منه من الحيوان، سمع ذلك الصوت».

يقضي يومه أمام البحيرة، يلقي الحجر فيها، فيجد مصداق الكلام حاضرا أمامه، دوائر تتحرك متسعة وهي تبتعد عن موضع سقوطها.

ينادي بصوت عال، يا سرَّ هذا الصوت!. فيسمع النداء من بعيد: يا سرَّ هذا الصوت. تجيبه بنت الجبل، تماما كحلقات الماء حين تقابل حدود البحيرة فترتد عائدة، ضعيفة.

في كتب الأقدمين يقصون حكاية بنت الجبل.

كانت فتاة شاغلت حيرا زوجة المشتري حتى لا تدرك زوجها مع فتاة هي صديقة إيكو، تثرثر إيكو حتى تشغل حيرا، وحين تعلم حيرا تعاقبها بجنس ما فعلت، فتحبس

الكلام في فمها، فلا تستطيع الحديث إلا بتكرار أواخر الجمل التي تسمعها.

* * *

تتداخل الصور في حلمه، بغير حدود واضحة.

يسمع حسين حديث أبيه مع الناتلي: سيولد في نفس هذا الفتى نور يبلغ الآفاق، فإياك أن تشغله بغير العلم، ولولا أن النبوة ختمت لقلت إنه نبي هذا الزمان. أما أنا فلم يعد لدي ما أمنحه إياه، قد فاقني علما وفهما وقدرة على النظر والقياس.

صحا فجأة، وصوت الناتلي تملأ عقله. نفض عنه غطاءه وقام كأنما لم ينم مريضا منذ ساعات. أخرج أقلامه ومحابره وشرع يكتب:

«رحل الناتلي وأخذت أقرأ الكتب على نفسي وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق. فقرأت كتاب إقليدس، ثم المجسطي، ولما فرغت من مقدماته وانتهيت إلى الأشكال الهندسية قال لي أستاذي: تولى قراءتها

وحُلها بنفسك ثم اعرضها عليّ أبيّن لك صوابها من خطئها. والحق أنه لم يكن يعرف أكثر ما في الكتاب من مسائل، فكنت أشرحها أنا له وأبين له براهينها.

ثم رغبت في علم الطب، وقرأت الكتب المصنفة فيه. وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة إن أعطيته من نفسك، وأقبلت عليه. كل ذلك ولم أكن قد جاوزت ست عشرة سنة، ثم عدت فقرأت المنطق من جديد في سنة ونصف لم أنم فيها ليلة كاملة».

ثم توفرتُ على العلم والقراءة سنة ونصف، فأعدت قراءة المنطق، وجميع أجزاء الفلسفة. ولم أنم في هذه المدة ليلة واحدة بطولها، ولا اشتغلت في النهار بغيره، وجمعتُ بين يديّ ظهوراً فكل حجة كنت أنظر فيها أثبته من مقدمات قياسية، وترتيبها، وما عساها تنتج، وأراعي شروط مقدماتها حتى تتحقق لي المسألة. والذي كنت أتحير فيه من المسائل، ولم أظفر بالحد الأوسط في القياس، أتردد بسبب ذلك إلى الجامع، وأصلي وأبتهل إلى مبدع الكل، حتى يتضح لي المنغلق منه، ويسهل المتعسر؛ وأرجع بالليل إلى داري، وأحضر السراج بين يدي، وأشتغل بالقراءة والكتابة فمهما غلبني النوم، أو شعرت بضعف، عدلت إلى شرب قدح من الشراب لكيما تعود إليّ قوتي، ثم أرجع إلى القراءة. ومهما أخذني أدنى نوم، كنت أرى تلك المسائل بأعيانها في نومي واتضح لي كثير من المسائل في النوم، ولم أزل كذلك حتى استحكم معي جميع العلوم، ووقفت عليها بحسب الإمكان الإنساني؛ وكل ما عملته في ذلك الوقت، فهو كما علمته، لم أزدد إلى اليوم فيه شيئاً، حتى أحكمت العلم المنطقي والطبيعي والرياضي.

وانتهيت إلى العلم الإلهي، وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة فلم أفهم ما فيه، والتبس عليّ غرض واضعه، حتى اعتدت قراءته أربعين مرة، وصار لي محفوظاً، وأنا لا أفهمه، ولا المقصود به، وأيست من نفسي وقلت: هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه. فحضرت يوماً وقت العصر في الوراقين،

فتقـدم دلال بيده كتاب ينادي عليه، فعرضه عليّ، فرددته ردَّ متبرم معتقد ألا فائـدة في هـذا العلـم. فقـال لي: اشـتره فصاحبه محتـاج إلى ثمنه، وهو رخيص وأبيعكه بثلاثة دراهم؛ فاشتريته، فإذا هو كتاب أبي نصر الفارابي في أغـراضِ كتاب ما بعـد الطبيعة. ورجعـت إلى داري، وأسـرعت قراءته، فانفتح علي في الوقت أغراض ذلك الكتاب؛ لأنه قد صار لي محفوظًا على ظهـر القلب؛ وفرحت بذلـك، وتصدقت في اليوم الثـاني بشيء كثير على الفقراء، شكرًا لله تعالى».

توقـف عن الكتابة وهو يـرى أمه ترتـب له ثيابـه وعمامته، حين جاء رجـال الأمير نوح ليصحبوه، وضعت يدها على رأسـه وهـي تقرأ آيات من القرآن، ثم دعت له بالبركة وأن يحفظه الله من الحسـد.

كانـوا ثلاثة وصلـوا في الصباح، عرّفوا أنفسـهم بأنهم رسـل الأمير منصـور، مُكلّفين بصحبة الطبيـب حسـين بن سـينا إلى القصر لأن الأمير مريـض وقد عجز أطباؤه عـن علاجه. قالت: «لعلّكم أخطأتم الاسـم، أو العنوان».

قالوا: هذا هو المكان الذي دلونا عليه. أليسـت هذه هي دار عبد الله بن سينا الوزير؟

قالت: فدونكم الطبيـب. هو هذا الصبي، ماذا ينتظر الأمير من صبي حين يعجز الأطباء ذوو اللحى؟

- لا عِلْم لنا، وما نحن إلا رُسل.

في نفسها امتزج فرحٌ، وقلق.

إنه فتى صغير على دخول قصور الإمارة.

أبّهة القصـور فتّانة، وهو لم يعامل من النـاس إلا معلميه، وزوار أبيه. وهـؤلاء كان كثـير الاختلاف معهم بما يغضبـهم ويحـرج أبيه. أما مرضاه الذيـن يعالجهم فليسـوا إلا مزارعي بخارى، وعُمالها الذين لا يجدون ما ينفقون عنـد الأطباء فجاؤوه يطبيهم بغير أجر.

شاورتْ أبيه، فلم يرفض. «ماذا سيخسر إن ذهب؟ سيطير ذكره في أقاليم ما وراء النهر كلها، وربما بلغ قصر الخليفة في بغداد».

- لكنه صغير!

- سيجعله هذا في مأمن إذا أخطأ.

- أخشى عليه فتنة القصور وهو بعد لم تكتمل نفسه.

- لحسين عقل يهديه.

قالت له بعد أن أنهت أدعيتها، ونفضت غبارا لا وجود له عن كتفه: «اعلم أن من أساء الأدب في حضرة الملوك فقد خاطر بنفسه، وكن على التماس الحظ بالسكوت أحرص منك على التماسه بالكلام، ولا تخطئ طبيبا أكبر منك في حضرته، وإن بدا لك منهم خطأ فاحتَلْ له، ولا تُصرِّح به، وإياك أن تكسب رضا الأمير بإغضاب الله. والله يرعاك يا بني.»

دخل القصر، وسار معه الرجال إلى قاعة صغيرة، أعطوه فيها ثيابا يلبسها فأبى أن

يخلع ما عليه، تلك التي سوّتها أمه بيدها. رفضوا أن يدخل بثيابه، فلم يبال.

قال: «أعود من حيث أتيت، ولا أخلع ثوبي لثوب سواه».

نزلوا على ما أراد، وجاءه أربعة رجال بزينة كاملة ليصحبوه، ساروا حوله، اثنان من كل جهة، يعبرون به ممرات القصر.

بُسطٌ ممدودة، ونمارقُ مصفوفة، ومشاعلُ كأنها الشمس، حتى وصل إلى غرفة ينام فيها الأمير. حوله رجال قاموا ينظرون مَن هذا الصبي الذي يدخل عليهم، عرف منهم جابرَ بن إسحاق الطبيب المعروف.

بدا في وجوههم جميعا عدم الرضى، لكن أحدا منهم لم يتحدث.

كان أول المتحدثين هو الوزير ابن الصبر. قال: أنت الطبيب؟! تبدو طفلا!

- وإنَّ صَغيرَ القَومِ إنْ كانَ عَالِماً كَبيرٌ إذَا رُدَّتْ إليهِ المَحَافِلُ

- وإن لك علما؟

- لأجله أرسلتم إليّ.

- حسنا.. الأمير كما ترى غائب عن الوعي لا يدرك ما حوله، بدأ الأمر منذ أسبوع بمغص وحرقة في المعدة وشعور بالامتلاء وثقل يمنعه إفراغ ما في بطنه.

قال ابن سينا: وماذا وصف له كبير الأطباء لذلك؟

قال ابن إسحاق: مسهّلا، استراح عليه قليلا، ثم لم يعد يجدي نفعا.

كشف ابن سينا بطن الأمير، وفرد أصابعه، ولامسها لجدار بطنه، يحركها برفق مبتدئا

من الجهة اليمنى من أسفل، ثم إلى أعلى يجس حدود الكبد، ثم المعدة، ثم الطحال.

قال: ليس هناك تورم في المعدة، ولا أحس الطحال ولا الكبد، وكلاهما علامة حسنة. منذ متى غاب الأمير عن الوعي بهذه الصورة؟

- منذ يومين.

أكمل ابن سينا فحصه، فتح عينيه، فلم يجد فيهما اصفرارا، فقال وهذه علامة أخرى نافية، لما فكرت فيه.

قال ابن إسحاق: ورائحة فمه أيضا تنفي ما تفكر فيه. نحن أطباء أيها الصبي، وسرنا في نفس هذا الطريق الذي تسير فيه الآن، ولم ننتهي لشيء.

فتح ابن سينا فم الأمير، مد شفته، وفحص اللثة وحدود الأسنان.

كانت حدود اللثة زرقاء اللون، وفيها قرح كثيرة.

سألهم: هل عرضت للأمير نوبات هياج، أو تشنج من قبل؟

قال الوزير: نعم. في الأيام الأخيرة فقط، أما قبل ذلك فلم يكن سوى ارتجاف خفيف في يده، ويكون للحظات كأنه نائم وهو بيننا. وكنا نظن ذلك من الإرهاق.

- في أي شيء يتناول الأمير طعامه؟

تعجبوا السؤال فنظر بعضهم إلى بعض. قال خادم كان يقف خلفه: في أواني الفخار.

- وهذا الفخار على حافته رسوم؟

- بالطبع.

- والرسوم ملونة.

- ماذا تقصد؟

- تحتوي الألوان على الرصاص، وحين يشرب الأمير من الإناء، يدخل الرصاص إلى جسده. الرصاص ينفع في علاج بعض الأمراض، لكن مقداره إذا زاد في الجسد، أدى لما نراه من أعراض. ما يعانيه الأمير ليس قولنجا بالتأكيد، ولا تورم الكبد، ولا حصوة الكلى، وإن كان ألمه الذي اشتكى منه يختلط مع هذه الثلاثة، لكن تشنجه، ولون لثته، وغيابه الآن عن الوعي ينتهي إلى هذا الأمر. إلى تسمم الرصاص.

- وما دليل صحة ما تقول؟

- لا دليل عندي سوى شفاء الأمير، بإذن الله.

قال الوزير:

تظل معنا مشرفا على علاجه بنفسك حتى يطيب. بعد إذن كبير الأطباء ابن إسحاق.

لم يكن أمام ابن إسحاق إلا أن يكتم ضيقه، ويقبل الأمر، وينتظر حتى تكشف الأيام لهم خطأهم حين تركوا صبيا صغيرا يعبث بحياة أميرهم حين اكتشف في لثته قروحا، ربما كانت من تراكم بقايا الأعشاب في فمه أثناء غيابه عن الوعي.

طلب ابن سينا ورقا، كتب عليه ما يحتاجه وأعطاه للخادم الذي أسرع يحضره.

أيامٌ وهو إلى جواره، يسقيه الدواء ويغطي بطنه بكمادات منقوعة في

أعشـاب حضرهـا، ويدعو الله ألا يخيب سـعيه حتى عـاد للأمير وعيه، وصفا ذهنه، ودبت فيه الحياة كأنها نشط من عقال.

* * *

«واتفق لسـلطان الوقت ببخارى، وهو نوح بن منصور، مرضٌ تحيَّر الأطباء فيه. وقد كان اشـتهر اسـمي بينهم بالتوفر على العلم والقراءة، فأجروا ذكري بين يديهم، وسـألوا وزراءه إحضـاري؛ فحضرت وشـاركتهم في مداواته وتوسـمت بخدمته. وسـألته يوماً الإذن لي في الدخول إلى دار كتبهم، ومطالعتها، وقراءة ما فيها، فأذن لي. ودخلت إلى دار ذات بيوت كثيرة في كل بيت صناديقُ كتب منضدة بعضها على بعض، ففي بيت منها كتب العربية والشعر، وفي آخر الفقه، وكذلك في كل بيتٍ علم مفرد. فطالعتُ فهرسـت كتب الأوائل، وطلبت ما احتجت إليه. ورأيت من الكتب ما لم يقع اسـمه إلى كثير من الناس، ولم أكن رأيته قبل ذلك، ولا رأيته أيضاً من بعد. فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها، وعرفت مرتبة كل رجل في علمه. فلما بلغت ثمانية عشرة سنة من عمري، فرغت من هذه العلوم كلها؛ وكنت إذ ذاك للعلم أحفظ، ولكنه اليوم معي أنضج، وإلا فالعلم واحد لم يتجدد لي شيء بعد.

وكان في جواري رجل يقال له أبو الحسين العروضي، فسـألني أن أصنف له كتاباً جامعاً في هذا العلم، فصنفت له المجموع، وسـميته باسـمه، وأتيت فيه على سـائر العلوم سـوى العلم الرياضي، ولي إذا ذاك إحدى وعشرين سـنة. وكان في جواري أيضاً رجل يقال له أبو بكر البرقي، خوارزمي المولد، فقيه النفس، متوجه في الفقه والتفسـير والزهد، مائل إلى هذه العلوم، فسـألني شرح الكتب، فصنفت له كتاب الحاصل والمحصول في قريب من عشرين مجلدة. وصنفت له في الأخلاق

كتابًا سميته كتاب البر والإثم ؛ وهذان الكتابان لا يوجدان إلا عنده، فإنه لم يعر أحدًا ينتسخ منه.

ثم مات والدي، وتصرفت بي الأحوال؛ وتقلدت شيئاً من أعمال السلطان، ودعتني الضرورة إلى الإخلال ببخارى والانتقال إلى كركانج؛ وكان أبو الحسين السهلي المحب لهذه العلوم بها وزيراً، وقدمت على الأمير بها، وهو علي بن مأمون؛ وكنت إذا ذاك على زي الفقهاء بطيلسان وتحت الحنك، فرتبوا لي مشاهرة تقوم بكافية مثلي.

ثم دعت الضرورة إلى الانتقال إلى نسا؛ ومنها إلى بارود؛ ومنها إلى طوس؛ ومنها إلى جَاجَرْم رأس حد خراسان؛ ومنها إلى جُرْجان. وكان قصدي الأمير قابوس، فاتفق في أثناء ذلك أخذ قابوس وحبسه في بعض القلاع وموته هناك. ثم مضيت إلى دِهِسْتان؛ ومرضت بها مرضاً صعباً، وعدت منها إلى جرجان، وهناك اتصل بي أبو عبيد الجوزجاني*.

***

«أملى عليَّ في جرجان المختصر الأوسط في المنطق، وصنف لأبي محمد الشيرازي كتاب المبدأ والمعاد وبدأ كتابة القانون. وحدث ما اضطره لترك جرجان بعد ثمان سنين فانتقل إلى الري، واتصل بخدمة السيدة وابنها السلطان مجدُ الدولة، وكان ذكره قد سبقه إلى هناك، فطلبوه لعلاج الأمير من علة السوداء، وصنف بالرّي كتاب المعاد. وبقي بها إلى أن قصدها شمس الدولة أخو الأمير مجد بعد قتْل هلال بن بدر بن حسنويه، وهزيمة عسكر بغداد».

أبو عبيد الجوزجاني

أبو عبيد

قال ابن سينا:

- في هذه الأوراق دونت جزءا من سيرتي ليكون مرشدا لمن أراد أن يرى كيف كانت حياتي.. توقفت عندما التقينا أنا وأنت في جرجان.

- جميل أن يكتب المرء سيرته بنفسه، فيختصر طريق رواة الأخبار وكتاب السِّيَر.

- لن يختصر من طريقهم شيئا.. من اختار أن يهب حياته للعلوم، فقد اختار أن يتركها متاحة للجميع يبحثون في كل جزء فيها.. كنا نتعلم سير العلماء، كما نتعلم العلوم ذاتها، فإذا وجدتُ رجلا لم يُفِد من علمه في حياته أيّ إفادة، عرفت أنه ناقل لا عالم فلم آخذ منه، وتجاوزته إلى غيره.

- لكننا لن نجد أحدا إلا وفي حياته ثلم وتقصير؟!

- هذه طاقة البشر، ليس هذا ما عنيته.. فرق بين من يخالط نور المعرفة حياته، ومن يجعل بينه وبينها حجاب.. ألم يقل أرسطو من قديم: لو علموه يقينا لعملوا به.. أولئك الذين عملوا بما علموا حتى وإن أخطئوا خير ممن كانت علومهم تجارة يتكسبون منها.

- والعِلْم واحد معهما!

- لا.. يفسد العلم عند التاجر الذي لا يعمل به، أما الآخر فهو ينمّيه ويمنحه نضارة من حياته. العلم ليس جسدا ميتا يتعاقبه الناس، بل بستان واسع يزرع كل واحد فيه شجرة حتى يكتمل.. المهم، إن لم أتمكن من إتمام ما بدأته بنفسي، فإني آمنك على ما رأيت من حياتي. دوِّنه بما يوافق الحقيقة، وترضي به الله. واعلم أنها أمانة، وستجد في أوراقي ما بقي معي من مسودات رسائلي التي كتبتها لأصدقائنا في البلاد. ضاع أكثرها في السفر من مكان لآخر، لكن ما بقي سيعينك على ترتيب الزمن ومعرفة الأخبار بلا شك.

- مد الله في عمرك، حتى تنجز ذلك بنفسك.

- لم يبق في العمر مد، المرء لا يشرع في النظر إلى حياته إلا عندما تكون كلها وراءه، وها قد أمست حياتي ورائي يا بني. أردتها حياة عريضة، فأخذ عرضها من طولها، ولست بآس على ذلك، فما جدوى الحياة طويلةً وخاليةً، لا ذكر للمرء فيها ولا بعدها.

استأذنه أبو عبيد أن يأخذ الرسائل معه فأذن له.

كانت مرتبة بتابع الزمن، منذ فارق بخارى إلى اليوم. يسهر معها أجزاء من لياليه حتى أتمها.

رسائله لأمه ولأخيه محمود، ورسائله لأبي الريحان البيروني، وللفردوسي، ولأبي حيان التوحيدي.

رسائل باسمة وأخرى غاضبة.

ديباجات منمقة، أو إيجاز مملوء بالحكمة، وأحيانا قذائف بغير سلام ولا ترفق.

تكشفت الرسائل ما لا يكشفه التأليف عادة.

ومع ابن سينا الذي لم يكن يلازم الناس إلا بنصف نفسه فقط، كان كشفها أوسع وأوفى.

فالأستاذ والطبيب والفيلسوف والحكيم، الذي لا يظهر منه شيء سوى ذلك إن لبس ثيابه وخرج من بيته أو جلس للكتابة أو الإملاء، يقول في رسالة قديمة: **«ينبغي على من يتحدث عن نفسه أن يتحدث عن ثلاثة أشخاص لا عن شخص واحد، فيتحدث عن نفسه كما يراها، وكما يراها الناس وكما يجب أن تكون»**.

هو إذن ثلاثة لا واحد..

وعبد الواحد أبو عبيد لم يكن ليعرف إلا نفس أستاذه التي يراها الناس، وجزءا يسيرا فوقها. ولأنه أحبه منذ لزمه حبا قيده عن النظر إليه،

فهو عاجز حتى عن وصف وجهه إن طلب منه ذلك، فكيف يمكنه أن يسبر أغواره، ويعرف كوامنه.

قال له مرة: «لو ادعى مثلك النبوة يا أبا علي لما أنكر عليه أحد». فلم يجبه ابن سينا، حتى كانت ليلة باردة كثيرة المطر وكانا في سفر وأبو علي قائم للصلاة، فأيقظ أبا عبيد ليسخن له الماء، فقال: لو انتظرنا حتى تطلع الشمس فإنها ليلة عاصفة، شديدة البرد.

قال ابن سينا: لأجل ذلك لم يجز لمثلي أن يدعي النبوة. ولقد كان لمحمد رسول الله صحابة لا يرون حياتهم بغير حياته، يستبقون طاعته، وأوامره، أما أنا فيستثقل تلميذي الأحب تسخين ماء أتوضأ به، لأن الليلة عاصفة والبرد شديد، ألا فاعلم أن النبوة اصطفاء من الله لمن أعدهم لها.

في الأوراق التي أخذها أبو عبيد، رأى أستاذه في غير ما اعتاده عليه، رآه وهو وحيدٌ، ورآه وهو حزين ورآه وهو يحتال ليُبيح الخمر لنفسه فيجعلها حرام للعوام جائزة للخواص، ثم رآه وهو يعاهد الله على تركها، ويقر بخبثها.

رآه وهو مشتاق إلى أمه..

يكاد يشعر والرسالة في يده بحرارة زفراته، واضطراب صدره حين كتبها.

ورآه يواسي صديقا له على فوات أمر كان ينتظره:

«.... ومن أراد ألا يعرض له الحزن، فليتصور محبوباته الدنيوية ومطلوباته العاجلة على ما هي عليه من الزوال فلا يطلب منها ما ليس من طبعها من الثبات والبقاء والدوام، ولا يستعظم تبدلها وفواتها عند طلبه لها. فيأخذ منها قدر الحاجة إذا وجدها، ويتسلى عنها إذا فقدها، ولا يستقبلها بالطلب الحثيث والتمني العظيم إذا طلبها فهذه من أخلاق أجلة الملوك فإنهم لا يتلقون مقبلا ولا يودعون ظاعنا.

ثم ينبغي أن يتصور أنه إن وجب أن يحزن لشيء، فقد وجب أن يحزن أبدا، لأنه لا زمان في حياته إلا وسيفقد فيه محبوبا، أو يفوته منه مطلوب.

ولعل في كلامي شيئا ترفضه، إذ تقول إن الحزن متعلق بالعاطفة لا بالعقل، ولا أحد يفكر في الحزن إن ألم بعقله، وهذا صحيح. لكن من الصحيح أيضا أن هذا الحزن من تمام بناء الحياة، فهو كالليل للدنيا، وكالسجن للعالم والعابد والمفكر، نحتاجه لنريح به عقولنا، وأبداننا، ولنتحرر من قيود كثيرة لا نشعر بها، حتى وإن كان فيه ظلمة ووحشة.

فاحزن إذن كما يكون في اليوم ليل، واعلم أن لليل فجرا، فالله تابع الليل والنهار، وتابعَ الحزن والفرح، وليس لأحد أن يمنع هذا التتابع بيده، من إله غير الله يأتيكم بضياء، أفلا تسمعون».

* * *

لم يعد لأبي عبيد من أنيس في لياليه إلا أوراق أستاذه، يشعل سراجه، وينظر فيها، يدون ملاحظاته، ويوافق بين أزمنتها وما يعلمه من مواقف وأخبار .. وكلما مضى فيها، أحبه من جديد، كأنه يعرفه من جديد.

في ورقة مُحِيَ أكثر ما فيها قرأ:

«هل لأحد من إخواني أن يهب لي من سمعه قدر ما ألقي إليه طرفا من أشجاني، عساه أن يتحمل عني بالشركة بعض أعبائها ويلنا نحن إخوان الحقيقة، إن لم نتأن ونتضام ويكشف كل واحد منا لأخيه الحجب عن خالص لبّه ليطالع بعضنا بعضا، ويستكمل بعضنا بعضا ...»

متى كتبَ هذا الكلام؟

ليس في الرسالة إيضاح عن زمانها أو وجهتها.

لعلها كانت في أيام القطيعة مع البيروني.

كان يعلم تألم أستاذه مما آل إليه حديث أبي الريحان، وقد كانت بينهما تلك الصداقة الواسعة، حتى إنه أرسل إليه سرا يقول له: «لو اخترت

لمخاطبة الشيخ ألفاظا غير هذه الألفاظ لكان أليق بالحكمة، وأوضح للفكرة، وأحفظ لما بينكما من مودة».

بحث بين الأوراق عن تلك الرسائل التي أجاب فيها ابن سينا مسائل أبي الريحان الثمانية عشر، كانا شابين، يدفعهما زهو المعرفة إلى اقتحام كل الأبواب الموصدة. سأله أبو الريحان في عشر مسائل قال بها أرسطو، وفي ثمانية أخرى وضعها هو.. فأجابه ابن سينا عنها جميعا بما يراه.

رد البيروني بإقرار ثلاث، ونقض خمسة عشر.

كانا مدرستين، لكل منهما وجهة هو موليها. فالبيروني يطرق باب الحق بموازين الرياضيات، والفيزياء، وابن سينا بالفلسفة والمنطق، والبحث في الأجساد.

وجد الأوراق التي يبحث عنها، قد جمعها ابن سينا في إضبارة واحدة. حفظَ تطابقُ الورق بعضُه فوق بعض ما بداخله، فلم تتلف إلا أجزاء من الورقة الأولى، والأخيرة.. في الجزءِ الواضح من الورقة الأولى قرأ أبو عبيد:

«ما أنا ممن تعلمت العلم للتسوق، وما أنا ممن أوطأت نفسي عنوة فيما أحسب أنني أتقنه، بل اجتهدت وبلغت، وما لا أعلمه لا أدعيه، وأعلم أن المستعز باليقين لا يذعره شيء وإن هال أصحاب الظنون وأسأل الله التوفيق فإنه ولي الرحمة، وهذه الصرخة لا يضيق بها صدرك فإنها نفثة مصدور».

ثم تصفح المسائل واحدة واحدة..

لم تخل الرسائل من حملتها على أبي بكر محمد بن يحيى بن زكريا الرازي طبيب المسلمين بلا منازع، يتخلل ذكره رسائل كثيرة مما اشتملت حل المسائل، بمناسبة وبغير مناسبة أحيانا.

يحتد ابن سينا حين يرد ذكر كتاب «مخاريق الأنبياء» المنسوب للرازي.

يقـول: «ما كان لـه أن يغادر النظر في بول مرضـاه وبرازهم، حتى ينظر في أحوال الأنبياء، ويتكلم فيما لا يعرف».

لم تكن نسبة الكتاب للرازي ثابتة، وكان حري بالعالم أن يتثبت، لكنه اندفاع الشـاب الذي لا يقبل أي شيء يسـمعه إلا بعد أنَ يزنه بعقله، وإن صدر عن علَم لا يزال اسمه يملأ آفاق البلاد من سمرقند إلى دار السلام. وأهم من ذلكً كانت غيرة العالم من عالم ينافسـه ولو من حجب الزمن.

***

كتب أبو علي:

«الحمـد لله مُلهم الصـواب، منور الألبـاب. واهب العقـل، المتكفل بالعـدل، بـه قـام الوجـود، ومن نـور جمالـه كان الخلـود، مبـدع الكون، وحافظـه، إن انقطـع عنا مـدده، فنينا، والصلاة والسـلام عـلى المصطفين من خلقه، ذوو الكمال والفضـل، نفوسـهم زاكيـة لا شـائبة فيها، وعقولهم صـافيـة لا نقصـان لها، بهم قامت الصلة بين موجـب الوجود وبين خلقه، يسـتدل عليهم كل ذي عقل نقي، ونفس طيـة، ولا يماري فيهم إلا عاجز أو غبي.

لازلت في جرجان. في دار اشـتراها لي أبو محمد الشيرازي إلى جواره. أقضي نهاري في البيمارسـتان، ويأتيني في الليل تلاميذ يقرؤون المجسـطي، منهم صبي اسـمه عبد الواحد الجوزجاني، حمله لي أبوه وقال: أنا أعرفك، أنت الطبيب المشـهور ابن سـينا، الناس كلهم يعرفونك هنا، هذا ولدي، أتركـه لك تعلمه تهذبه ويخدمك على ذلك. ليـس معي ما يتكفل بتعليمه، وهو نابه لن أسـامح نفسـي لو بددت عمره في حرفة من الحرَف.

لو يعلم الذين يفرطون في حق أبنائهم أنهم إنما يفرطون في حق الإنسـان وسعادته لما وجدوا ما يكفرون به عن فعلهم.. لكنهم لا يدركون..

قبلت صحبة الصبي إكراما لطلب أبيه.. فلم يلبث أن بدت فطنته..

كان على حق حين خشي أن يبدد عمره في حرفة أو تجارة. لو استطعت يا أبا الريحان لأنشأت مدارس تختبر الأطفال في سن مبكرة، فمن أنِسَت منه نجابة تولت تربيته على أكمل وجه وصورة، فيعرف العلوم التي عليه أن يحصلها، والمراجع التي يرجع إليها، ويصقل تفكيره، ويتعلم العلم لأجل سعادة الإنسان في معاشه، ومعاده.

ثم يكون من وظيفة هذه المدرسة أيضا أن تعلم الآباء رعاية أطفالهم على الصورة التي تقوي أمزجتهم منذ ميلادهم، فيلزموهم شيئين نافعين، أحدهما التحريك اللطيف، والآخر الموسيقى والتلحين الذي جرت به العادة لتنويم الأطفال بمقدار قبولهم له. ثم يختارون لهم مرضعة حسنة الصورة، شابة قوية العنق واسعة الصدر، بين السمن والهزال، لحمانية لا شحمانية، هادئة ليست غضوية، ولا جبان ولا مغمومة. فأولئك الذي يرضعون من امرأة عصبية المزاج، لا تستطيع أن تناقشهم أبدا إلا وأصواتهم مرتفعة، وغضبهم قريب من غير علة تظهر لك.

سأفصِّل هذا الأمر في رسالة السياسة، وسأرسلها لك حين تمامها. أما الآن فأعود إلى رسالتك السابقة.

تقول إن الغزنوي خارج إلى الهند في الصيف، ليؤدب الكفار فيها، ويريدك أن تصحبه. هذا التركي ملك طموح، وصحبتك له ستكون باب خير لك. لكن نيته تأديب الكفار، أو نيل كنوز الهند، أما أنت فلك فيها كنوز أخرى لا تقل عما سيجنيه هو من قصورها.

سافر يا أبا الريحان، فلأجل هذه المعرفة تحمل صحبة الملوك والعيش في كنفهم، إنها على ما لها من قوة، ضعيفة حين لا تحتمي بمال أو سلطان. ومع ذلك فكلاهما يقتلها.

إن قدم المُلوك لا تميز بين أرض جرداء أو أرض مزهرة، تدوسهما

جميعا بنفس القدر، والقوة. سلمك الله مما يكره.

أما مسألتك التي قلت فيها:

«إذا مُلئت زجاجة مدورة كالكرة ماء صافياً فإنها تجمع الأشعة التي تجتازها في بؤرة لها يمكن أن يتمَّ فيها حادثة الإحراق. وإذا خلت من الماء وامتلأت بالهواء لم تحرق ولم تتجمع الأشعة التي تجتازها. فكيف نفسر ذلك مع أن الماء ألصق بالرطوبة التي هي عكس الإحراق؟

فجوابها أن الماء جسم كثيف صقيل يكسر الضوء عن مساره، فيتراكم بعد اجتيازه في موضع واحد ليحصل الإحراق بالضوء المجموع ولا يحدث ذلك في الهواء.

أريد أن أخبرك عن رجل كوفي، رحل إلى مصر اسمه حسين بن الهيثم. له كتاب جميل سماه «المناظر»، ابحث عنه أو أرسل لك نسخة منه. يدرس فيه سلوك الضوء وخصائصه. توصل إلى ما سبق وأخبرتك به عن طريقة الإبصار، وأن العين لا ترى إلا ما يعكس الضوء إليها، وأن الألوان بمقدار ما ينبعث منها من ضوء.

هل قلت إن العين ترى، لا.. العين لا ترى، الذي يرى هو موضع في الدماغ، ترسل له

العين الصورة فقط، وحين يصاب هذا الموضع بعطب، فمهما كانت العين سليمة، فإن الإنسان يصاب بالعمى، هكذا تقول الجماجم التي وجدها جنود الأمير في ضاحية المدينة.

كانت جثثا قاربت الألف، حفظتهم الأرض على حال ليست سيئة، ولا يعلم أحد في التاريخ القريب أي حدث أدى لذلك، لعلها كارثة قديمة كتلك الزلزلة التي ضربت خراسان منذ سنين، وظن الناس أنها من أعمال الآلهة المتحاربة.

كنت متردداً في فحصها، لكنه فضول المعرفة كان أمضى من خوفي. فشرعت في تشريحها، والآن أنا راضي النفس عما فعلت، إذ كيف يمكننا أن نعرف ماذا في أجسادنا إن اكتفينا بالوقوف على شواطئها ولم نخض غمارها.

مائة جمجمة، هي مجموع ما فحصته حتى الآن، منها، وفيها جميعا نفس التكوين، لا فرق بين الناس فيها دون جلودهم يا أبا الريحان، الرجال والنساء، العلماء والجهال، تتساوى الملامح كلها، حين ننزع عن الرأس قشرتها.

بدأت بتدوين ما وجدته في كتاب سيكون جزءا من القانون الذي عزمت على وضعه.

أما الضوء يا أبا الريحان، هذا الذي خلق الله لأجله هذه العين، فسيظل يسحرني. منذ ذلك اليوم الذي رأيت أخي محمود يدخل يده في إناء كروي من الزجاج، مملوء بالماء، فتبدو يده كبيرة عن حجمها. لقد وجدت تفصيل ذلك في كتاب ابن الهيثم الذي أخبرتك عنه.

خلال إقامتي هنا، لم أكتب سوى أجروزة في المنطق ورسالة في الموسيقى، سأجتهد أن أرسل لك نسخة منها لأني أحب أن أسمع رأيك فيها...

أبو علي بن سينا

* * *

«ثم قصد علاء الدولة همذان، وسار معه الشيخ، فعاودته العلة في الطريق، حتى أصبح يحقن نفسه في اليوم ثمان مرات، وكان قد ظهر عليه الصرع الذي يعقب القولنج فلما بلغ همذان، علم أن قوته قد سقطت وأنها لا تفي بدفع المرض، وقال: المدبر الذي كان يدبر لي قد عجز عن التدبير، وتصدق، وأعتق جواريه وبقي على ذلك ثلاثة أيام، حتى انتقل إلى جوار الله تعالى في شهود سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، وكانت ولادته في سنة سبعين وثلاثمائة وجميع عمره ثمانية وخمسون سنة، رضي الله عنه وأحسن إليه».

أبو عبيد الجوزجاني

رحيـــل

عسكر الجيش في مرج واسع، على مشارف همذان.

نصبت خيمة الأمير، أقرب للبحيرة، ومن ورائها خيام قادته، ووزرائه الذين صحبوه، ثم خيام الجند في أنصاف دوائر، تتسع كلما ابتعدت.

بين أول خيمة، وشاطئ البحيرة أعدت الأرض لطوابير الجند في الصباح، وللصلاة، وللسمر إذا حل المساء. تتوزع الحراسة خلف صفوف الخيام، وتضاء مشاعل كثيرة تنعكس على سطح البحيرة حتى تكشف أيّ محاولة لعبورها.

الخيمة الطبية، في وسط خيام الجند، حولها أرض خالية على شكل دائرة، تنتهي فيها الممرات بين الخيام، ليكون الوصول إليها سهلا لجميع الجنود.

كانت الخيمة واسعة، ومقسمة إلى حجرات عديدة، واحدة للكشف والفرز والتصنيف، وثانية للجراحة، وأخرى للنقاهة والمتابعة بعد الجراحة، وحجرة جعل فيها معمل عقاقير صغير.

يصحب الجيش طاقم طبي كامل، يختاره الرئيس ابن سينا من بين تلامذته، وأطباء البيمارستان والممرضين، بعد أن يكون قد أمّر عليه أحد النابهين ممن يثق فيهم.

لأول مرة منذ اعتمد ابن سينا هذا النظام يترك الخيمة، وينزل في خيمة أعدت له إلى جوار الأمير. كان المرض قد عاوده من جديد، بأشد مما كان من قبل، إثر دواء قدمه له أحد الممرضين، لم يكن قد رآه من قبل، وحين سأله: من أنت؟ أجابه أن كبير الممرضين قد رأى عجزا في عدد من معه فاستعان ببعض الجنود الذين دربهم على أعمال محدودة يقومون بها.

لم تصحبه في خيمته إلا ورد، ما عاد يثق بأحد سواها. كانت تسهر

إلى جواره، تعد له الأدوية التي يطلبها.

تـراه إذا ألم به الصرع الذي يعقـب نوبات القولـنج، وهي عاجزة عن فعـل أي شيء. تظـل واضعة كفها على رأســه تتلو القـرآن حتى يفيق من الإغماءة التي تعقب الصرع.

قال لها مرة:

- لـو لم تكـن هنـاك في هذه السـماء حياة لنـا بعد فناء هذه الأجسـاد لكانـت الحياة عبـثا يا ورد.

- وهل يشك حبيبي في أمر تلك الحياة.

- أنا الآن أكثر إيمانا بها، ما عاد لي شيء سوى هذا الإيمان.

- لو لم تكن حياتك بحثا عنه، ما بقي لك منه شيء الآن.

- أترين في هذا الجسـد شيـئا يغري بالمكابرة، لقد تبـدد كله كما ترين.

- تبـدد كـما يتبدد ماء النهـر، بين طبقات الأرض. ما مـن حياة تنمو فيها إلا وهي منه.

- أصبح عاجزا عن منح السعادة أو جنيها.

- السـعادة لها أبواب كثيرة، لم يجمعها الله في الجسـد وحده.

- توّجها به.

- ستظل بعضًـا لا كُلًّا.

- وأي شيء منها سوى ذلك؟

- منها الأنس، ومنها الرضا. هل أنا من ســيخبرك بذلك؟! ألســت أنت الذي قال

إن الســعادة تكون للعقول، قبل أن تكون للنفوس، بل هي لا تكون للنفوس إلا مع النفوس من حيث هي عاقلة، لا من حيث هي متذوقة.

- وهل أنـت سـعيدة؟

- من حيث أنا عاقلة، أم من حيث أنا متذوقة؟

ابتـسم وقال من كليهما..

- .. بقربك أنا سعيدة من كل الوجوه.
- مع شيخ عمره خمسون سنة!، وعمر جسده سبعون!.
- مع روح شيخ عمرها ألف عام، ترى العالم بحرية، وتشع من قلبها الفرح، أليست الشمس عجوزا بحساب سنين البشر؟
- الروح!
- هي الخالدة في الجنة كما تقول.
- نعم.
- ألا تكفي إذن لتمنحنا الأنس والرضا.
- قبليني يا ورد.
أحنت رأسها إلى جبينه، وقبلته، ضمّها إليه بذراع واهن، وهي تمر بشفتيها على وجهه. ثم تريح رأسها على صدره.
- ما أجمل دق قلبك.
- لازال قلبي طارقا هذا الباب منذ وعي، تعب من الدق يا ورد، ولم يفتح له بعد.
- ألم تقل لي مرة، إنها رحلة، إلى العالم الجميل.
- هل يمنحني الله هذا العالم؟
- ولم لا!
- لم لا؟!!
- وهل كنتَ إلا باحثا عنه ودالا عليه. أترى الله يخذلك بعد ذلك؟
- الله لا يخذل أحدا.. أنا من خذل نفسه.
- استرح قليلا الآن.
- كم بقي على المغرب.
- احمر قرص الشمس، وما بقي له إلا القليل.
- أريد أن أتوضأ.
- أحضر لك الماء؟

- لا سأتوضأ من ماء البحيرة.

- ماؤها بارد.

- يبرد جسدي المحموم.

قام يتكئ عليها، وقدمه تخط في الأرض، وسارا حتى بلغا حافة البحيرة. جلس هو على حجر ونزلت تملأ قدرا معها، ثم عادت به توضئه.

تصب الماء في كفيه فيتمضمض ويغسل وجهه، وذراعيه، ويمسح رأسه، ثم تغسل له هي قدميه.

راقبته وهو يصلي، لم يقو على الوقوف، فصلى جالسا، رفع يديه إلى السماء، فتذكرت يوم استيقظت من نومها على مناجاته في طريقهم بين همذان وأصفهان.

شتان بين كلا اليومين، كان يومها واقفا، يخرج صوته صافيا، وهو اليوم جالس يخرج صوته واهنا:

إلهي، وهل لنا سوى بابك نقبل عليه، حين تبدد قوتنا.

لم يبق لي شيء في هذه الحياة. المدبر الذي جعلته يدبر لي، عجز عن التدبير. وعما قليل تسير روحي إليك. ولا أعرف هل وفيت بما عاهدتك عليه أم لا؟

حاولتُ أن أفعل، وكنت أخفق، سرتُ إليك بالفطرة التي فطرتنا عليها، أليس العقل هو هذه الفطرة الأولى التي جعلتها لنا نُميز بها الأمور الحسنة والقبيحة؟

أنهى صلاته فأقبلت عليه ورد، قبلت يده وقالت:

- هون عليك. ستشفى عما قريب.

- المدبر الذي كان يدبر بدني عجز عن التدبير، ولم تعد تنفع المعالجة.

- تزوجني يا أبا علي؟

- أنا رجل فانٍ يا ورد.

- كلنا فانون في هذه الدنيا.. أريد أن أكون معك في الجنة. أليس الله جاعل المرأة مع زوجها في الجنة؟

- بلى.

- أريد أن أكون معك إذن.

قرب كفها من فمه وقبلها.

***

عقد قرانهما كبير الفقهاء المصاحبين للجيش، وشهد على العقد الأمير علاء الدولة وأبو عبيد الجوزجاني.

تقول ورد: «فكأنما ولدتُ من جديد، فراشةً خفيفةً بهيجةً. وكأن حياتي التي مضت شرنقة ضيقة نبَتَ فيها جناحَايَ، لأحلِّق بهما ما بقي للكون من عمر .. سنكون معا،

صاعديْن في ملكوت السماء الرحب، حيث لا حدَّ، ولا خوف ولا حُزن ولا قلق».

تشابكت كفَّاهُما، وتقاربت رأساهما وناما في الخيمة المنصوبة على مشارف همذان.

آن لأبي علي أن يحل فلا يرحل، وهو الذي ما انتهى له سفر في البلاد، وفي الكتب وفي قلوب الناس.

«آنٍ لأبي علي أن يسكن.. ولعل في ورد السكن».

حلَّ في قلب ورد، آنسا مطمئنا.

- لم أكن مطمئنا كما أنا الآن يا ورد.

- ولا أنا يا سيدي. ولا أنــا.

ومن بعيد، من حجرة درسه في أصفهان يأتيها صوته بين تلامذته صافيا كما اعتادت أن تسمعه:

«ربطت حكمة الله أطراف الموجودات كلها برباط واحد، جعلت بعضها عللا وبعضها معلولا، بعضها أوائل وبعضها ثوان. ثم ركبت في المعلول نزوعا نحو علته، وجعلت في العلل رأفة ورحمةً وتحنا على معلولاتها، مثلما هو في الآباء والأمهات نحو الأبناء، وفي الأقوياء نحو الضعفاء. والحب تعلق المعلول بعلته. وعلى قدر عشق الله للكائن، وفيضه عليه من تجلي ذاته، وعشق الكائن للمعشوق الأول، وهو الذات الإلهية، وشوقه إليه واستعداده لقبول تجليه وفيض خيره وكماله وجماله، على قدر هذا كله يكون حظ الكائن من الوجود ونصيبه من الخير والكمال والجمال».

قالت ورد: وإن له في خَلْقِه من يحبُّهم، نُحبه.

يعود صوته من حجرة الدرس:

«الشوق، الحركة إلى تتميم الابتهاج.

الصلاة شوق.

تصلي السماء بدورانها، والأرض برجحانها والماء بسيلانه والمطر بهطلانه. وإن من شيء إلا يسبح بحمده.

أنهينا درسنا اليوم، ومن شاهد الحق، لزمه لزوما.. أو تركه عجزا ولا منزلة بين هاتين المنزلتين إلا منزلة الخمول، والسلام».

* * *

استراحة الخروج

«تالار خروج»

دوائر

تمنيت أن أتأخر في النوم، ولا يوقظني أحد فتفوتني الطائرة.

تركت الفندق، وبت آخر ليلة، في منزل رضوى، وگنجيان. على فراش مدّه لي في غرفة المكتبة. قضينا أول الليل ناشرين كتب التاريخ حولنا، وخرائطه التي كانت ملفوفة لم يفتحها منذ سنين.

أسأله فيجيب. أنتقل من موضوع إلى آخر بسرعة، من «ما وراء النهر» إلى «قزوين»، ثم إلى أواسط فارس، والأهواز. من قبائل الترك إلى قبائل الديلم، ثم نعود إلى سنين الفتح الأولى. أريد أن أجمع منه مفاتيح كثيرة، أجرّبها فيها بعد، وأريد أن أطيل تلك الليلة فأملأها بها أستطيع، أليست تطول الأيام بقدر ما فيها من أشياء نحبها.

لكن حيلتي لم تفلح في إطالة اليوم. دقت الساعة الواحدة صباحا، فتركني لأنام، ولم أنم.

كان النوم أصعب عمل يمكنني القيام به في هذه الليلة، قضيت في إيران شهرا بين أربع مدن، جاء النوم فيها كلها سريعا بلا مشقة. على أسرّة الفنادق، أو في بيوت أناس ألقاهم جميعا للمرة الأولى. لم يكن مجرد نوم، كان خلقا جديدا كل ليلة.

أغمض عيني، فينزاح عني كل عبث العالم وضجيجه، وأصحو بصحيفة بيضاء ليس فيها ركام من أيام سابقة.

منحتني إيران حياة جديدة كل يوم، تملؤها حكايات فارس سحرا، وجمالا وفرحا.

وككل ما نتمناه أن يتأخر، جاء الصباح سريعا.

فتحت النافذة أشم هواء طهران البارد في الصباح. شربت وشربت، كأني أجمعه في

صدري، أتزود به لأيامي القادمة.

بقيت حقيبتي مفتوحة لم أضع فيها أي شيء. لم أكن قد رتبتها بعد، كأن تأخيرها يطيل بقائي. أضع الأشياء التي اشتريتها؛ لوحةٌ من الخشب كتلك المعلقة على جدار الصالة في بيت رضوى، عليها قول الله تعالى: «وإن يكاد الذين كفروا ليُزلِقُونَك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون». وصندوق من خشب الورد، وديوان عمر الخيام بالفارسية مجلدٌ بقطيفة بنية، وديوان شمس الدين محمد حافظ شيرازي، عليه إهداء آواز في عيد ميلادي منذ أيام.

كان الوقت مبكرا جدا، جربت أن أتصل بآواز فردت بسرعة.

- لم تنم؟

- لا، وأنت؟

- لم أنم، عندي امتحان اليوم، ولم أدرس. كلما قرأت شيئا بالعربية تذكرت أنك تسافر.. أنا محزونة لأنك تسافر.

كنت أكثر حزنا منها، ولم أعرف بم أجيبها، ولا لم تمنحنا الحياة لقاءات، تُعلقٍّ بها نفوسنا، ونحن راحلون عنها سريعا؟

قلت:

- هل كنا نُقَدَّر أن نلتقي؟

- لا.

- إذن، فالله الذي جمعنا مرة، قادر أن يجمعنا مرات. من يدري قد نلتقي في قونية قريبا.

- جداً. سأكون مسرورة.

قالتها بصوت مختنق، أحس دموعها فيه، وكنت أقاوم أنا أيضا بكاء يكاد ينفجر في صدري. فسكتُّ وسكتت.

- متى تسافر، ألا يمكنني أن أراك.

- طائرتي عند الظهر إن شاء الله.

- ألا تتأخر قليلا؟ سأنهي امتحاني في الواحدة.

- سأتصل بك وأنا في المطار، الآن أتركك تدرسين، لا أريد أن يحاجّني جلال الدين، ويقول شغلْتَها عنا.

ضحكت، وقالت لا تقلق. «خلي بالك من نفسك» صح؟

- نعم.. صح.. مَنْ دُوسِتت دَارم.

- شاطر. وأنا أيضا.

- ادرسي الآن، وأتصلُ بك لاحقا.

- حاضر.

أغلقت الهاتف، وأخذت نفسا طويلا أضبط به اضطرابي، ثم أكملت ترتيب الأشياء في الحقيبة. كانت رضوى قد كوت لي ثيابي وعلقتها على باب الغرفة، توضأت وعدت أرتديها، وأصلي الفجر.

أدركني گنجيان وأنا في الصلاة، فصلى معي.

صافحني بعد أن انتهينا، وهو يقول: أهلا بك أخاً. سعيد بمعرفتك.

- وأنا أيضا.

- سنلتقي في القاهرة بالتأكيد.

- إن شاء الله.

قمت أغلق الحقيبة، فساعدني وأَخرجها إلى صالة البيت.

تسرع ندى من حجرتها، وعلى وجهها أثر النوم، شعرها مشعث وبيدها ورقة كبيرة، تمدها إليّ، ولها تلك الابتسامة الرحبة التي أحبها في وجهها.

كانت قد رسمت طائرا بخطوط مهتزة، لكنه طائر على أية حال، فاردًا جناحيه، قد لَوّنت جناحا منه بألوان علم إيران الأحمر والأبيض والأخضر، ولوّنت الآخر بألوان علم مصر، الأحمر والأبيض والأسود.

ضحك وهو يقول: أمها علمتها رسم هذه الصورة، وجعلتها مقررا حتى أتقنتها. وأنا أريدها أن تلون جسد الطائر بعلم الأكراد!

ضحكْتُ وأنا أقول: ولكم علم أيضا أيها العِرْقي!! إن هي إلا ألوان لونتموها، ما أنزل الله بها من سلطان.

فضحك.

قالت رضوى: وصل السائق.

كانت تحمل في يدها حقيبة صغيرة، مدتها إليّ.

- ما هذا؟
- شيء تأكله في الطريق.
- حتى في إيران يفعلون هذا؟
- الناس هم الناس.
- شكرا لكِ ... دستت دَرْد نَكُنه.
- تابع تعلمَ الفارسية حين تعود .. ستحبها كثيرا.
- أحبها من الآن.

لا أحب الوداعات الطويلة، ومع ذلك لا أملك اختصارها. أشد على يد كنجيان، وأعانقه. يقطعنا صوت سائق سيارة الأجرة متذمرا فيحمل حقيبتي ويسبقني بها. تقول رضوى: سلم على غادة.. وعلى مصر.

- يصل.

* * *

نقطع الطريق إلى المطار في ضحى يوم الجمعة، وطهران لم تزل نائمة. شوارعها الناعمة خالية إلا من حافلاتها الحمراء. كنت أركب هذا الـ BRT بين ميدانَيْ الفردوسي، وانقلاب، ثم أركب سيارة تسير في شارع كارگر لأصل إلى بيت رضوى.

تغلبني دموعي حين نصل إلى الميدان، فأتشاغل بالنظر إلى الطريق.

بنك ملّتْ (الشعب)، وقبة المترو الواسعة، والنصب التذكاري الذي يحمل صورة الإمام الخميني رافعا يده بالتحية، ووجه جندي يرفع علم إيران في حرب العراق، التي لم يفهم لم أقحِم فيها.

لم أبك من قبل في سفر، أنا الذي اعتاد الرحيل، حتى أَلِفَه الرحيل. لا حين تركت المدينة المنورة أول مرة، ولا حين كنت أسافر بين مصر والمدينة، كنت دائما كما يقول الشاعر العربي: ببغداد أشتاق الشام وها أنا إلى الكرخ من بغداد جم التشوق، ورغم ذلك لم تكن عيني لتدمع أبدا، حتى إنهم كانوا يقولون إن لي قلبا من حجر، ثم يُلطِّفون القول بأنه حجر كريم.

تلك قلوب الغربة، تخشى أن تتعلق بشيء ثم يقتُلها الألم. فهي تعانق العالم عناقا عابرا، لأنه هو نفسه عابر، تحمي بذلك نفسها.

طهران بدَّدت هذا الحذر، وكسرت قشور القلب وحدوده.

أَبَتِ إلا أن تُظهر فارس على العالم فيه، فمدت جذورها، حتى ليدمى الآن إذْ أحركها، وأنا أجمع روحي المبعثرة فيمن عرفتهم فيها. يرغمني الألم على أن أترك ما تبعثر وقد نقص مني، وأنا أعلم أنني لن أهنأ بعده أبدا، إلا بما يتسلى به الأب عن فراق أبنائه، أملًا في لقاء قريب.

ندى ورضوى وگنجيان، وجليل.

وآواز.

جئتها لا أعرف فيها أحدا. إلا ابن سينا وورد وشيرين.

سائح أبحث في أوراق تاريخ قديم.

وأتركها وهي تعرفني وأعرفها، وقد أطالت عمري بمقدار ما كشفت لي من التاريخ، وبمقدار ما منحتني إيمانا بالمستقبل.

كنت أسير في الشوارع، وأنا أسمع صوتا قويا داخلي يقول: حقا.. إن المستقبل لهذا الدين. رغم أن الذي حولي منه باهت، يكاد لا يرى.

ليس صوتا خارجا من انتماء وعصبية، صوت العصبية أعرفه، أحسه غريبا عما حوله.

كان هـذا صوتـا متجانـسـا مع كل شيء، مـع التاريـخ بأخطائه، ومع الحـاضر بمآسيه. كان صوتـا حـين رددته على الجبـل في «دَرَكَـه»، بدت الـسحب القريبة مـستأنسة سعيدة.

لقد جمع الله في هذا الدين كل موازين الجمال التي أرادها للناس. تلك التي كشـفوها من قبل ناقصةً تَمَّمَها، والتي لم يكشـفوها أرشـدهم إليها، علمهـم كيف يبحثـون بعقولهم، وعلمهم أن الدنيـا لا تنتهي حين يخطئ الناس، ولا تنتهي حين يقتتلون.

علمهم أنها إنما خلقت لتفنى، وأنهم خلقوا ليخلدوا..

فهـي راحلة عنهم، وهم باقون، إما آنسـين به سـبحانه، وإما نادمين عمّا أضاعوا.

لم تكن تلك أياما بل عمرا مديدا منَحنيه هذا الشهر القصير الطويل.

نزلت طهران في الفجر، وخرجت منها في الضحى. وما كانت فارس إلا ضحى تاريخ

هذه الأمة الجميلة، التي أحبها، ولأجلها أحل وأرحل.

كل شيء هنا قبِلَني سريعا، وقبِلْتُه بأسرع مما قبلني. ألفته وألفني.

كأن روحي عاشت في هذا المكان من قبل.

لعلها هي روح أبي علي التي كانت معي.

روحـه تعـرف الـرَّي، ودَرْبَنْد وكنجامـه، تعرف أصفهـان ونهرها، وهمذان، وحدائقها.

روحـه التي حامت في العلم وفي الفلسـفة وحتـى في التصوف باحثة عن مبدأ الوجود وعلله.

***

خرج السائق من طهران، واستقبل أمامه الطريق إلى المطار، وفاض الدمع أخيرا سهلا لا أمنعه، لم يُجْدِ تأمل الطريق، ولا الرحيل في الخواطر شيئا في منعه.

كانت كلها تنتهي إليه.

دمع ثم دمع.

كأن روحي تريد أن تتزين بقوس قزح، قبل أن ترحل.

فأمطرت.

نَمُرّ على مقام الخميني، والشمس معكوسة على قبابه ومآذنه، فلا ألتفت إليه.

أخرج هاتفي وأكتب رسالة لآواز: «أنا في الطريق إلى المطار يا نغم فارس والتُرك».

«تصل سالما.. يا أميريَ العربي».

لا يتحدث السائق أيّ كلمة معي. وجهه قمحي، وله لحية خفيفة، موشّاة بالشيب في أطرافها.

وصلنا إلى المطار، فساعدني بوضع الحقيبة على عربة، وودعني بابتسامة لطيفة وانصرف.

في المطار، كانت صالة المغادرة مزدحمة، وشاشات الإعلان عن الرحلات تبدل شعارات شركات الطيران.

«طيران الإمارات.. فتحت بوابة الدخول»

يقوم الناس وأنا معهم، أقف في الطابور.

تسألني الفتاة أين آخر محطة وصول.

«في جدة»

تطبع بطاقات الطائرة، واحدة إلى دبي والأخرى من دبي إلى مطار الملك عبد العزيز، وتُعلّق بطاقة على الحقيبة.

«تسلم الحقيبة في جدة»

«شكرًا لك»
«مرحبا».
لم يكـن حصـولي على تأشـيرة دخـول للمملكة أمرا سـهلا. أولا لأن التأشـيرات لا تمنح في غـير بلد الإقامة، وثانيا لأنـني في إيران، وبـينهما ما بـينهـما. لم تكن سـوى محاولة مـن دون أمل. بـنت للموظف هنـاك سـبب زيـارتي لإيـران، وأنني أتمنـى أن أعتمر قبل أن أعود إلى مـصر، وأريد أن أزور أبي هنـاك. قـال لي: «لا أعدك، سـيحتاج الأمر إلى وقـت، ربما أكثر مـن فترة بقائك هنا، على أيّ حال اترك بياناتك ومكان إقامتك، وسـأرد عليك».
منـذ يومين فقـط جاءتني الموافقـة، فعدّلت حجزي مـن القاهرة إلى مطـار الملـك عبد العزيز. لم أجد رحلات مباشرة في هذا الوقـت، سـأنزل في دبي كما جئت
ثم أكمل إلى هنـاك.
في الطائـرة، رأيتهـا آتيـة في الممر، تتابـع أرقام المقاعـد حتى وصلت إليّ. وضعـت حقيـبتها في صندوق الأمتعة، واسـتأذنـت أن تجلس هي عند النافذة وأجلس أنا جوار الممر.
أحـب النـوافذ ولا أتركها لأحد أبدا. لكنـني قبلـت، فأمام فتاة بوسـنية رأيتها صدفة منذ شهر، ثم يحملها القدر لتكون إلى جواري ساعتين حتى دبي لابد أن أقبل.
بدت أصغر مما كانت عليه في المرة الماضيـة.
وجه طفلة رقيق، وجسـد فتاة يافع.
– كنا على نفس الطائرة القادمة من القاهرة قبل شهر.
– حقًا.. أنـت من مصر؟
– نعم.
– أهلا وسـهلا.. قالـتها بعربيـة مفردة، بواو فارسـية أقرب للفاء.

- تعرفين العربية.

- أفهمها لكنني لا أستطيع التحدث بها.

تضبط مقعدها، وتخرج مجلة الطائرة تتصفحها، وأنا منشغل بإرسال رسائل قصيرة من هاتفي قبل أن تتحرك الطائرة. ستحرمني هذه الفتاة رؤية طهران من النافذة ونحن نقلع.

أنظر ناحية النافذة، فأرى وجهها الناصع مشرقا، فأسألها:

- لم كنت في مصر؟

- لي صديقات في مصر، كنت أزورهم.

- مصريات؟

- لا بوسنيات. كنا أربع فتيات في مركز واحد، اثنتان تزوجتا وجاءتا إلى مصر،

وواحدة تزوجت وسافرت إلى النمسا.

- النمسا؟!

- نعم.

- وإيران؟

- حصلت على منحة في جامعة طهران، سأدرس في كلية الفنون.

هي إذن صبية صغيرة كما ينبئ وجهها، ثمانية عشر عاما لا أكثر. ما يعني أنها ولدت في أيام الحرب، ربما في أيامها الأولى أيضا.

- لا تذكرين الحرب في البوسنة بالطبع.

- أنا ابنة الحرب... قالتها بحدة لا تناسب وجهها الهادئ، وإن بدا عليه التوتر.

- لم أقصد شيئا.

- لا بأس. لا تهتم.. أمي كانت فتاة في مثل عمري حين اندلعت الحرب، تعرضت مثل نساء قريتنا جميعا للاغتصاب. لم تعلم أمي بحملها إلا بعد شهور، حين استطاعت الهرب مع بعض الفتيات من المعسكر

الذي أسرن فيه، فشلت في التخلص من جنينها، الذي هو أنا. توفيت بعد أن وَلدَت بسنتين، وبقيت مع جدتي إلى أن توفيت هي أيضا. ثم أودعتُ دار رعاية يديرها الهلال الأحمر الإيراني، وتعلمت في مدرسة تابعة له... آسفة إن كان هذا مؤلما لك لكننا لا نختار حياتنا..

لم يكن حديثها حادا، بل كانت تحاول أن يبدو كأنها تسرد أشياء لا علاقة لها بها، لكنني شعرت أن شيئا في حديثها يدينني أنا..

خصوصًا ما يَخصُ الهلال الأحمر الإيراني، ومدرَسَتُه، لأني أعْلَمُ تاريخيًا أنه لا وجود شيعيٌ في هذه البلاد، فُتِحَت وأسلم أهلها على أيدي الأتراك السنة.

كانت مشاعري مزدحمة، ولم أعرف بمَ أجيب.. لن يكون لكلامي أيَّ معنى..

كم تبدو هذه الحياة عجيبة وهي تجمع الأضداد دائما معا!

تذكرت أسئلتي القديمة كلها، كنت صغيرا حين كانت حرب البوسنة دائرة في نشرات الأخبار، وكانت الأسئلة تزورني كل ليلة، تدور في عقلي كشفرات طواحين لا تهدأ.

هل كُتب على المسلمين أن يعاديهم العالم، ويعادونه؟

سألتُ أمي في حينها.. فلم تجبني..

وسألتُ عبد الرحمن بعد ذلك بسنوات.. فلم يجبني..

ورحلت في التاريخ.. فعاد يلقي إلي السؤال يختم به رحلتي..

كم من الندوب في وجه هذا الزمان لا يستطيع سترها؟

ربما بعدد الأيام التي عاشها البشر فيه..

وهذه الفتاة إلى جواري من ندوب الزمن..

قضينا بقية الطريق لم نتحدث في شيء، نامت هي وبقيت أنا مستيقظا أقلب صفحات مفكرتي الصغيرة أقرأ ما دونتُه خلال الأيام الماضية منذ

وصولي، لم أستطع دفع الأفكار عني، فأخرجت جهازي أكتب ما أفكر فيه..

كتبت رسالة لغادة هي الأولى منذ سافرتُ:

«.... سأخبرك بشيء، أشعر أن أيامي هنا لم تكن مصادفة.. لو رتّبتُ أنا الأيام قبل أن آتي إلى هنا، ما خرجَتْ كما خرجَتْ عليه، ولو اخترت ختاما لرحلتي ما تنبهت إلى هذه البوسنية لتكون إلى جواري.

قلتِ لي مرة إن الله لا يفتح لنا بابا من المعرفة إلا لأنه يريد منا أشياء، وعلينا أن نلتمس مراده من كل ما يلقيه لنا..

قلتِ إنه يجيء لنا الرسائل حتى في غناء الطيور من حولنا..

أصدقك..

وأفكر الآن أنه ربما كان عليَّ أن أغير الأسئلة التي بدأتُ منها.. الأسئلة النمطية تنتهي عادة إلى إجابات نمطية.. كأن السؤال الذي نلقيه يرسم طريق إجابته سلفا، ومهما حاولنا نكون مقيدين به..

لقد ظلمنا أنفسنا حين جعلنا سياجًا ضيقا سميناه «إسلامي»، فسّرْنا به التاريخ والعلوم والحضارة، ثم تركنا كل شيء لنَصِفَ ونعرّفَ ونحدّدَ ما هو هذا الإسلامي، حتى ضاق منا، وكلما جاء جيل ضيّق فيه ظنًّا أنه بالتضيق يحميه، مع أن الإسلام ليس سوى نسق واحد واسع مفتوح يقبل الكثير مما نحجبه نحن عنه... »

أضيئت إشارات ربط الأحزمة فأغلقتُ حاسبي، وعدّلت جلستي انتظارا للأرض.. حتى خرجت الطائرة عن استقرارها وبدأت في الهبوط.

عرفتُ من «زُهرا» ونحن نعبر الممر مسرعين إلى داخل المطار أنها ستكمل معي الطريق إلى جدة، فالجامعة منحتها رحلة عمرة قبل بدء الدراسة أيضا.

لم يكـن انتظارنا في دبي كافيا حتى لنصلي الظهر والعصر جمعا، أدركنا بوابـة الخروج جريـا في لحظاتها الأخيرة، لتقلع الطائـرة إلى جدة بعد أقل من خمس وأربعين دقيقة فقط من وصولنا.

***

في المدينـة تقطـع السـيارة طريـق عمـر بن الخطـاب حتـى تصل إلى ميـدان العنبرية. ألقي نظرة على المسـجد القائم هناك، والذي يحمل نفس اسـم الميـدان. بناه السـلطان عبـد الحميـد الثـاني في أوائل القـرن الماضي، احتفالا بافتتاح خط سـكة الحديد الذي يصل المدينـة بعاصـمة الخلافة.. اسـتانبول.

كانـت «زُهرا» قـد صحبتني حين عرضـت أن أسـاعدها فترة إقامتها في المدينة.

وصلنا إلى المسجد النبوي من جهة باب السـلام، لكن الفنادق العالية كانـت تخفي المسـجد فلا يظهـر منـه أي شيء، حتـى أذان المغرب وصل ضعيفـا. قـال السـائق: لن أسـتطيع الدخـول أكثر من ذلـك لأن الطرق مزدحمة وقت الصلاة.

أحكمـت «زُهرا» لف غطاء رأسـها، أدخلت خصلات شـعرها بكفها جيـدا، ونحن نعـبر الطريق، ومَرَّرًا بـين فندقين ليظهر أمامنا المسـجد مرة واحدة، مهيبا، منيرا، كأن الليل حين نزل على المدينة لم ينزل عليه.

وقفَت هي متسـمرة لا تتحرك، تدير عينيها فيها حولها. كانتا دامعتين وهي تقول: لا أصدق أنني هنا، قريبة إلى هذا الحد.

دوى صوت إقامة الصلاة صافيا عاليا، ونحن بعْدُ في أول السـاحة، لم نخطُ خطوةً واحدةً.

تَمْتَمَتْ وتمتمْتُ حين قال أشهد أن محمدا رسـول الله:

«السـلام عليك يا رسـول الله.»

نزلنا لنتوضـأ، واتفقنا على أن ينتظر الذي يسبق منا صـاحبه عند أقرب سـارية مظـلات أمامنا، عليهـا لوحة تشـير إلى مداخل الوضـوء مكتوبة

بالعربية والانجليزية والفارسية..

أسمع الإمام يقرأ والدرج ينزل بي إلى المواضئ آيات سورة الرعد التي سمعتها يوم وصلت إلى طهران:

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾

يضعف الصوت كلما نزلنا ،وتزيد رائحة المطهر الذي يستعمله العمال في تنظيف الأرضيات.

أملأ صدري بالهواء المحمل بعطر المطهر ،وقد تبدل صوت التلاوة إلى رنين أدوات النظافة بالبلاط ،وإلى تداخل صدى أصوات الناس، وخرير الماء المنساب.

اكتشفت كم كنت أشتاق حتى لهذه التفاصيل الصغيرة..

حين صعدت من الوضوء، كانت الصلاة قد انتهت، قالت «زُهرا» نسلم على رسول الله أولا.

قلت: لا يمكنك الدخول الآن، أوقات النساء تكون في الصباح.

قالت: بل أريد أن أسَلِّم الآن!

سرنا حتى حاذينا الحجرة الشريفة من أمام سور القِبْلة. إذا رفعنا وجوهنا تكون القُبّة الخضراء فوقنا مباشرة.. قلتُ: هنا نُسلِّم، وفي الصباح تُسلِّمين من الروضة الشريفة.

بكت وبكيت.

كنت أسمع نحيبها الخفيف، وصوتها المتهدج، وأنا أسلم:

السلام عليك يا رسول الله..

السلام عليك يا رسول الله..

السلام على صاحبيك أبي بكر، وعمر.

السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

***

تركتها عند أقرب باب للنساء، جهة البقيع، واتفقنا على أن نلتقي بعد العشاء بساعة عند موضع حددته لها، واتجهتُ أنا إلى البقيع، الذي كان مفتوحا لجنازة بعد المغرب، دخلت وأنا أعرف طريقي إلى قبر عثمان بن عفان رضي الله عنه.

كان الموضع يوم دفن شرقيّ البقيع، وهو الآن في داخله.

«السلام عليك يا أمير المؤمنين... يا ذا النورين، يا شهيدا كان موته امتحانا طويلا لم ننجح في أوله ...»

انقطع مني الكلام ولم أجد شيئا أقوله.. فوقفت صامتا تتداخل في ذهني الصور، وفاة عمر بن الخطاب، واجتماع الستّة، وتنازُل عبد الرحمن بن عوف، ثم مشاوراته مع الخمسة الباقين، حتى بُويع لعثمان بن عفان في المسجد، أصواتُ المسلمين حول بيته وهو محاصرٌ، وأصابع زوجته نائلةُ التي قُطعَت وهي تدافع عنه، تكبيرٌ مختلطٌ بهتافاتٍ وصيحاتٍ ليست واضحة، حتى سمعتُ أذان العشاء، فانقطعت الصور والأصوات.

قبل أن أنصرف وجدت على لساني دعاء كنت أحفظه وأنا صغير من كِتاب في كُتب المدرسة:

«اللهم إني أحب صحابة نبيك جميعا، فهَبْني لأحدهم يوم الفزع الأكبر، فإنك تعلم أني ما أحببتهم إلا فيك، يا أرحم الراحمين»

وعدت أسلم.. وانصرفت.

***

تم إنتاج هذا العمل (الرئيس) بمنحة من المورد الثقافي

This production (The President) was made possible through Culture Resource's Production Awards Programme.

